

رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية

١٨٤٠م - ١٨٥٠م

المسماة

بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسية

فقد لها وحررها

د. محمد عيسى صالحية

جامعة الزموات



مؤسسة الرسالة

رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

٩٠٩,٨

رحل - رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠م - ١٩٥٠م المسماة بتحفة الأذكىاء بأخبار بلاد روسيا / تقديم محمد عيسى صالحية. عمان : دار البشير للنشر، ١٩٩٢.

(٢٦٤) ص.

ر.أ (١٩٩٢/١/٢٢).

١- الجغرافية الطبيعية - رحلات - روسيا ٢- محمد علي صالحية،

تقديم

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)



مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحية
هاتف ٣٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برفيقا: بيوشتران

رقد الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية

١٨٤٠م - ١٨٥٠م

المسماة

بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا

قدّم لها وحرّرها

د. محمد عيسى صالحية

جامعة اليرموك

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تنويه وإهداء

العلامة صلاح الدين عثمان هاشم، كان يطمح لتقديم هذا الكتاب لقراء العربية تمييزاً لجهود الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي أول عربي رعى مدرسة الاستشراق الروسية، وقد أوكل إليّ مهمة البحث عن هذا الأثر، بعد أن تقلّبت عليه الصروف، ونُقل من مكتبة مسجد رضا باستانبول، وقد قمت بما تحتمه مبيعة التأديب، وحين عذمت على إرسال المخطوط بالبريد إلى واشنطن حيث اعتكف العلامة قرب مكتبة الكونجرس، فجعني البرق بأن العلامة صلاح الدين قد انتقل إلى جوار ربه، وحيداً غريباً، في غرفة صغيرة كتلك التي قضى فيها ساطع الحصري، وأبوزكريا الأنصاري، والمنفلوطي، والكواكبي.

إلى روح العلامة، الذي جعل العلم حياة لقلبه، ومصباحاً لبصره، من عجزت الوحدة والوحشة أن تقدحا في لسانه وفكره، واختفى أثرهما على صفحات ثباته وعزمه، أهدي هذا الكتاب، وأردد:

هذا زمان ليس يحظى به حدثنا الأعمش عن نافع

د. محمد عيسى صالحية

تقديم

كان العلامةُ الجليلُ أحمدُ تيمور باشا أول من تنبه إلى أهمية الشيخ محمد عياد الطنطاوي في تاريخ علم المشرقيات، حيث بذل الجهدَ في تسقط أخباره زماناً من مختلف المصادر، وسأل عنها علماء الأزهر الشريف، ووسع دوائر بحثه عند المستشرقين، ومن ثم كتب مقالته الشهيرة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»^(١)، وقد بادر العالم اغناطيوس كراجكوفسكي في الرد على مقالة العلامة أحمد تيمور، بمقالة عنوانها «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»^(٢)، ضمنها ذكر أهم المراجع التي حوت ترجمة لسيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ومنها المقالة الشهيرة التي كتبها العلامة J.G.Kosegarten في مجلة Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, VII /850، ثم استدرِك عليه العالم يوسف غوتوالد في مجلة Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, IV, 243-248 هذا إضافة إلى الشذرات والنتف الواردة في حرودات كتبه المحفوظة في خزانة الكلية الشرقية، وكذا رسائله المبعثرة من أصدقائه، والتي يوجد قسم منها في مكتبة جامعة هلسنكي، وقرن كراجكوفسكي رسالته للعلامة أحمد تيمور بصورة للقبر الذي يرقد فيه الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وبما يفيد بأن كراجكوفسكي بصدد وضع مصنف لسيرة حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي. لقد كان لرسالة كراجكوفسكي أطيّب الأثر في نفس العلامة أحمد تيمور باشا فكتب إليه الرسالة التالية:

(١) مجلة المجمع العلمي - المجلد ٤، الجزء ٩، أيلول ١٩٣٤ هـ/صفر ١٣٤٢ هـ (٣٨٧ - ٣٩١).

(٢) نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٤، الجزء ١٢ كانون الأول ١٩٢٤ م - جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ (٥٦٢ - ٥٦٤).

سيدي الصديق الأجل؛

تشرفت اليوم بوصول كتابكم الكريم مصحوباً بالصور عن قبر الشيخ عياد وتلك مكرمة عظيمة وهمة شماء وعناية ليست بعدها غاية أذكرها لكم فأشكرها ما دمت حياً، وسننشر في الزهراء ملخص كتابكم ولوح القبر المكتوب عليه بالعربية مع التنويه بأنكم وضعتم ترجمة مفيدة عن الشيخ ستشرونها مستقلة. وكنت أود أن أطيل لكم في كتابي وأذكر لكم بعض فوائد تهمكم عن الكتب التي دخلت خزانتي حديثاً لولا أنني كتبت لكم هذا وأنا طريح الفراش لمرض ثقیل أصابني من نحو شهر، وقد أخذت الحالة تتحسن ولكن ببطء والضعف شديد جداً حتى أنني أتعجب من استطاعتي كتابة كتابي هذا إليكم. وأرجو أن تتقبلوا سلامي الخالص وأشواقي الكثيرة وشكري المكرر يا سيدي العزيز.

١٣ المحرم ١٣٤٨هـ ٢٠ يونيو ١٩٢٩ المخلص: أحمد تيمور^(١)

وقد أوفى كل منهما بوعده، فنشرت الزهراء ملخصاً لرسالة كراجكوفسكي^(١)، ومن ثم أصدر كراجكوفسكي كتابه عن الشيخ المصري الأستاذ في بطرسبورغ في بداية سنة ١٩٣٠م.

ومن ناحية أخرى، فقد أثير الاهتمام بالشيخ محمد عياد الطنطاوي مرة أخرى في مجلة الرسالة، بمقالة استفهامية عن الشيخ عياد الطنطاوي، رجا خلالها الكاتب ممن يعثر على تاريخ هذا الرائد المجهول، أن يدلي على صفحات الرسالة بالمصادر التي يمكن الرجوع إليها عن شخصيته^(٣)، وقد نبه الأستاذ سعيد الأفغاني

(١) انظر، مع المخطوطات العربية، صورة ص ١٠٤.

(٢) مجلة الزهراء (شاهد قبر الشيخ عياد الطنطاوي) ذو القعدة ١٣٤٧ هـ، مجلد ٥، ص ٣٦٠.

(٣) انظر، مقالة محمد أمين حسونة: الشيخ عياد الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٥٤٩، القاهرة، ٧ محرم سنة ١٣٦٣ هـ، الموافق ٣ يناير ١٩٤٤م، مجلد ١٢، ص ٣٩.

إلى جهود أحمد تيمور باشا وكراجكوفسكي^(١)، بهذا الصدد، وطلب إلى الكاتب أن يعاود النظر لها. وعادوا اهتمام الباحثين بالشيخ عياد على صفحات مجلة الكتاب في عدديها يوليو ١٩٤٦ ويونيه ١٩٤٩، بمقالات اشترك فيها محمد عبد الغني حسن ون. ج. بولوتسكي. ولكنها لا تخرج عما نشر عنه قبل ذلك.

لقد كانت بحق كتابات أحمد تيمور وكراجكوفسكي أفضل ما كتب عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي بسبب دقتها وشموليتها واستقصائها لسيرة حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، لا سيما خلال إقامته في روسيا، وأكمل عقد سيرة حياة الشيخ محمد عياد، الأديب حسين علي محفوظ بكتابه الذي عنوانه بالشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوروبا^(٢).

وأما ما كتبه محمد عبد الغني حسن، سواء تحت عنوان «عربي في بلاد الصقالبة»، الشيخ محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠ - ١٨٦١ م»، أو نفس المقال الذي نشره بعنوان آخر دون إضافة أو حذف «أعلام النهضة الحديثة»، فلا يعدو التقاطات من مقالات تيمور وكراجكوفسكي، وعلى نفس المنحى يقال عن المقالة التي كتبها محمد عبد القادر بافقيه من اليمن، بعنوان «من قصص الاستشراق والتغريب، الطنطاوي الذي مات في بترسبرج»، فقد اقتبسها بقضها وقضيضها من كتاب كراجكوفسكي الموسوم بـ «مع المخطوطات العربية»^(٣) بجرأة اقتباسية عجيبة.

ومن جانبنا فمن خلال اطلأنا على ما ورد في الدوريات العربية والأجنبية عن سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ودراستنا لكتابه تحفة الأذكاء، فإننا نقدم

(١) انظر، الرسالة، العدد ٥٥٤، ١٩ صفر ١٣٦٣ هـ / ١٤ فبراير ١٩٤٤ م، المجلد ٤، ص ٥٦٢ - ٥٦٤.

(٢) مستل من مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع ١٩٦٤ م، مطبعة الحاني.

(٣) انظر، مجلة المنتدى، السنة السادسة، العدد ٦٧، جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ هـ، فبراير ١٩٨٩ م.

ترجمة لحياته نراها قريبة إلى الصواب ، وتلقي أضواء على سيرة هذا الرائد . تروي سيرته بأن اسمه :

هو محمد عياد بن سعد بن سليمان عياد الشافعي المرحومي الطنطاوي ، ولد في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا ، سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م ، وينسب إلى قرية مرحوم من أعمال مديرية غربية مصر والتي كان أبوه منها ، حيث عمل والده سعد ببيع القماش والصابون والبن . وفي بلدته مرحوم تلقى الطفل محمد عياد علومه الأولية ، حيث حفظ القرآن وأعاد ، ومن ثم قصد طنطا لاكمال دراسته^(١) ، وهي المدينة التي كانت حافلة بالعلماء والفقهاء والقراء ، فدرس هناك على الشيخ محمد الكومي ، شرح ابن قاسم في الفقه سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م ، وعلى الشيخ محمد أبي النجا ، الشرح السالف الذكر ، وشرح الخطيب سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م ، والشيخ مصطفى القناوي الشافعي الأحمد ، شيخ الجامع الأحمد بطنطا سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م فروى عنه حديث الأولية وكتب الستة^(٢) .

(١) الزهراء ، م ٧ / ٤٢٠ .

(٢) أجازته الشيخ مصطفى القناوي بالرواية ونص الإجازة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

أما بعد ؛

فقد أجزت العمدة الفاضل ، ولدنا العزيز الشيخ محمد عياد بن المرحوم الحاج سعد عياد المرحومي بحديث الأولية وهو قوله ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء» . كما أجازني به شيعي وأستاذي فخر السادة الأشراف ، ونخبة آل عبد مناف ، الحسينب النسيب السيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني اليمني . كما أجازته بذلك مشايخه .

وأجزته كذلك بما أجازني به شيعي وأستاذي الشيخ محمد عبادة الغنيمي بلدا البيومي طريقة ، كما يرويه عن مشايخه : أجلهم سيدي عمر التطاوني المغربي الشاذلي ، والمبادرة إلى طاعة الله تعالى فإنها السبب الأقوى ، ولا ينسانا من دعواته .

ويبدو أن محمد عياد قد ورد القاهرة بعد سنة «١٢٣٨هـ/١٨٢٢م واستمر دارساً ومدرساً حتى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، درس خلال ذلك على جملة من شيوخ الأزهر المتنورين أمثال الشيخ حسن العطار، ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م، شيخ الجامع الأزهر، منذ سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٦م، صاحب التصانيف في العلوم العقلية، ورائد منهج التدريس بالنزعة الأدبية^(١)، حيث قرأ عليه تفسير البيضاوي، والشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد البيجوري، شيخ الجامع الأزهر، ت ١٢٧٧هـ/١٨٦٩م، الذي غشي مجلسه ولازمه سنين قرأ عليه خلالها أصول الكتب ونظر في علوم النحو والفقه والبلاغة والأصول والمنطق والكلام، وقد كان تأثير البيجوري على تلميذه محمد عياد كبيراً، فسار يختار لحلقته موضوعاً أدبياً مثل مقامات الحريري والمعلقات^(٢)، وكذا الشيخ برهان الدين، أبو المعالي، إبراهيم السقا، ت ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، خطيب الأزهر المفوه وشيخه، وصاحب التصانيف العديدة^(٣).

لقد كان تأثير هؤلاء الشيوخ بالغاً في محمد عياد الطنطاوي، فاتجه نحو

= وأجزته أيضاً بما رويته عن الأستاذ الأعظم سيدي محمد الحفني الغلوتي الشاذلي بقراءة الكتب الستة المشهورة في علم الحديث: البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والموطأ للإمام مالك بن أنس، رضوان الله عليهم أجمعين، ونفعنا بهم وحشرنا في زميرتهم آمين، وأوصيته أن لا ينسانا من صالح دعواته، في خلواته وجلواته.

حصل ذلك عشرين المحرم الحرام سنة ١٢٤٤

الفقير مصطفى القناوي الشافعي الأحمدى

خادم أهل العلم بالمقام الأحمدى

انظر، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، ص ٤٢٠.

(١) انظر، تاريخ الأزهر، ١٣٨، الخفاجي: الأزهر في ألف عام، ١/٢٤٧-٢٤٨.

(٢) محمد عبد الغني حسن: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ٣٢.

(٣) خليل مردم: أعيان القرن الثالث عشر، ١٦٠، خطط مبارك ٢/٩، الأعلام، ١/٧٠.

الدراسات الأدبية، يشرح المقامات ويفسر غريبها، فاتهم بترويح البدع إذا انصرف إلى الشعر والأدب بدلاً من الانصراف إلى مباحث الفقه والحديث^(١)، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بطاعون سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م، الذي عاناه مدة عشرة أيام بلا نوم، وغاب عنه الأحساس والادراك حتى سلمه الله وانفتحت البثور، ثم تعافى بعد اسبوعين، وفي ذلك يقول حين اشيع خبر موته شعراً:

تمنى أناس أن أموت وإن مت فتلك طريق لست فيها بأوحد
وإن أظهروا موتي فليس بمنكر إذا أظهر الشيطان موت محمد^(٢)

وفهم من خلال مراسلات محمد عياد الطنطاوي أنه حظي بمجموعة طيبة من الصداقة والصلة، ربطت بينه وبين الشيخ محمد الأشموني الذي تتلمذ وإياه في الأزهر، وصداقة جمعته ومحمد قطة العدوي، المصحح الأول بمطبعة بولاق الأميرية^(٣) وإبراهيم الدسوقي وعبد السلام الحلبي الترماني وعبد الرحمن الصفتي، وعبد الهادي نجا الأبياري وسرور الدمنهوري، ورفاعة بك الطهطاوي ويوسف الصيداوي المتولي على بيته أثناء غيبته وغيرهم، كانت رسائله تحمل أخبار رحلته العلمية واتصاله بدوائر الاستشراق الروسية.

ظلت قصة اتصال محمد عياد الطنطاوي بدوائر الاستشراق الروسية، موضع بحث خلال ثلاثة عقود من الزمن، إذ اعتقد البعض بأن طنطاوي قد اشتغل مدرساً للعربية بمدرسة الارسالية البروتستانتية في القاهرة، سنة ١٨٣٥م، وأنه من خلال عمله هذا تعرف على برون الفرنسي Perron، استاذ الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية، ومن ثم عرف فراهن الألماني R.Fraehn، والذي كان والده مدرساً للشرقيات في كلية قازان الروسية وكذا جستاف فيل G. Weil، مدرس الشرقيات في

(١) الزركلي: الأعلام، ٥٤/١.

(٢) انظر، تحفة الأذكى، ١٦.

(٣) الزهراء، ٤٢٠/٧.

كلية هيدلبرج، وإنه من خلال اشتهار الطنطاوي في دوائر الاستشراق، بسبب علاقاته مع الوافدين على مصر من المستشرقين، وقع عليه الاختيار للتدريس في بتر بورغ، حيث كلف بكتي «المندوب القنصلي Agent Consul الشيخ الطنطاوي للسفر إلى بتر بورغ للتدريس هناك»^(٣).

ومع تقديرنا لجهود هؤلاء البحاثة الأوائل، فإن كتاب «تحفة الأذكياء» يوضح حقيقة اتصاله بالدوائر الاستشرافية الروسية إذ تعود البدايات الأولى إلى دراسة المسيو فرنيل كتباً عربية وأدبية وتاريخية على الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وكذا الروسي موخين والذي كان يعمل مترجماً للقنصلية الروسية في استانبول سنة ١٨٤٠م، والذي كان قد قرأ على الشيخ طنطاوي شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها^(٢)، ومن خلال ذلك نُسجت وشائج العلاقة مع فرنيل، حيث قام الأخير بتقديم محمد عياد طنطاوي إلى القنصل الجنرال الكونت ميدن، أحد أعيان دولة روسيا وكبرائها، والذي عمل فيما بعد سفيراً لروسيا في بلاد فارس، وبلاد أمريكا^(٣)، ويبدو أن مدرسة الألسن الشرقية في بتر بورغ كانت بحاجة لمعلم للغة العربية، فكلف وزير الغرباء نسل روض الكونت ميدن بالتفتيش على معلم للسان العربي، فوقع الاختيار على الشيخ محمد عياد الطنطاوي حيث طلب الكونت ميدن من والي مصر، محمد علي باشا، إعارة كلية الألسن الشرقية، الشيخ محمد عياد الطنطاوي لتدريس العربية، ولاقى هذا الطلب القبول من محمد علي باشا، فاستدعي إلى ديوانه الطنطاوي ورخص له بالسفر، وطلب إليه الجد بتعلم اللسان الروسي، لأنه - أي محمد علي - مشغول بجلب الألسن الغربية إلى مصر، ليعرف مدى التقدم العلمي والاجتماعي الذي وصلت إليه بلاد الروس، بل وكتب له مرسوماً، مهره بخاتمه، ووعده بالاكرام والحظوة إن فعل^(٤).

(١) أعلام النهضة، ٢٧٦ - ٢٧٧، شيخو: الآداب العربية في القرن ١٩، ٨٥/١.

(٢) تحفة الأذكياء، ٩، ٢٣.

(٣) تحفة الأذكياء، ٨.

(٤) تحفة الأذكياء، ٨.

فكانت وفادة الشيخ الطنطاوي في أهدافها في الصف الثاني بعد بعثة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا ولندن، والتي ضمنها كتابه «تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز». فإذا كان رفاعة الطهطاوي رائد عصر التنوير من خلال بعثته في أوروبا الغربية، فإن محمد عياد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته في أوروبا الشرقية.

وصل محمد عياد الطنطاوي إلى مركز روسيا في ٢٦ أيار ١٨٤٠م^(١)، وانضم إلى المدرسة الشرقية، حيث ألقى أول محاضرة بعد سبعة وثلاثين يوماً من حضوره، وفي صيف عام ١٨٤٤ سافر بإجازة إلى مصر، ومن ثم عاد خريف ذلك العام إلى بتربورغ، ويبدو أنه في رحلته هذه حمل معه زوجته «علوية»، وابنه أحمد، ثم التمسته الجامعة أن يدرس فيها، فعمل مدرساً فيها من بداية ١٨٤٧م حتى ٨ تشرين الأول أكتوبر ١٨٤٧م. وانتقل للتدريس في الكلية الشرقية خلال السنوات ١٨٥٠-١٨٥٤م حيث درس القواعد والأدب والخط والتاريخ والعروض ووضع العديد من المؤلفات التعليمية لتلاميذه.

كان الشيخ محمد عياد الطنطاوي يقضي إجازته متنقلاً بين البلدان الروسية، يطوف المتنزهات والغابات ويحضر الاحتفالات الرسمية والشعبية، وقد حظي بعناية متميزة في الدولة الروسية، حيث عين مستشاراً في الدولة الروسية، وقلده القيصر نشان (وسام) ستانيسلان ووسام حنه، بسبب امتياز التلاميذ في البحث، وفي ذلك يقول طنطاوي:

إنني رأيت عجيباً
في بتربورغ وإنه

(١) التواريخ هنا تحسب على أساس التاريخ المعمول به في روسيا وينقص ١٢ يوماً عن الميلادي، وفق ما ذكره محمد عياد في مقدمة كتاب تحفة الأذكياء.

شيخ من المسلمين

يضم في الصدور حنه

كما قلده القيصر خاتماً مرصعاً بالألماس الغالي ، في البحث الثالث . وفي روسيا تتلمذ عليه عدد من المستشرقين منهم ، G.A. Wallin الفنلندي الذي ساح في الجزيرة العربية ومصر وسوريا لسنين تحت اسم عبد الولي ، وله مع الطنطاوي مراسلات ، جمعها وطبعها مترجمة إلى الأسوجية ، وهي محفوظة في جامعة هلسنكي Helsinki والتي أصبحت فيما بعد تعرف بـ Helsingfors عاصمة فنلندا ، والمستشرق انطوني موخلينسكي . الذي قرأ على طنطاوي العديد من الكتب العربية واللطائف الأدبية ، ومنها ديوان عبد الرحمن الصفتي ، وكذا المستشرق نافروتسكي وكروكاس .

ويتضح من الوثائق الرسمية التي اطلع عليها كراجكوفسكي ، أنه في سبتمبر من سنة ١٨٥٥م ، عانى الشيخ الطنطاوي من شلل أصاب أطرافه السفلية ، ولما كان كراجكوفسكي بصدد انجاز كتابه عن الشيخ طنطاوي ، حمل إليه أحد العاملين في مكتبة الكلية الشرقية كومة من الأوراق ، اتضح بعد فحصها أنها تخص الشيخ الطنطاوي ، كانت كلها مملوءة بخطوط كتلك التي يحب أن يرسمها الأطفال ، بمساحات بيضاء خالية وبخطوط مكسرة غير واضحة ، وحين أعاد كراجكوفسكي ترتيبها بدت أمامه الحقيقة المرعبة ، إنها تتضمن مجموعة من الأمثال باللهجة العامية المصرية ونماذج من التحايا والأغاني العامية ومواد مختلفة من البلاغة والنحو والألفاظ العربية مما يتصل بالشيخ الطنطاوي ، وبدأ واضحاً أنها كتبت بعد أن أخذ الشلل يسري إلى يديه ، وبدأ صراع الشيخ مع المرض يتمثل في عدم قدرته على السيطرة على القلم ، فلم تطاوعه لا الريشة ولا القلم ، فبدت الثقوب في الأوراق ، وكأنما الشيخ يجاهد ليكتب حتى إذا ما هاجمته الرعدة اللاإرادية ، انقبضت اليد فيجري القلم دون سيطرة ، ومع اشتداد المرض زادت معاناة الشيخ في الكتابة فالحروف تلتحم ، وتتمدد وتتطاول حتى قربت من كتابة أعمى غمس

عصاه بدهان ليكتب به، كانت يده هامة ولكنه كان يحاول وبإصرار أن ينهض بعلمه ويدون فكره، بعزيمة لا تعرف التقهقر أو الاستسلام^(١)، حتى إذا كان يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ١٢٧٨ هـ، انتقل الطنطاوي إلى رحمة ربه / ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٦١ م، ودفن في مقبرة فولكوفو^(٢) الإسلامية، وكتب على شاهد القبر. «هذا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوي كان مدرس العربية في المدرسة الكبيرة الامبراطورية ببترسبورغ المحروسة وتوفي في شهر جمادي الثاني سنة ١٢٧٨^(٣) من الهجرة عن خمسين سنة».

مؤلفاته:

لا يزال العديد من مؤلفات الشيخ الطنطاوي محفوظاً، تحتفظ مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة ليننغراد بالعديد منها، وفي خزانة معهد الأمم الآسيوية، ومعظمها يتصل بالدراسات اللغوية والدينية التي كان يستعين بها على تدريس مادة اللغة العربية وآدابها في كلية الألسن ببتربورغ، ومنها.

- أحسن النخب في معرفة لسان العرب^(٤).

وهو ألفاظ وجمل وأمثال وحكايات وملحقات ورقاع وصكوك ومواويل وشعر ورسائل تُبذلت بينه وبين أصدقائه في مصر، والرسائل موجهة إلى:

- محمد خليل صاحب زاده الفاروقي، نقيب الأشراف بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٢١٢ هـ.

(١) كراجكوفسكي: مع المخطوطات العربية، ٢٤٢-٢٤١.

(٢) محفوظ: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ٨٣.

(٣) حسب الوثائق الرسمية المحفوظة في خزانة الكلية الشرقية كانت الوفاة في ٢٩ أكتوبر ١٨٦١ م، ويوافق ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٨ هـ.

(٤) اعتمدنا فيها على ماورد في كتاب، محفوظ: سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٠-٢٤).

- محمد قطة العدوي تاريخ ٤ محرم ١٢٥٩هـ.
- إبراهيم الدسوقي ، غرة شهر رمضان ١٢٥٧هـ.
- يوسف الصيداوي ، المشرف على بيته أثناء غيابه ١٢ جمادى الأولى ١٢٣٧هـ.
- عبد السلام الحلبي الترماني ذي القعدة سنة ١٢٥٧هـ. والكتاب طبع في ١٨٤٧، ١٢٦٤.

- اصلاح تحريف كتاب الإيضاح في شرح سقط الزند ، لابن الخطيب التبريزي ، كتبه إبان احتجازه في كرنتينة استانبول ، يوم السبت ٢٢ صفر سنة ١٢٥٦هـ. منه نسخة في خزانة الكلية الشرقية ، بجامعة لينغراد ، رقم ٨٣٧.

- الأمثال ، مخطوط.

- الانتخابات .

وهو كتاب انتخبه من مجموعة كتب أدبية تراثية ، مثل العقد الفريد والأغاني والخطط للمقريزي ، وتعليق من شرح لامية العجم للصفدي ، وتكملات في الأعياد والمواسم والموالد ، ونقول من جريدة الوقائع المصرية ، وعبارات مستعملة في الحياة وجواباتها.

- بغية المريد على رسالة التوحيد (حاشية على رسالة الباجوري).

- مسودات لتاريخ العرب ، بخطه في جامعة بتروغراد رقم ٨٣٨.

- ترتيب تلاقي الأرب في مراقبي الأدب على حروف المعجم ، وهو ديوان صديقه عبد الرحمن الصفدي ، خزانة الكلية الشرقية ، رقم ٨٩٢.

- ترجمة الباب الأول من كلستان لسعدى الشيرازي ، بخطه في جامعة بتروغراد رقم ٨٣٨.

- ترجمة الطنطاوي بخطه .

وهي ورقة أودعها كتاب «التعليق على الكافي في العروض» بين ورقة ٦٦ ب -
١٦٧.

- ترجمة مختصر تاريخ روسيا، تأليف استريالوف، ورد ذكره في تحفة الأذكىاء،
ص ٥٩.

- تصحيح أغلاط نسخة يتيمة الدهر للثعالبي، نسخة خزائية برسم المولى محمد
خليل بن علي الحسيني الحنفي المعروف بالمرادي، المفتي بدمشق، سنة
١١٩٥ هـ، بخط ياسين بن أحمد بن الشمعة، خزانة معهد الأمم الآسيوية،
لينفرد، رقم D 162^(١).

- تعاليق حاشية المقولات للشيخ حسن العطار.
- تعاليق على حاشية الأمير على شرح الملوى على السمرقندية في البيان.
- تعاليق على حاشية البيجوري على السمرقندية.
- تعاليق على الكافي في علمي العروض والقوافي.
- تقييدات على (شرح الأزهري في النحو للشيخ خالد الأزهري)، مع التعرض
لحاشية الشيخ حسن العطار. (نسخة خزانة الكلية الشرقية ٨٢٧).

- تواريخ الخلفاء والسلطين والملوك وسلطين الديار المصرية من زمان النبي،
ﷺ، إلى عصر عبد المجيد خان، سنة ١٢٥٠، خزانة الكلية الشرقية رقم ٨٣٣.

- حاشية أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري^(٢).
- حاشية التحفة السنية والعقائد السنية (شرح منظومة السيد محمد بليمة لبرهان
الدين، أبي المعالي، إبراهيم السقا).

(١) كان الفراغ منه في ١٩ رمضان ١٢٦٢ هـ. انظر، محفوظ: سيرة الشيخ محمد الطنطاوي،
١٧.

(٢) قابله وحشاه في ضحوة الأربعاء، ٢٥ ربيع ١٢٥١ هـ، انظر، محفوظ: سيرة الشيخ ١٧.

- حاشية الزنجاني في الصرف .
- حاشية شرح الأزهري في النحو .
- حاشية الكافي في علمي العروض والقوافي .
- حال الأعياد والمواسم في مصر .
- الحكايات العامية المصرية ، وتضم ٣١ حكاية ، بخطه في خزانة الكلية الشرقية ، رقم ٧٤٥ .
- ختم على شرح القطر لابن هشام .
- ختم على متن الجوهرة في العقائد للقائني .
- رسائل ومنها رسائل الطنطاوي إلى تلميذه المستشرق الفنلندي G.A. Wallin .
- شرح منظومة الشيخ السلموني في العقائد .
- شرح نظم السمرقندية .
- غنية المريد في علم التوحيد .
- قاموس عربي فرنسي ، طبع في قازان سنة ١٨٤٩ .
- قواعد اللغة العربية باللغة الروسية .
- لذيذ الطرب في نظم بحور العرب . جعل آخر نظمه لكل بحر من بحور العروض آية من القرآن .
- ما يقال في الحياة اليومية من التعابير وأجوبتها .
- مجموعة شعره ، في خزانة الكلية الشرقية رقم ١٢٣٥ .
- مشتهى الألباب على منتهى الأراب ، يقع في ٨٦ ورقة ، خزانة الكلية الشرقية رقم ٨٢٠^(١) .
- معجم تترى عربي .
- منتهى الأراب في الجبر والميراث والحساب ، منظومة في بحر الرجز ، منه نسخة

(١) أكمل تسويده يوم عاشوراء سنة ١٢٤٥ هـ ، وفرغ من تبليغه ٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ .

في جامعة بتروغراد، رقم ٨٢٠، كتبت سنة ١٢٤٥هـ.

- الموالاة.

- نظم تصريف الزنجاني.

- نظم السمرقندية في البيان.

- نقد ترجمة بعض التعابير العربية في كتاب المستشرق سلفتر دي ساسي.

- نقد طبعة رحلة ابن جبير.

- نقد كتاب «الأمم الإسلامية» تأليف كارسين دي ساسي.

- هامش كتاب «الحجة في سرقات ابن حجة لشمس الدين، محمد بن حسن النواجي».

ويلاحظ بأن معظم مؤلفاته كانت كتباً تعليمية قد وضعت للطلبة لدراساتها أو الاستفادة منها.

أما أهم كتبه، فكان الكتاب الذي نشره، وقد جاء على صفحة عنوانه:

«هذا كتاب

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا

للعبد الفقير الشيخ محمد عياد

المصري الطنطاوي

غفر الله ذنوبه

وستر عيوبه

والمخطوط محفوظ في مكتبة جامعة استانبول تحت ٧٦٦ عربية (عربي).

وكتب المخطوط بخط نسخ عادي وبالممداد الأسود

أوله: حمداً لمن سير سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقِيضَ، له أعواناً
يعضدونه، وأنصاراً يحمونه وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل

بلده ووده الغرباء . . . الخ .

آخره : والله أسأل وبنبيه أتوسل ، أن يكون هذا التعليق مقبولا عند السدة العلية والعتبة الخاقانية ، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف ، وأن يحدوا عن سبيل الاعتساف ، فما قصدي إلا التبصير وما مرامي إلا التذكير ، إن أرد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفiqي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

اسم النسخ : مصنفه الفقير محمد عياد الطنطاوي المصري .

عدد الأوراق : ١٩٤ ق .

عدد الأسطر : ٢٣ س .

تاريخ النسخ : أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ / أوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠م .

مكان التصنيف : بتربورغ .

روى كراجكوفسكي في كتابه مع المخطوطات العربية خبر عثوره سنة ١٩٢٤م على نسخة من مخطوط «تحفة الأذكياء» ذلك أن أحد مستشاري الألمان أشار في فهرسه التي صنعها لمكتبات استانبول «وجود نسخة من تحفة الأذكياء في خزانة مسجد رضا باشا والعنوان يقول «تحفة أولي الألباب في أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوي» كتبه بخطه سنة ١٨٥٠م / ١٢٦٦هـ وأهداه إلى السلطان عبد المجيد» ، وقد تسلم كراجكوفسكي نسخة منه سنة ١٩٢٧م ، ذهب بعد فحصها إلى أن المخطوط ليس بخط الشيخ الطنطاوي وإنما بخط أحدهم ، ولما كنا نميل إلى هذا الرأي ، فإن الإجازة رقم ٣١٧ مصطلح الحديث المحفوظة في دار الكتب المصرية تدعنا فيما ذهبنا إليه ، فالإجازة بخط الشيخ الطنطاوي» .

ثم حمل إليه أحد تلاميذه كومة أوراق اشتراها من بائع كتب قديمة ، عليها عبارة «أ. ن.» ، عرف كراجكوفسكي لدى تصفحها بأنها مسودة كتاب تحفة الأذكياء كتبها طنطاوي بخطه وعليها تصحيحات وتعديلات ، وأما الأحرف أ. ن. ، فترمز «لا يريني نوفل الطرابلسي» الذي خلف طنطاوي في التدريس بالقسم التعليمي للغات

الشرقية التابع لوزارة الخارجية، أما كيف وصل الكتاب إلى بائع الكتب القديمة؟ فتلك مسألة معروفة فإن ورثة إيريني نوفل بعثوا مكتبته بين أيدي البائعين حتى وصلت المسودة إلى المشتري الذي التقطها وهو تلميذ كراجكوفسكي النبيه^(١)..

ويبدو أن أخبار اكتشافات كراجكوفسكي لم تنتشر في الوطن العربي أو كانت محدودة الانتشار، مما حدا بالاستاذ محمد عبد الغني حسن أن يتساءل في إعلام النهضة الحديثة^(٢) إن كان الشيخ الطنطاوي قد ترك لنا كتاباً في بترسبورغ وآثارها، وانتهى محمد عبد الغني حسن إلى أن ما هو معروف أن الشيخ الطنطاوي قد ترك لنا رسالة إلى زميله وصديقه رفاعه الطهطاوي.

وفي تلك الرسالة يكتب طنطاوي إلى زميلة الطهطاوي فيقول:

«أنا مشغوف بكيفية معيشة الأوروبيين وانبساطهم وحسن ادارتهم وترتيبهم خصوصاً ريفهم، وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار إلى ذلك مما شاهدتهم قبلي بمدة في باريز إذ بتر بورغ لا تنقص عن باريز في ذلك، بل تفضلها في أشياء كاتساع الطرق، وأما من قبل البرد فلم يضرني جداً، إنما ألزمني ربط منديل في العنق ولبس فروة إذا خرجت وأما في البيت المدافئ المتينة معده لإدفاء الأوض، وطالما أنشدت عند جلوسي قرب النار؛

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه في الشتاء فليصطل^(٣)

وفي رسالة بعثها، ن. ح. بولوتسكي، مدرس اللغة القبطية في معهد العلوم الشرقية بالجامعة العبرية بالقدس، ونشرت في مجلة الكتاب، عدد يوليو ١٩٤٦، ص ٥١٠، لفت نظر محمد عبد الغني حسن إلى أن الشيخ الطنطاوي قد ترك

(١) كراجكوفسكي: مع المخطوطات العربية، ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٢) محمد عبد الغني حسن: أعلام النهضة الحديثة، ص ٢٨٠.

(٣) أحمد تيمور: محمد عياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، ٣٩٠/٤.

أثراً هو «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا» تحفظ نسخة منه في دار الكتب لجامعة استانبول، ونسخة أخرى منه تصان في مكتبة الخزانة الشرقية في ليننغراد، ونوه بجهود كراجكوفسكي بهذا الصدد، والذي تحدث عن اكتشافه لهذا الأثر.

ويخيل إلينا أن النسخة كانت محفوظة فعلاً في خزانة جامع مسجد رضا باستانبول، وبعد ثورة مصطفى كمال أتاتورك، نقلت محفوظات المساجد، ومنها محفوظات خزانة مسجد رضا، ووزع ما سلم منها على المكتبات العامة في جميع أنحاء الجمهورية التركية، ويبدو أنه من حسن الطالع استقرار النسخة أخيراً في مكتبة جامعة استانبول تحت الرقم الذي أشرت إليه سابقاً.

ولما كان لا علم للباحث بأن رحلة «تحفة الأذكياء» قد نشرت بالعربية أو أن أحداً قد اطلع عليها خلا كراجكوفسكي الذي استعان بها لوضع كتاب في سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ثم إن الكتب الروسية الأربعة التي اتصلت بالمخطوطات العربية المحفوظة في جميع أنحاء الاتحاد السوفياتي قد خلت من ذكر كتاب «تحفة الأذكياء».

فإن الباحث يميل إلى أن النسخة الروسية إما لا تزال محفوظة في خزانة الشيخ محمد عياد الطنطاوي الكائنة في مكتبة معهد الشعوب الآسيوية - الأفريقية بلينغراد والتي تلفت بعض محتوياتها في حادث وقع سنة ١٩٨٩م، أو أنها اختفت أصلاً بعد وفاة مالكيها العلامة كراجكوفسكي، ولعل الأيام تتيح للباحث فرصة النظر في خزانة كتب الشيخ الطنطاوي، وقد حاول الباحث وما زال من أجل الحصول عليها، كما فعل الاستاذ حسين على محفوظ، والذي عمل مدرساً للعربية في نفس المعهد الذي درس فيه الشيخ الطنطاوي من سنة ربيع ١٩٦١ حتى أوائل صيف ١٩٦٣م، والذي حين أشار إلى تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، أحال القارئ إلى مجموعة كراجكوفسكي المجلد ٥ ص ٢٨٩-٢٩٠، وأضاف، تراجع تعريف كراجكوفسكي بالكتاب وصفته في مجموعته «المجلد ١ ص ١٦٦-١٧٤، بل إن

حسين محفوظ حين جمع بعضاً من قصائد الطنطاوي والتي وردت أصلاً في كتاب تحفة الأذكياء، التقطها من أوراق أخرى غير التحفة، مثل: تتبعات في التاريخ والجغرافيا واللغة والأدب، أو الإيضاح، أو الانتخابات، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن الاستاذ حسين علي محفوظ لم يطلع على كتاب تحفة الأذكياء. ومن هنا تأتي أهمية كتاب تحفة الأذكياء، والذي ينشر لأول مرة بنصه العربي.

ملاحظات على كتاب تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا:

تحتفظ مكتبة جامعة استانبول بنسخة وحيدة من كتاب «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا» مسجلة تحت رقم ٧٦٦ عربية، نقلت إليها من مكتبة مسجد رضا وجاءت النسخة في ١٩٤ صفحة، مسطرتها ٢٣ سطراً، وعلى صفحة العنوان سجل:

هذا كتاب

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا

للعبد الفقير الشيخ محمد عياد

المصري الطنطاوي

غفر الله ذنوبه

وستر عيوبه

وجاء بآخره دعوة أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء بعين الانصاف وأن يحدوا عن سبيل الاعتساف، ثم إثبات تاريخ الإنتهاء منه، حيث ذكر:

«وقد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦ من الهجرة النبوية على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠، من الميلاد، والله ولي السداد على يد مصنفه الفقير محمد عياد الطنطاوي المصري بتربورغ».

وقع كتاب تحفة الأذكياء في رواية لرحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوي التي بدأت في ٢٤ محرم ١٢٥٦هـ/ ٢٦ مارس ١٨٤٠م من القاهرة حتى وصوله إلى بتربورغ في ٣٠ حزيران ١٨٤٠م، ١١ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ، وغطت ٥٢ صفحة من الكتاب، ثم عقد ثلاثة أبواب اتصل الأولى منها، بمنشأ الروس وولاية نوفغورد Novgord، والباب الثاني تعلق بتاريخ بتربورغ الطبوغرافي والاثنوغرافي والطبيعي والبشري، فكان دراسة تاريخية، جغرافية جيولوجية، وقد جعل في الباب الثاني ثلاثة فصول ركزت في معظم مادتها على حياة بطرس الأكبر وإنجازاته وإصلاحاته، ودوره في نهوض روسيا وتقدمها في المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، ثم عرضاً للأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية في بتربورغ خاصة وروسيا عامة في عهد خلفاء بطرس الأكبر.

وأما الباب الثالث فقد أرخ فيه لعادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم وعادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة والأعياد والتنظيمات الاجتماعية ودور المرأة في ذلك المجتمع وتقدم الروس في العلوم والفنون والسكن وأنماط المعيشة ثم ختم الباب بفصل عاشر تناول فيه اللغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها وإليها.

وقد حرص الشيخ محمد عياد الطنطاوي في بداية كتابه على توضيح البواعث التي دعت له لتصنيف كتابه، فقد سأل جماعته من الأصدقاء والمعارف أن يسطروا في سفره هذا كتاباً، يودع فيه ما يقف عليه من حال البلاد التي يزورها من عجائب وغرائب، مع ما صادف ذلك عنده من ميل أدبي، فسجل في كتابه، بدائع البلاد التي رحل إليها وغرائب عادات أهلها، مع شذرات علمية ونكات أدبية وطرف استحسانية اختراعية ليضفي على الكتاب لمسة ظرف طرداً للملل وجذباً للقارئ فقد أورد العديد من النكات اللغوية واللطائف والمواقف الغرامية.

وكان خط سير الرحلة من القاهرة إلى جنينة شبرى ومروراً بزاوية رزين

فالاسكندرية حيث انتقل إلى باخرة نمساوية وصف درجاتها ونظام الإقامة فيها والخدمات التي يقدمها العاملون فيها ثم إلى جزيرة جريد (كريت) العثمانية حيث تحدث عن مبانيها ووصف بناياتها وعدد سكانها ومنها إلى مرسى كنى وجزيرة سير ثم إلى أزمير وقد اطنب في الحديث عنها، فبحر مرمرة حتى استانبول التي أقام بها أياماً، ووصف ما شاهده فيها بعين فاحصة ناقدة، من قباب ومؤسسات ومساجد وخاصة أيا صوفياً وغلطة ومصانع الورق والمتنزهات فيها ثم إقامته قبل ذلك في الاسكدار ورحيله إلى أوديسا والإجراءات الصحية بسبب الطواعين التي كانت متفشية في بلدان العرب وخاصة مصر، ومن ثم ركب عربة تجرها الخيول بعد تزويده بتذكرة مرور ومرافقه مترجم روسي خاص، وقد وصف الطريق إلى بتربورغ فمر بنهر بوخ وكييف والغربول وموهلوف وبودن وسكندرية الأخرى وفينيسك وتسارسكيا سلو حتى وصل إلى بتربورغ، وخلال عرضه لما شاهده كان يحرص على وصف أدق الأشياء ويقارنها بحال مصر، فالخبز نظيف والماء عذب والمتنزهات تغطيها الأشجار والورود والرياحين تشرح الصدور وتنسي الهموم، الناس فرحون، نوبات الموسيقى تعزف والراقصون يبهرون الأنظار والأطفال يمرحون ويلعبون في الحدائق وقد أعدت لهم وسائل الكتب والتسلية والمدارس كثيرة ومنتشرة في البلاد الروسية وخاصة مدارس البنات، والمعامل كثيرة لصناعة الطوب والقطران، والمرستانات والتياترات، حتى إذا ما استقر به الحال في البلاد الروسية لمدة عشر سنوات، وباشر عمله في التدريس، ومن خلال دراساته لتاريخ تلك البلاد وما شاهده عياناً وما خبره تجربة سجل من خلاله أحوال البلاد الروسية. وجاءت في ثلاثة أبواب، احتوى الباب الأول على تاريخ روسيا القديم، وتاريخ الصقلية السكان الأول لتلك البلاد، حيث وصف معتقداتهم الوثنية وطرائق عيشهم وانتجاعهم من مكان إلى آخر وعشقهم للحروب وبراعتهم في صنع السلاح، القسي والحراب والسهام والسيوف، وأورد الرواية الرومانية التي تفيد بأن أصل السكان سكيفي وصرماطي ومن ثم قام على بقاياهم الصقلب، ومن ثم اتصلت

تلك الشعوب باليونان عن طريق التجارة، كما أرخ لأصل ولاية نوفغورد Novgorod وظروف بناء المدينة وعادات وتقاليد أهلها في السياسة والاجتماع، ومن ثم انضوائها ضمن الروسيا وسجل أصل ولاية كييف Kiev، ورواية بنائها من قبل أخوة ثلاثة، أطلق إسم الأكبر منهم على المدينة ثم انتقلها من الخضوع للخزر إلى الروسيا^(١)، ومن ثم كيفية اختيار فلاديمير سنة ٩٨٨م أحد ملوك الروسيا للنصرانية وإعراضه عن الإسلام الذي سبق وأن عرض عليه، وذلك بسبب تحريم الإسلام للخمر، والروسي حسب رأي فلاديمير لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصر، ولكن الشيخ محمد عياد يورد رأياً آخر يتصل بقرب بلاد الروس من بلاد الروم، وفي ذلك تقوية للروس إذا ما اتخذوا ديانة النصرانية، وسهولة وتمتيناً للروابط التجارية والعلمية^(٢).

أما الباب الثاني، فقد خصصه لدراسة أوضاع مدينة بتربورغ من الناحية الجغرافية والطبوغرافية والسكانية، ووصف طبيعة مناخها وتجلد مياهها حتى أن العربات تسير على أنهار متجلدة، وينحت فيها بيوت من الجليد، ومن ثم تقدمها في العلوم والفنون وطرز البناء واتخاذها عاصمة لبلاد الروسيا^(٣)، وقد قسم الباب إلى ثلاثة فصول، كان الفصل الأول منها لأصل الكلمة المكونة من مقطعين، بتر يعني بطرس بانيها وبورغ يعني بلد أو محل، فهي مدينة بطرس بانيها ومتخذها عاصمة بلاده، وقد فصل في موقعها وخطوط طولها وعرضها وارتفاعها، واتصالها بالأنهار، ووصف بناياتها وأشجارها ومياهها وحدائقها وبساتينها وقصورها ورياحها وتجلد نهر النيفا والفيضانات التي وقعت في المدينة وما سببته من كوارث وأضرار،

(١) Levitsky, Hi Kiev, a short guide, Mistetstvo Publishers,

Kiev Progress Publishers, Moscow, 1980. PP. 25-34.

(٢) تحفة الأذكياء.

(٣) تحفة الأذكياء، ٥٩.

وتحدث بإفاضة عن طول الليل والنهار فيها ودوام هطول الأمطار، ولكن كل ذلك لم يحل دون مداومة الناس على اشغالهم واجتهادهم في إنجاز أعمالهم^(١).

وقد تحدث بإفاضة عن بيت الجليد الذي بني على نهر النيفا أمام القصر في كانون الثاني ١٧٤٠م حيث استخدمت صخور مكعبة من الجليد، وعلى السقف بني ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، وأمامه أعمدة عليها تماثيل وأبوابه وشبابيكه مرخمة وملحق به حديقة أشجار عليها طيور وثمار وغيرها كثير، كل هذه من الجليد المنشور المنحوت المصقول^(٢)، أما الفصل الثاني فكان في أسباب اتخاذ بتربورغ عاصمة روسيا بل وقاعدة أوروبا، وحروبها مع السويد ومجريات ووقائع تلك الحروب والخطط الروسية والتي أدت إلى النصر بفضل فطنة وكياسة وقيادة القيصر^(٣)، وبعد استقرار الأحوال عمل القيصر جهده في تحسين وتوسيع وتنظيم المدينة وتنمية العلاقات التجارية الخارجية، ثم التفات بطرس لتمدين الروس بتقديمهم في العلوم، وأصدر عدة فرمانات اتصلت بالعمارة في بتربورغ والإقامة فيها وتنظيم الجمارك ورعاية بعثات التعليم إلى أوروبا للاطلاع على تمدنها وتقدمها، وتأسيسه معاهد التعليم العليا وأكاديمية الملاحة، وأكاديمية العلوم ومدارس التجارة والحرب وأكاديمية التصوير والمكتبات وإقامة المسارح، والتياتر، والمتاحف، وخاصة للتاريخ الطبيعي، وأقام المكتبات لمطالعة الجمهور، كما اهتم القيصر بطرس باحداث ضابطه سياسية للمدينة، مثل اللوائح التنظيمية، للأبنية والشواطىء والخلجان والسرقة والنظافة والأسواق ومراقبة البيوت المتهمة والألعاب المحرمة وإلقاء القبض على المشاغبين والبطالين، ووضع لوائح تنظيمية للجمعيات وخاصة المختلطة، حيث تراعى قوانين لاجتماع الرجال والنساء، وحدد شروط وواجبات

(١) المصدر السابق، ٦٩.

(٢) انظر، وصف البيت في ص ٧١ - ٧٣ من التحفة.

(٣) حول الحروب، انظر:

صاحب الدعوة والأصول التي يجب أن يراعيها عند التثام الجمعية (الاجتماع) في بيته ووقته والأدب التي يجب أن تراعى^(١)، ومجمله أن الفصل تناول أعمال ومنجزات وتنظيمات بطرس الأكبر ممدن روسيا، ورائد نهضتها.

أما الفصل الثالث، فقد جعله لخلفاء بطرس، فترة حكم كترينا وبطرس الثاني، والقيصرة حنا يوحا نوفنه، ثم القيصر نقولا الأول، وقد تناول ما أنجزه كل واحد منهم من عمارة ومنشآت ومباني وتنظيمات اجتماعية واقتصادية وثقافية وجهود علمية والآثار التي خلفوها وتحكي جهودهم في تقدم الدولة.

وكان الباب الثالث هو أمتع ما في كتاب تحفة الأذكياء، لأنه يزود القارئ والباحث بمعلومات اجتماعية عن عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون، ويعتقد الباحث بأن أهمية هذه الفصول تأتي من كونها هي المادة الرئيسية الثانية في التراث العربي التي تناولت بلاد الروس بعد رسالة ابن فضلان الشهيرة والتي وقعت سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١هـ. هذا إذا استثنينا الإشارات التي وردت في المراجع العربية والتي جمعها الكسندر سييل في كتابه «أخبار أمم المجوس».

من الأرمان وورنك والروس، والملتقطة من مروج الذهب للمسعودي وتاريخ الأندلس لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، ومن المقتبس والمسالك والممالك ونزهة المشتاق والاستبصار والمطرب في اشعار أهل المغرب لابن دحية والكامل في التاريخ، وكتاب بسط الأرض لابن سعيد المغربي وأثار البلاد، والبيان المغرب والمختصر في أخبار البشر ونهاية الإرب والعبر ونفح الطيب، والبلدان لليعقوبي والأعلاق النفسية لابن رسته ونظم الجواهر لسعيد بن البطريق وكتب البلدان وخاصة معجم ياقوت وغيرها من المؤلفات التي اكتفت بإيراد نصوص محدودة، بل لعلي لا أبالغ إن قلت «كان كتاب الشيخ الطنطاوي هو الأكثر

(١) تحفة الأذكياء، ١٢٥-١٢٧.

تفضيلاً في تناوله للجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الروسي من خلال مشاهداته وخبرته الطويلة فقد عاش هناك أكثر من عشرة أعوام، وسجل ملاحظاته بدقة متناهية. وقد تناولت دراساته الاجتماعية الأمور التالية:

- عوائد الروس:

ذهب طنطاوي إلى أن عادة الروس عامة الكرم والإنفاق وحسن المعاشرة، وهم يميلون إلى الفخر والكبر، وقد عزا ذلك إلى تقدم الروس في التمدن والعلوم زمن بطرس ولكنه أورد هنا مقالة للعلاء بن صاعد، صاحب طبقات الأمم، ليذكر بما كانوا عليه قبل عهد بطرس الكبير، فقال «مقتبساً من ابن صاعد» أخلاق الروس موصوفة بحسن الشكل وبياض اللون وقابلية الصنائع ولطافة الخدمة وإطاعة السيد، وقلة العبادة وقلة الصلاح وكثرة الأباقي»^(١)، وقرر الطنطاوي بأن الروس كانوا في القديم مشهورين بالجبن حتى استعبدتهم التتار، أما الآن فانعكست القضية، والناس في المجتمع الروسي ليسوا متساويين ولا من مرتبة واحدة، بل هم مراتب، ولكل مرتبة امتيازاتها وحقوقها ولا يجوز لأحد أن يتخطى مرتبته إلا في النادر، وهذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: الأعيان، المتوارثة، حيث أن الرتبة يرثها الابن عن والده، وهؤلاء يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإن تزوج أحدهم بإمرأة دون مقامه رفع رتبته وتسمت باسمه، غير أن هذه الرتبة تنقسم بدورها إلى درجتين:

- أعيان الأعيان: وهم من كانوا أعياناً قبل زمن بطرس الأكبر. وأسمائهم محفوظة في الكتاب الثالث.

- وأعيان: وهم من كانوا بعد زمان بطرس الأكبر. وأسمائهم في الكتاب السادس.

(١) تحفة الأذكى، ق ١٥١.

والتفاضل بينهم يكون إذ يسمح للفئة الأولى بتربية بناتهم في دير أسموليني بدون إذن القيصر، في حين أن الأعيان لا بد لهم من الاستثناء من القيصر نفسه حتى يمكن لبناتهم الالتحاق بتلك المدرسة.

كما إذا انضم أحد أعيان الأعيان إلى النظام (الهيئة السياسية) عين برتبة وكيل ضابط (تحت ضابط) وبعد سنتين يترقى إلى رتبة ضابط.

المرتبة الثانية: الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم، وهم الغرباء والمستخدمون الذين أنعم عليهم القيصر بالأوسمة، حتى إذا ما أنعم عليهم القيصر بالرتبة عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم امتيازاتهم في الأرض وشراء العبيد.

المرتبة الثالثة: التجار، وهم لا يعدون من الأعيان، ولو ملكوا الملايين، حتى إذا تزوج من الأعيان حط رتبها، ويمكن أن يرقى لرتبة الأعيان إن فعل وقدم خدمات جليلة للدولة، ولكنها نادرة، وهم لا يدخلون النظام إلا طوعاً ويكون وكيل ضابط وبعد ثلاث سنوات يترقى ولهم الخروج من النظام متى شاءوا وإذا أفلس التاجر أصبح من أولاد البلد، ولكن سمح للتاجر بعدم حلق ذقنه، إذ العادة بأن اطلاق شعر اللحية لا يكون إلا للأعيان وأعيان الأعيان والأمراء والأسرة القيصرية.

المرتبة الرابعة: أولاد البلد، وهم عامة الناس، وبإمكانهم الترقى إلى رتبة التجار، فإذا دخلوا النظام فلهم حكمهم.

المرتبة الخامسة: الفلاحون، ويبقون كما هم إلا إذا أخذوا في النظام فلهم حكمهم وإلا فلا يترقون إلى المرتبة الأولى.

المرتبة السادسة: العسكر، إلا إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الاكتاف بالقصب صار من الأعيان، وبعد خدمة خمسة عشر سنة ربما يترقى إلى وكيل ضابط (تحت ضابط)، إذا كان حسن السلوك ثم إلى مرتبة ضابط أو يمكنه التقاعد.

المرتبة السابعة : الأرقاء ، ولا يجوز شراؤهم إلا من قبل الأعيان مع الأرض وليس لهم سوق يباعون فيه كما عند العرب ، ويجوز اعتقاهم أو يشترون أنفسهم والرقيق حتى ولو اغتنى لا يصير عينا إلا إذا صار عسكرياً وترقى .

وقد وضع نظام دقيق لتربية وتعليم الأعيان ، فمن درس في المدرسة الامبراطورية الكبرى ووصل إلى درجة النجيب «كايدندان» يكون من الصنف العاشر، إن أحسن البحث والإجابة ، وإلا فيعطون درجة «التلميذ المجتهد» ، وإن قصر فلا يستحق شيئاً أما إن درسوا في المدارس الصغيرة ، فلا يستحقون رتبة إلا إذا أعطت لهم ، وتكون الرابعة عشر ثم يترقون إلى رتبة الجنرالات .

وأما ابن التاجر إذا درس في المدرسة الكبيرة ووصل مرتبة النجيب ثم أعمل الجد والإجتهاد في البحث والمناقشة ، أعطي رتبة مجيستر يعني «عالم» ويكون من الصنف التاسع ثم إذا اجتهد أيضاً ، وعمل بحثاً ونوقش فيه ومهر وصل إلى رتبة الدكتور وتعني «فاضل» ، ويكون من الصنف الثامن ثم إذا خدم وترقى وصل إلى مرتبة «السابع» ومن الممكن أن يترقى إلى رتبة الجنرال .

وأما في الملابس :

فقد وصف الطنطاوي ملابس الروس ، وقارن بين أزيائهم القديمة والجديدة ، ففي القديم كان لباسهم مقتصرأ على قميص افرنجي ، من الشيت أو البفت أو الجوخ ثم جبة طويلة محزقة ، وأما القسس فلهم جيب طويلة عريضة الأكمام مثل الفرشيات عند علماء مصر ، ولكن منذ عهد بطرس ، غدت ملابس الروس كما ملابس الأوروبيين ، ويتكون من قميص أبيض ، غطى جيبه بقطعة بفت عريضة ثم الصديريات المفتوحة ثم السروال الضيق والجبة الافرنجية .

ولكل فئة من فئات المجتمع ملابسها الخاصة ، فالضباط يلبسون بدلة بطوق قصب بحسب الرتبة ، ومنهم من تكون بدلته كلها مقصبة .

وللمناسبات عند الروس ملابس خاصة، فبدلة الرقص هي الوبلة، ولغطاء الرأس أشكاله من القبعات (البرانيط)، ومنها المسنمة الريشة أو بلا ريش، أو القبعة السوداء المدورة العالية بحواف عراض، مستطيلة أو مربعة، وتلبس النظام مثلها - وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة وشرابة من شعر الخيل.

وأما لباس النساء فتتكون من القمصان والألبسة والإزارات المربوطة على الوسط، إضافة إلى الفساتين المعمول لها الكرسيت^(١)، أو فساتين واسعة الجيوب، ويربطن على أعناقهن مناديل، وأما فساتين الرقص فتكون بلا أكمام ونصف صدورهن تكون مكشوفة، وفي الأيدي توضع الكفوف.

والفلاحات يلبسن السرفات وتضع على رأسها قبعة عريضة.

أما عادات الزواج عند الروس : فتكاد أن تكون كما هو معروف.

فالروس لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه. فيتم الاختيار المباشر بواسطة الخاطبة، وحيث الطلاق عسر، فلا بد من معرفة الطباع، فإن وقع العشق، كانت الخطبة وتقديم خاتم الذهب، ويتم الزواج ومراسيمه بحسب أصول الديانة النصرانية، والاحتفال كما هو معروف، لكن الانتقال لا يكون إلا بعربات الملك، ولكن في اليوم الثاني يقوم العروسان بزيارة الأقارب حيث تعقد حفلات الرقص، وإذا ما اختلف مذهب العروس والعريس فإنه يتم عقد القران مرتين، مرة عند قسيس الطائفة التي تنتمي إليها العروسة ومرة أخرى عند القسيس الذي ينتمي إليها العريس، وأما المهر وكل ما يتعلق بالأثاث والبيت فتعطيه الزوجة.

وقد تحدث الشيخ الطنطاوي عن كثير من حالات الغش والخداع بين

(١) خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيح الخصر.

العشاق، حتى إذا ما نال الشاب إربه اختفى من حياة الفتاة المخدوعة، وأشار إلى افتراق العديد من الأزواج عن زوجاتهم واختيار كل واحد معشوقه ليساكنه.

وأما عادات التتر في الزواج فكما عند المسلمين، وليمة فعقد نكاح بخطبة نكاح ووكيل وشهود ومهر يدفعه الزوج، ومن ثم تقديم الهدايا للضيوف وأخذ النقطة من الضيوف.

وتناول الطنطاوي عادات الروس في التعميد والاحتفالات التي تقام بالمناسبة، كما شرح الأعياد التي يحتفل بها الروس، والأيام التي تعطل فيها المدارس والمعاهد والجامعات وكان عددها ٢٨ مناسبة.

أما ما أسماه بالخط العمومي (الفصل التاسع) فقد اشتمل على وسائل التسلية العامة للناس، ومنها التياتر والنوبة والرقص والمسخرات ولعب الورق وجري الخيل حيث سجل تاريخ نشأة التياتر وكيف وصل إلى روسيا سواء من إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا أو النمسا، حتى غدا دار أوبرا تعرض فيه الفنون الروسية والأوروبية الأخرى، كما فصل في تكوين الفرق الموسيقية، (النوبة)، وتحدث عن آلاتها ولاعبها وقارنها بمثيلتها في مصر، وعلق الطنطاوي على الرقص، ووصفه بأنه مجرد حركات خالية من الفحش وهز الأرداف، وفيه يجتمع الرجال بالنساء، حيث يتكلف الرجل في مخاطبة المرأة مالا يتكلفه في مخاطبة الرجل، وذهب طنطاوي لو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلا قصر النظر عليهم وعدم التعلق بالغلمان لكفى، كيف وفيه فوائد أخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قال في ذلك شعراً؛

ولو أن النساء تبدو بمصر	ما سمعنا تغزلاً في غلام
كل هيفاء كالغزال بوجه	ساطع نوره بغير لثام
قلبت برقعاً بعقرب صدغ	أفمن لدغه الخدود دوامي
ولكل امرئ جليس أنيس	فاتقوا الله يا أولي الأحلام

أي عذر في عشق رب عذار في هوى الغانيات أي ملام

وأما أنواع الرقص التي كان يمارسها الروسي ، فالفلس ، والقادريل الفرنسي والمازورق وقد وصفها وصفاً دقيقاً ، ويبدو منه أن الشيخ كان راقصاً متفوقاً وفصل في وسائل وأساليب المسخرات ولعب الورق وأنواعه وكيفيته وجري الخيل وطرائقه وأنواعه حيث خلا من المراهنات والخسارة المادية وقام على المهارة في أداء حركات الفروسية .

وأفرد فصلاً لتقدم الروس :

تقدم الروس في العلوم والفنون وله أثر في إنشاء الأكاديميات مثل العلوم والتصوير والطب وغيرها وتأسيس المدارس الكبرى مثل المدرسة القيصرية الكبرى حيث يدرس فيها الطلبة أربع سنوات بعد المراحل الأولى ، ويتلقون فيها علوم الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والألسن حتى الألسن الشرقية ، كالعربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرميني والكرجي وغيرها .

ويعقد لهم في نهاية كل عام حلقة بحث لكل موضوع ، فإن أجاب رقي إلى السنة الثانية : وكان في روسيا ست مدارس كبرى و ٢٣٠ مكتباً للأطفال ، يتعلم فيها الصبيان والبنات ؛ النحو والمنطق والرياضيات والأدبيات والجغرافيا والتاريخ والألسن والرقص والتصوير والموسيقى والخياطة وشغل الطارة والإبرة والنسيج للبنات ، والأطفال يزداد اللاتيني والروماني القديم كما للصم والبكم مدارس ، وقد حضر الشيخ الطنطاوي حفلة رقص للصم والبكم ، حيث كان العازف على القانون أعمى والراقصون صم بكم ، وأدى العزف نوبة راقية ورقص الصم والبكم بحركات وتعبير أدهشه .

وحتى اللقطاء فلهم بيوت للتربية ذكوراً كانوا أم إناثاً ، وقد قرر بأنه حتى تاريخه

لم يكن هناك بيوت للقطاء في ديار الإسلام .

كما نبه إلى أنه لا حرج من أخذ الأديب أو العالم أجراً إضافياً عما يكتبه في الجرائد والمجلات ، وضرب مثلاً بما تقاضاه الأديب مسيوسكريب حيث بلغ دخله الإضافة ١٨٣٢م ، ٤٨,٠٠٠ فرنك .

وفصل طنطاوي في المجلات والجرائد التي كانت معروفة عند الروس مثل الجرائد اليومية وهي ، نخل الشمال ، السقط ، أخبار بتربورغ ، والشهرية مثل ، ابن الوطن ، والكتابة الوطنية والمعاصر ، وكازيطية (مجلة) الأدب ، وخزانة الكتب ، ثم الجرنالات الشهرية للأطفال والتي تحوي نبذاً من العلوم والحكم والحكايات المسلية .

كما قدم الطنطاوي في الفصل التاسع وصفاً لسكن الروس ومعيشتهم ومركوبهم مما لا يختلف كثيراً عما هو معروف في أوروبا بصفة عامة ، ووصف أنواع الطعام التي يتناولها الروسي عند الإفطار والغداء وعند المساء ، وعادات التدخين وحتى استخدام النرجيلة ، وكذا العربات بأنواعها التي تجرها الخيول أو عربات الزحلقة .

وختم كتابه بإعطاء لمحة سريعة عن اللغة الروسية وقواعدها النحوية وكيفية اشتقاقها من اللسان الصقلبي والتاتاري والفرنساوي والنمساوي ، وإلى هنا حبس عنان قلمه قائلاً :

يراعى كفي الخوض فالبحر زاخر ولا تتجارى قد جرى منك يا كفي

لقد كان رائد الشيخ الطنطاوي رحمه الله وضع مدنية وتقديم الروس أمام أولى الأمر سواء في مصر أو الدولة العثمانية ، فكأن كتابه جاء تقريراً مطولاً يهدف إلى التنوير والإصلاح ، يحاول من خلاله أن يحذو حذو الشيخ الطهطاوي فهل كان لتقريره الأثر المنشود .

أهمية رحلة الشيخ الطنطاوي :

لا أرى أن رحلة الشيخ الطنطاوي كانت ذات تأثير في الفكر العربي الحديث مقارنة برحلة الشيخ رفاعه الطهطاوي إلى فرنسا، فالرحلة إلى البلاد الروسية بقيت بعيدة عن تناول الباحثين والكتاب لسنوات طويلة، بل إنها ظلت مغمورة على رفوف المكتبات فيما عدا النفر القليل الذي ساعدته الظروف في الاطلاع عليها، ولعل مرد ذلك يعود لعدة أمور منها :

- إن رحلة الشيخ طهطاوي كانت لبلاد قد تقدمت في مضمار النظم الدستورية والتعليم والصحافة والحرية والتربية والثقافة في حين أن رحلة الشيخ الطنطاوي قد وقعت لبلاد آخذة في أسباب المدنية والثقافة وتسعى للنهوض بالمجتمع .

- لقد عاد الشيخ الطهطاوي إلى بلده مصر، ووضع ما شاهده وخبره وما صادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا تلك البقاع، من فكر سياسي واقتصادي واجتماعي وتربوي وعلمي، وساهم بذلك من خلال المؤسسات والمعاهد العلمية التي عمل في إدارتها والجرائد التي رأس تحريرها والمصنفات المترجمة التي نقلها إلى اللسان العربي، فكان تأثيرها النظري مقروناً بالتطبيق العلمي في حين أن الشيخ الطهطاوي عاد إلى بلده بعد أربع سنوات ليصحب زوجته إلى مكان عمله واستمر هناك حتى لقي ربه .

- لقد كان هدف رحلة الشيخ الطهطاوي محدداً وواضحاً منذ البداية وهو إمامة طلبة البعثات إلى فرنسا، ومن ثم الدراسة والانخراط في الحياة العامة، ولكن بعين ناقدة ناقلة، في حين أن رحلة الشيخ الطنطاوي كانت للعمل في التدريس في بطرسبرغ . وبعدما وافق على العرض، استأذن محمد علي في السفر، فحضره محمد علي على تعلّم لسان الروسية، ووعدته بالإكرام إذا تعلمه، وكتب له مرسوماً بختمه كدليل على التزام محمد علي بما وعد، ولا نعرف من سيرة الشيخ إن كان قد قابل محمد علي مرة أخرى أو كتب له بما شاهده وخبره وصادفه في البلاد

الروسية، بل اننا نجد في ديباجة مقدمة الرحلة ما يفيد أنها أهديت للسلطان عبد المجيد، وافتتحها بقصيدة في مدح السلطان عبد المجيد، والباحث يطرح سؤالاً مهماً إزاء ذلك، فالعلاقات بين الدولة العلية ومحمد علي باشا كانت متوترة، بل وعدائية في بعض الأحيان، ورأينا أن الشيخ الطنطاوي قد أقدم على إهداء الكتاب للسلطان عبد المجيد بعد وفاة محمد علي باشا وسوء الأحوال في مصر، فرأى في الدولة العلية الأكثر أحقية في تقديم الكتاب إلى سلطانها.

- إن منهج رحلة الشيخ الطنطاوي قد نُسج على منوال رحلة الطهطاوي، والرسالة المتبادلة بين الاثنين، الطنطاوي والطهطاوي تدعمنا فيما ذهبنا إليه، فقد اشتملت على منهج رواية الرحلة وجغرافية المكان والسكان ونظام الحكم والملبس والملاهي (وخاصة التياتر والرقص)، والتربية والصحة والتعليم والنظافة، ويهتم بالوسائل الاثنوجرافية (موقع المدينة ومناخها، وطبيعة تربتها، والطبقات التي تكونها خطوط الطول والعرض الأخذة بكروية الأرض والمناخ، وكذا المظاهر الحضارية المتمثلة في التعريف بفروع المعرفة، وأسماء المعاهد والجمعيات العلمية والأدبية، وأسماء المكتبات والمتاحف والحدائق العامة، وقضية المرأة في مجال العمل والعلم والاجتماع، وقضايا السفور والحجاب).

- وبالرغم من ذلك، فإن رحلة الشيخ الطنطاوي تعد وثيقة أدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تعرف أيضاً بحال اللغة في القرن التاسع عشر والمصطلحات التي كانت سائدة، وتعرض للعديد من القضايا اللغوية من تورية وتلميح ونحت واشتقاق واقتباس، وكذا النقل والترجمة من اللغة الروسية إلى العربية، إضافة إلى ما تزخر به ثنايا الرحلة من كلمات عامية مثل (فرنجي، ساوت، الأضياف، انس، فوقانها، السفر أي الموائد، وغيرها، علاوة على المواويل التي ضمنت في الكتاب، والنكات واللطائف.

ومع ذلك، فإن رحلة الشيخ الطنطاوي تظل ذات قيمة عالية وشاهداً على

العلاقات العربية - الروسية ، وأثر الفكر العربي في التأثير على حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر، والرحلة وإن كانت تالية لرحلة الشيخ الطهطاوي من حيث الأهمية، فإنها تقف في صف واحد مع رحلة الشدياق، كشف المخبا والساق على الساق، ومُقَدِّمة على رحلة فرنسيس مراش، رحلة إلى أوروبا، ورحلة محمد شريف سالم إلى أوروبا، وأمين فكري في إرشاد الألباء إلى محاسن أوروبا، ورحلة محمد بلجوجة، سلوك الأبرياء في مسالك باريس، وعلي أبو الفتوح، سياحة في أوروبا، والدنيا في باريس لأحمد زكي، ورحلة علم الدين للشيخ علي مبارك، وجولة في ربوع أوروبا لمحمد ثابت، وتحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث.

مصادر ومراجع المقدمة

- أحمد مختار
رحلة سمو الأمير محمد علي باشا في جنوب إفريقيا سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤م، ط القاهرة، مطبعة الاعتماد. دت.
- آدمز، شارلز
الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس العقاد، ط القاهرة، ١٩٦٠م.
- حجازي، محمود فهمي
أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.
- حسين فوزي النجار
رفاعة الطهطاوي (رائد فكر وإمام نهضته)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م (سلسلة أعلام العرب رقم ١٣٠).
- خالد زيادة
ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.
- خليل مردم
أعيان القرن الثالث عشر، قدم له وعلق على حواشيه عدنان مردم، ط

الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧م.

- الخفاجي، محمد عبد المنعم
الأزهر في ألف عام، بيروت، عالم الكتب، القاهرة، مكتبة الكليات
الأزهرية، ٣ مجلدات، ط الثانية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

- الزركلي، خير الدين
الأعلام، بيروت، ١٩٧٩م.

- شيخو، لويس
الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ط بيروت.

- الطهطاوي، رفاعه رافع
- تخلص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، مطبعة بولاق ١٢٦٥ هـ.
- مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية، مطبعة
الغائب، ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢م.

- علي مبارك
الخطط التوفيقية، ط مصر ١٩٨٦م.

- فتحي رضوان
دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، القاهرة، الزهراء للإعلام
العربي، ١٩٨٦م.

- كراجكوفسكي، (أغناطيوس)
مع المخطوطات العربية، ط، موسكو، ١٩٦٣م.

- قلفاط (نخلة)
تاريخ بطرس الأكبر، ط بيروت، المطبعة اللبنانية، ١٨٨٦م.

- محمد ثابت
جولة في ربوع أوروبا (بين مصر وايسلندا)، ط مصر، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨ م.
- محمد عبد الغني حسن
أعلام من الشرق والغرب، عربي في بلاد الصقالبة، الشيخ محمد عياد
الطنطاوي، مصر، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد ١٩٤٩ م.
- ناجي نجيب
- الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، بيروت، دار الكلمة،
١٩٨٣ م.
- رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٣ م.
- الدوريات والمجلات (مقالات)
أحمد تيمور، مقالة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»، مجلة الزهراء،
المجلد الأول، الجزء السابع، (٤١٧ - ٤٢٨)، ١٣٤٧ هـ.
- ونشرت أيضاً في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الرابع،
الجزء التاسع، والجزء الثاني عشر، ١٩٢٤ م.
- كراجكوفسكي (اغناطيوس)
- مقالة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»، مجلة الزهراء، المجلد الأول،
الجزء السابع، ١٣٤٧ (بالتعاون مع أحمد تيمور).
- محفوظ حسين علي
محمد عياد الطنطاوي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد
السابع، ١٩٦٤ م.
- محمد أمين حسونة
محمد عياد الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٥٤٩، يناير ١٩٤٣ م.

مصادر أجنبية

- Kosegarten, J.G; Scheikh Tantawi

Zeitschrift Fur die Kunde des Morgenlands, VII: 1850 PP. 43-67, 197 - 200.

ZDMG. IV: 240 - 243.

- Levitsky, H

Kiev, Mistetstvo Publishers Kiev, Progress Publishers, Moscow, 1980.

- Marquis de Custine

Empire of the Czar (a journey through eternal Russia, 1939, U.S.A. 1989.

هذا الكتاب

تحت إشراف الأديب

المعروف بالشيخ محمد عبد

المعروف بالشيخ محمد عبد

المعروف بالشيخ محمد عبد

المعروف بالشيخ محمد عبد

صورة صفحة العنوان من المخطوط

ومما ينبغي ان يتنبه له انه المترجم من لغة لا بد ان يلاحظ
 ما يكون مقبولا في اللغة الاخرى ولا غير كما فعلت في هذا الشرع الاخر
 فان اكد عرشه في المصطلحات بالتحفة الهندية وهذا بديع
 في اللغة (اوسى) ستهج في العربي فلذا فخرته الى الباب والمودى ولاحظه
 وهنا صحت عناء القلم وله قلت

يراعى كفاً نحو في الجوزاخر ولا تتجارك تدعى منك ما يكفي
 واسمه لاد وبنية التوسل ان يكون هذا التعلق مقبولا
 عند السادة العلية والعتبة الخاقانية وان ينظر اليه الصالح
 الاعلام بعينه بالانصاف والاحمود واعين سبيل الاعتصاف
 فما قصدت الا التبصير وما مر ان الا التذكير ان اريد الاصلاح
 ما استطعت وما توفيت الا باسمه عليه توكلت واليه انيب
 وقد تم بحمد الله تبيينه في اوله بسم الله الرحمن الرحيم النبوية
 على صاحبها وآله وصحبه افضل الصلوة وازكى التحية الموافق ذلك
 لا والله في نون الثاني سنة ١٢٨٥

من الميلاد واسمه والى سرداد

على يد مصنف الفقير محمد عباد

الطنطاوي

المصري

ببرق

١

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

هذا كتاب

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد
المصري الطنطاوي غفر الله ذنوبه
وستر عيوبه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢ / حمداً لمن سَيرَ سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقِيضَ ٢ / له أعواناً يعضدونه وأنصاراً يحمّدونه ، وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده ، وودّه الغرباء ، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء ، وعلى آله المهاجرين والأنصار ، آناء الليل وأطراف النهار .

أما بعد ؛

فيقول محمد بن سعد عياد - أجراه الله على مناهج الرشاد - : العلم رأس مال الأكياس ، والجهل لكل ضرر أساس ، والعلم لا حدّ له ولا نهاية ، وبحره لا سيف له ولا غاية ، والمشتغل به كل يوم يدرك جديداً ، ويستنبط بديعاً فريداً :

ما حوى العلم جميعاً رجل لا ولو مارسه ألف سنه
إنّما العلم بعيداً نيله فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسفار ، وجوّ البراري ووالبحار ، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد ، والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد ، وأما مَنْ لازم وطنه ، ولم يفك من أصر الدار رسنه ، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحج ، وكان ضيق العِطن ، قليل الحجة ، كما قلت حين سافرت :

ومَن لم يغترب في كل قطرٍ فكالطفل الذي في حجر أمّه
تراه ساذجاً لا علم يدرى ويبكي حيث فارقتها لهمّه

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر ، ولم يبالوا لفرط

اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني^(١)، بقول الشاعر:

يوماً بجزوى ويوماً بالعقيق وبالغذيب يوماً ويوماً بالخليصاء

٣/ ويقول الحريري؛

أنا في العالم مثله ولأهل العلم قبله
غير أنني كل يوم بين تعريس ودخله
وغريب الدار لو حل بطوبى لم تطب له

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي؛

يا واقفاً بين الفرات ودجلة عطشان يطلب شربة من ماء
إن البلاد كثيرة أنهارها وسحابها فغزيرة الأنواء
ما اختلت الدنيا ولا عدم الذى فى فيها ولا ضاقت على العلماء
أرض بأرض والذي خلق الورى قد قسم الأرزاق فى الأحياء

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد روسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشاسعة، بسبب طلب دولتها لي أعلم اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا ألوي على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه وما عاقل في بلدة بغريب، هذا مع شغف النفس بالأوطان، وتأسفها على فراق أهل والخلان.

قال الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك إلى

(١) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، ت ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م. انظر السيوطي، بغية الوعاة، ٣٩١، ابن حجر: الدرر الكامنة، ٣٥٠/٤، الشوكاني: البدر الطالع، ٣٠٣/٢.

أن أوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن عبدالله ، يستعديه على رجل من
التجار يعرف بابن أبي كامل ، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها ، فقال :

ولي وطنٌ آليتُ أن لا أبيعَه	وأن لا أرى لغيره الدهرَ مالكا
عهدت به شرح الشباب ونعمة	كنعمة يومٍ أصبحوا في ظلالكا
وحبَّ أوطانَ الرُّجال إليهمُ	مآرب قضَّاهَا الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ	عهود الصُّبا فيها فحنُّوا لذلكا
٤/ فقد ألفتُه النفس حتى كأنَّه	لها جسدٌ إن بان غودرَ هالكا

وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن ، سألتني جمع من
الأصدقاء والمعارف ، وجمَّ من أهل المعارف أن أسطرَّ في سفري هذا كتاباً ، أودع
فيه ما يعذب مذاقاً ، ويطيب شراباً من بدائع البلاد ، وغرائب العباد مع شذرة
علمية ، ونكات أدبية ، وطُرف استحسانية ، ومُلح اختراعية ، فأجبت السؤال ،
وبادرت الامتثال ، وشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق ، وسميته «تحفة الأذكىاء
بأخبار مملكة الروسيا» ، ولما حان حين تمامه ، وبدا بعد النقض حسن إبرامه ،
أردت أن أشرف ديباجته ، وأزين فاتحته بذكر اسم مولانا أمير المؤمنين ، وخليفة
رسول رب العالمين ، سلطان البرين والبحرين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وارث
تخت السلطنة كابراً عن كابر ، الممدوح اسمه على أعواد المنابر ، السائر عدله سير
المثل السائر ، والسائل كرمه سيل البحر الزاخر ، حامل أعباء الخلافة على كاهله ،
ومجدد ما اندرس من معالم الدين ومناهلها ، الباني على ما شيد سلفه الصالح ،
الباني على ما يقوي الدولة من المصالح ، حامى الدولة العلية ، وناصر المملكة
العثمانية ، القائل عزمة الظافر ، كم ترك الأول للآخر ، والمنشد فخره بين الملأ ،
قول المعري أبي العلاء ؛

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

والمتمثل رعيته لما عمَّها من الخصب والسهل ، بقول ابن سهل : «جاءنا آخر

الزمان كما تفتّر عند الأصائل الأزهار». مولانا السلطان ابن السلطان المحفوف
بعناية الملك المجيد، والملحوظ بحسن التأيد على التأيد مولانا السلطان ٥/
عبد المجيد:

لا زال للإسلام أشرف كعبة لم تخل يوماً من طواف وفود
وقلت مقرظاً اسمه الشريف بقصيدة أول صدورها حضرة السلطان عبد المجيد
خان، وأول أعجازها خلد الله ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمت بالظبي هيفاء بنت عيد	خدود ورود عن ورود عيد
ضنيت أسي من ميلها وهي بانه	لها حسن ثغر كالجمان نضيد
رنت بلحاظ فاعترى الظبي خجلة	دهته وآوته لبلقع بيد
هفا نحوها قلبي فقال رقيها	أتهفو فقلت اللوم غير مفيد
أنقذ غياً في هواها كمسلم	لهدي أمير المؤمنين رشيد
لفخر بني عثمان خاقان أرضها	لحائز مجد طارف وتليد
سليل الأساطين الكرام وفائق	هصور طويل الباع أصيد صيد
له الله من ملك محاسبه	مآثر ظلم في العباد شديد
طبيب بأدواء الخلافة عالم	لديه دواء الجبر ليس بعيد
أفاض على الإسلام صيب عدله	كغيث على قفراء جس جيد
نما الخصب ما بين الرعايا بوقته	هنيئاً لتنظيم أشاد سديد
علا درجات ساميات إلى السهى	إلى حسب عالي النجار عتيد
بنى وأقام الدين فازداد مجده	لهذا دعاه الناس عبد مجيد
دعا الناس بالحسنى لما فيه خيرهم	يسير إلى اليمين بكل سعيد
أعد لنصر الدين كل سُميدع	أفاض عليه سابقات حديد
لعسكره الجرار صولة زاهر	خضم بأمواج الرداء مديد
مهيّب شديد البأس في حومة الوغى	رؤوف وحيد العصر خير فريد

جرى مدحه في عالم الأدب الذي
يجود على العافي بجزل رفته

٦/ دنوت بآمالي إلى روض جنة
خدمت بيت الشعر عالي بابه
أتيت إليه خاضعاً لعلوه
نعمنا ولدنيا به ورعيته

أتى بنظام معجز للبيد
لمحسوب ذياك الحمى ووصيد

زهي حلا شعري به وقصيدي
مريد العلى فالباب خير عميد
أخوض غماراً أو بطيء بريد
نعيم فأيام الأنام كعيد

مقدمة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتر بورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغربة، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتاح سنة ست وخمسين بعد الألف والمائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مارس الافرنجي (يعني آذار) سنة ١٨٤٠م مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية، الجاري على بلاد فرانسا والنيمسا ونحوها، وأمّا على حساب الروسيا فينقصون اثني عشر يوماً، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مارس، ويسمى الأوّل الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأوّل السنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أمّا ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم من حيث أنني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالروس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشيع:

وكان أوّل عهد العين من جَزَعٍ بالدمع آخر عهد القلب بالجلدِ

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هاديء، والقمر هاديء، والملاح حادي، والنوى شادي، فهبت بعد برهة ٧/روائع الأزهار، فاستنشقتها الأنف ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنيّة شبرى الفائقة على البساتين قدرا:

كهيفاء رامت تختفي في شعورها فتمّ عليها عرفها وسوارها

ثم في الصباح، تلاعب الموج بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند بلد
يقال لها «زاوية رزين»، وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفارى شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زنى وكثر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف
الصيداوي مجيباً في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منها انطلق والأسر راح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهم بي أرسى
مد غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

وقد ساعده الوقت على إحكام التورية، وقوله: والفلك فيكم جرى، معناه:
إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السما

ثم سرنا بعد هدوء الريح قليلاً، ولا زلنا في سير ووقوف، وجرايان وتجديف
غروف، حتى وصلنا بعد اللتيا والتي ثغر الإسكندرية ليلة الجمعة بعد غلق
الأبواب، فلم نستطع الوصول إليها بسبب من الأسباب، فقلت متغزلاً مشيراً لقصة
زليخا مع يوسف لما غلقت عليه الأبواب وقالت له (هيت لك)، وهذا يسمى في
علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك فغلقت أبوابها ولم تقل لي هَيْتُ لك

٨/ ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة روسيا وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سفير الدولة الروسية في بلاد أمريكا بعد أن كان سفيرها في بلاد الفرس، فأقمت عنده أسبوعاً بغاية الإكرام ووفور الاحترام، وهو الذي هَيَّجني حين كان في مصر على الذهاب إلى بلاد روسيا، وذلك أن الأمم منذ تقدمت في التمدن، علمت فائدة ارتباطها بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

الناس بالناس فلا تنفرد وكن أخا حزم وتعيش
ما لقوي عن ضعيف غنى لا بدّ للسهم من الريش

فلذلك أنشأت مدارس للألسن الغربية، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن لكي تكون لها ترجمانات عند الحاجات، ولقوة الدولة الروسية، وكثرة ارتباطها بالدول الغربية، فعلت ذلك وتقدمت فيه على غيرها، حتى أنه يوجد فيها من أهل الألسن المختلفة ما لا يوجد في غيرها، وقد اعتنى وزير الغرباء سعادة «الكونت نسل روض» بالألسن الشرقية، فأنشأ لها مدرسة مخصوصة غير قانع بالمدرسة العمومية لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في أوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل الجنرال «مرزا جعفر» معلم اللسان الفارسي، ومربي التلاميذ والتراجمة الروسية، ليس فقط في هذا اللسان بل وفي اللسان التركي، وفيها الجنرال «ديمزون» وهو وإن كان ليس مشرقياً، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث إنه يتكلم بها بالسهولة، ومن حيث إن سعادة الوزير مفتن بإحياء مدرسته، ولا زال في كل حين يجتهد في تسهيل ٩/ تعلّم التلاميذ، فلهذا لما توجه جناب «الكونت ميدن» إلى الديار المصرية كلفه بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث اني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرنيل» الذي طالع معي كتباً عربية أدبية وتاريخية،

واكتسب في هذا اللسان مهارة المعية، بسبب كثرة صحبة العرب والمعيته. طلب مني الذهاب، فأجبت ومن مدة بضع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدنها، وحامي دمارها ومؤمنها، فأذن لي وطلب حضوري، فمثلت بين يديه، فأمرني بالجلوس، فامثلت أمره المأنوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسية، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته، لأنه مشغوف بجلب الألسن الغربية إلى بلاده، ولهذا ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصاً في اللسان الفرنسي، وكتب لي مرسوماً بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقاً لمصر وأهلي فيها:

فاض جفني بماء دمع حميم	لتنائي صحابة وحميم
حيث فارقت غير قالٍ دياري	ومباني علومها والفهوم
حيث نيطت عمائمي وألمت	بي ثياب الصبا وبرد النعيم
تعتريني الخطوب منكدرات	تتوالى وتارةً في نجوم
ولشغل الإسكندرية يمت	لطرده العنا وصرف الهموم
بلد أهله حماة دمار	لم يكونوا كمثلي ذا من قديم
ودعاني عزيز مصر إليه	وحباني بالعز والتكريم
قال لا تضع زمانك إلا	في اكتساب العلوم والتعليم
فيميناً لأرحلن سريعاً	لبلاد الشمال أفق النسيم
أنا نجمٌ وكم بمصر شمس	ومع الشمس كيف مرأى النجوم
١٠/ فلهذا برزغت نحو بلاد	أنا فيها شمس لكشف الغيوم
في سفين النيران قالوا ولكن	هي عندي تدعى سفين النعيم
جنة جنة تجود في البحر	ولو هاج مثل خيل هيم
ما شراع بها فيخرقه الر	يح وتلقى حملاً كحمل الدهيم
مثل ما قد عانيت في نيل مصر	حيث كنا تحت العناء الوخيم
كم سفين هوت بما كان فيها	لاعتساف الملاح من سوء خيم

ثم نزلت في سفينة بخار نيمساوية ٢٦ آذار وفيها ثلاث درجات ؛

الأولى : جهة الدفة، وهي مشتملة على عدة أوض : ديوان وسفرة للطعام، وفيها كتب لمن أراد المطالعة .

والثانية : جهة السِّكَّان وليست كالأولى .

والثالثة : في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكراد.

ووقت الغذاء مقرر، وكل مَنْ طلب شيئاً أحضره له الخدامون، ولو كان الثمن أغلى بسبب عدم السوق، وسرت في البحر الأجاج، المتلاطم الأمواج، وذلك أول ركوبي المالح، والوابور، فحصل لي دوخة وتقايآت، وضائق نفسي، فذكرت قول ابن رشيق :

البحر صعب المذاق مرُّ لا جُعِلْتُ حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك :

النيل غضبان عليّ كأنه لصحبتني لا يرتضي بتنائي
وأرى الأجاج الملح عذباً سيره فكأنه متشوق للقائي

وقلت :

وابورنا ونارُ كانونه من هول هذا البحر نضران
أزرق فيه زبدٌ أبيض كأنه كشمير نصراني

١١/ وفي ذلك اليوم لم نر أرضاً أصلاً كما قلت :

والبحر أزرق كالسماء ولا نرى أرضاً كأننا في طباق سماء

ثم وصلنا جزيرة جريدة - إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها

جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصصة بسبب كثرة الينابيع. والإقامة فيها أحسن ما يكون في الدنيا كما قيل، لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفة، والمعادن الكثيرة، وافرة المحصولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتان والعسل والشمع والحرير والقطن والسّمك والطير، وقد قاست كثيراً من التقلبات والفتن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الرومان مليوناً ومائتي ألف، والآن نحو خمسمائة ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء الجزيرة، وروم، وبعض يهود، وأرمن.

وأرسينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة يحيط بها البيوت المبيضة، فحكت لنا مباني الروم إذ كانت أول ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقد رأيناها موقودة لأننا وصلنا في الليل، وفي الصباح اجتمعت الناس أفواجا على الساحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافروها كذا في كل البلاد. هذه الأعجوبة لم تنقض جدتها ولا أظنها تنقضي. ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول حُبس وعُدَّ كلامه كالهذيان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالا لعملها، فأعطاه ثم لما عملها وسيّرَها أخبره، فلما حضر واجتمع الجُم الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأنني سيرتها البارح، ولكن بعض الحساد لعب في آلاتها، فما استمع له نابليون، فلما حُبس في جزيرة ألين، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على ١٢ / حسرته، وعضّ بنان الندم. وقلت في سفينة نار كان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مُورياً:

هذي العجيبة لا تَقْضِي جدة هي جنة قد صُوِّرت من نار
فيها لبيت الله ساروا شُرْعاً فغدت منافع مسلمٍ ببخار

وعسر عليّ جداً الخروج لرؤية هذه المدينة بسبب الطاعون المصري المقتضي حبسنا في هذه السفينة ثم في الكرانتينة حتى نتطهر من هذا الحدث

الأكبر، فما خرجنا أبداً إلا عند اسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان
وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ من لمس انتقض طهره،
ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولاً، فقلت:

يا راكباً لجج المياه مخاطراً لا تغترر إن مرّ يومٌ صالح
لا يُنضح الماعون إلا بالذي قد حلّ فيه وهو بحرٌ مالح

وقلت:

للروم بحرٌ أزرق كعيونهم لي مُقلقٌ
لكنه متشعبٌ والطرف منهم ضيقٌ
لا تعجبوا إن خفّته فهو العدو الأزرق
فلذاك قلبي نحو بحر ر النيل دوماً شيقٌ

وقلت عن طريق التخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقي
لم أخش من خطر السفار وأتقي
بل جبت فيه مغرباً من مشرق
وركبت لجة بحر رومٍ أزرق من خطبه هيهات ما لي مشفقٌ
أغبر عيشٍ بالتصافي أخضر
والعود من بعد اسوداد مقمر
وازور محبوب بديع أصفر
وقد حلا فيه الممات الأحمر وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري، فهذا أغبر العيش الأخضر. إلخ. وقلت ١٣/:

يا ليتني مثل الحريري قد رثى له من الخطب العدو الأزرق

وقلت مواليا :

يا ناس على شان غزال البر في الأبحار
نزلت أدور وفي الحال خدت مركب نار
أنا ترابي وجاني الضد ليل ونهار
أهين من البحر أهين من الهوا والنار

وفي «الهوى» بمعنى «الحب»، وكذلك في النار تورية بمعنى العشق .

ثم أرسينا ثالث يوم عند جزيرة سيرة وبها محل الكرنينة ككنى ، وبقر بها منارة ،
وتزودنا منها لسفينتنا فحم الحجر ، فوقودها الحجارة لأنها سقر .

ثم سرنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزميز ، وهي مدينة عظيمة
من بلاد الأناضول ، بها كثير من الأشجار والمباني ، وهي شبه جزيرة لأن البحر لا
يحيط بها من جميع النواحي ، واعلم أن بعض علمائنا يطلق على شبه الجزيرة
جزيرة كقولهم : جزيرة الأندلس ، وهي تجوز بسبب المشابهة كما نبه عليه الشهاب
الخفاجي : «وها هنا نكتة لطيفة» ، وهي أن بعض مترجمي مصر ترجم كلمة
«بريسيكل» بالفرنساوية بقوله : «بحيث جزيرة» وهذا من ضيق العطن ، لأن هذا
التركيب لا يحسن في العربية ، وزاد ذلك تعسفاً بضم الباء التي هي حرف جر
فيكون تصغير بحث ، وهو خروج عن البحث وقد غربت عنه فصاحة استعمال
حيث ، فإنها لا تضاف إلى المفرد إلا نادراً ، وأيضاً أراد الاختصار فوقع في الإطناب
من حيث لا يشعر ، فإنه ترجم بثلاث كلمات مع الركاقة ، فحق أن يقال
له : «حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء» ، والذي ألجأه إلى ذلك أن كلمة «بريسك»
تترجم تارة بـ «بحيث» ، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول : شبه جزيرة كما قلنا :

١٤/ ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

وهذا باللغة الروسية «بولواوستروف» أي : نصف جزيرة . وقد دخلت أزميز عند

رجوعي إلى مصر، فوجدتها بلداً كثيرة الزحام، نافقة المتجر، بها كثير من الروم والغرباء، ورأيت فيها بيوت الروم مبلطات بالرخام من أسفل، وعند رجوعي ثانياً من مصر كرنتت في بيت ظريف على خورها، محفوف بالكروم والأشجار، فأعقمنا هذه الأعناب، فلم يولد لها بنت تسحر الألباب، ثم مررنا على بحر مرمره، وعندها ساعد اعتدال الهواء الماء والنار، وقرب الأرض المخضرة بالأشجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد وقلاع وجبال وتلاع، ورأينا سمكاً يطفو على الماء، وكذلك في الخليج القسطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسلام والتخت الشامخ على الدوام، مدينة قسطنطينية المحروسة ونعمنا بطلعتها المأنوسة، وكان ذلك ليلة السبت، فحصلت لنا الراحة والسبت. لكن أسفت جداً على الوصول ليلاً، بسبب عدم إبصار المواضع القريبة، وشكرت النار التي أخرجتني من الماء، إذ المراكب القلعية تمكث شهراً أو أكثر، فقلت حينئذ:

لم يَدِرْ عُبَاد السَّعِيرِ بِنَفْعِهَا	بل أَجَّجُوهَا فِي هَبَاءِ هَوَاءِ
وَأَرَى الْفَرَنْجِ دَرْتِ بِخَالِصِ سِرِّهَا	إِذْ سَيَّرَتْ سَفِيناً بِهَا فِي الْمَاءِ
مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوا فَكَأَنَّهُمْ	قَصَدُوا التَّمَّاسَ الْعَذْرَ لِلْقَدَمَاءِ

ومرسي اسلامبول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع، لأنها ملتقى أوروبا وآسيا بين البحر المتوسط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال، تتابع فيها قوافل آسيا ١٥/ وسفائن أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع مملوءة بأمم عديدة وطوائف شتى من الترك والأرمن والروم واليهود والفرنساوية وغيرهم، نافقة المتجر، بهية المنظر، يظهر عليها الخصب والخير والترف والمير، وزوارقها كالقسي. ونزلنا من الوابور في زورق في الخليج القسطنطيني إلى قصر الكرنيتية في اسكدار، وهي مدينة كبيرة من آسيا أمام اسلامبول على شاطئ الخليج القسطنطيني الأيمن، فيها نحو مائة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق

ذات بهجة ، وقرافات مملوءة بقبور الرخام في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية على الطرفين خصوصاً من سراية حضرة مولانا السلطان ، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلم ولا لسان ، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها ، فهي حرية بقول من قال :

إنَّ المملوك إذا أرادوا ذكرهم من بعدهم فبالسن البنيان
إنَّ البناء إذا تعاضم قدره أضحى يدل على ارتفاع الباني
فقلت :

مذ لاحت اسلامبول وهي التي من يرها ودبها مسكنه
علمت أني ضاع عمري سدى في مصر دار الذل والمسكنه
نسيت من حسن مشيداتها أني يُغدى بي إلى الكرته

فإن قلت : لِمَ قلت الكرته ، وإنما هي الكرنتينه ؟ لأن أصلها كرانتين كلمة أفرنجية من «كرانت» أي «أربعين» ، لأنها كانت أولاً كذلك ، وأما الآن فأربعة عشر يوماً ، قلت : نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الكلمة اشتقوا منها فعلاً مع القلب فقالوا : كرتن يكرتن ومصدره الكرته . وقَصُرُ الكرنتينه باسكدار على الخليج ، وبه أوض كثيرة للأمتعة والمسافرين ، وفيه حنفيات كثيرة ، عذبة للوضوء . ١٦ / وغيرها من المرافق ، فلا يحتاج للسقاين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر ، فإنها محتاجة للسقاين ولو على النيل ، وبقربه مقبرة للمسلمين وأخرى لغيرهم ، فمن مات أيام الكرنتينه دُفن هناك ، وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوارٍ مات إحداهن بالجُدري ، فغسلت وكفنت ودفنت هناك ، وقد أخبرني ناظر الكرنتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين فقد من اسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها ، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد لله :

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تود فقلت أن لا ترجعي

فمتى تُفقد من مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد وتهلك العباد، وقد أُصبت في طاعون سنة ١٢٥٢ هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم، وكان رأسي ثقيلاً جداً وخيف عليّ الهلاك وقت البحران، وغاب عني الإحساس والعرفان، ولكن الله سلّم، فانفتحت كرة الخطوب وبثرة الكروب، فهل سمعت قولي:

يكفيك يا كرة الخطوب إقامة وتدحرجي ما للكرات قرار
وتفجري لو كنت أنت حجارة فلربما تتفجر الأحجار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، وانضم الفتح، وكان لي وردٌ أقرأه للحفظ صباحاً ومساءً، فلتنفيذ إرادة الله نمت ذلك اليوم مستأخراً، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأُشيع في القاهرة موتي، فلما علمت بذلك قلت مضمناً:

تمنّى أناس أن أموت وإن أمّت فتلك طريق لست فيها بأوحد
وإن أظهروا موتي فليس بمُنكر إذا أظهر الشيطان موت محمد

وهذا تلميح لإشاعة قتل الشيطان محمداً، يعني النبي ﷺ في بعض الغزوات. ثم إن قصر الكرنتينه تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب. ١٧/ والجبل مملوءة بالخضرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محلة كجبل الجيوشي بمصر، فما أطف العصور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود، فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة، مسكن الأمراء أيام الصيف، ثم خرجت من الكرنتينة ونزلت غلطة، وهي بلدة كبيرة مشحونة بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في المشي، أمام اسلامبول، وبها قبة عالية سلالها كالمنارة، لكن في وسطها اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي نظرت فيها المراكب والقصور واسلامبول والمنارات، فنظرت من ذلك أحسن منظر، وفيها ساعة دقاقة من حديد، ثم ذهبت في زورق

إلى اسلامبول، فوجدتها لطيفة جداً إلا أن لطف الظاهر أبدع، ولعل بهمة مولانا السلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يوماً، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجد كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصاً قبور السلاطين، ففيها تأنق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهلها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والسيلانة الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى والعطر، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي تختم بها وبيوتها مبلطة بالخشب وسقوفها مسنمة بالحجارة والخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر كما فيها أيام الشتاء وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في اسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحداً مات من عضه كلب كما في بتر بورغ وأطرافها، فإنه ١٨/ تارة يتفق ولو نادراً وجود هذه المصيبة، وقد وجدت منذ سنين عدة كلاب بعضها كان بيتياً، وعض بنتاً صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها هذا الداء وهو كريه جداً، لأنه لا يقصر على من عضه الكلب، بل كل من عضه المعضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيواناً فيصير الإنسان أو الحيوان سحراناً، وكذلك كل من عضه وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر تارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكلب، قال الشاعر:

بناءً مكارمٍ وأساءةً كَلَمٍ دماؤكم من الكَلْبِ شفاء

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «بالكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضاً الكَلْب المسمى الدانيمارقي لا يوجد في دانيمارق، وقد تنسب بعض الأشياء

لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلاً يسمون تارة المطاوي التي تصنع في مصر مطاوي إنكليزي، والشفر ونحوها المشغولة في روسيا نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاؤلاً كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاؤلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل، والمسلمون في اسلامبول يغلقون دكاكينهم يوم الجمعة، كما أن اليهود يغلقون يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يغلقون حوانيتهم إلا في العيد الصغير والكبير. ولقد صليت ١٩/ الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم، البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلا أن الخطيب تارة يتألق في الخطبة زيادة عن العادة، وطوراً يسرع وتارة يُسرّ وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدرابزين صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإن من يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولعل سبب اتخاذ ذلك الموضع أنه ربما كثر الزحام، فلا يجد القارئ موضعاً إلا بالمزاحمة، ولا توجد في هذه الجوامع ميضئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب. وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقي منها، ويملاً السقاؤون منها قربهم ويحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقاؤون يحملون القرب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقيلتها بالقسطنطينية، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر، فبكثرة مع عدم الغطاء. ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسود. ومن المباني العجيبة بالقسطنطينية قبة أيا صوفية، وتسمى قبة السماء، كأنها هرم ما ضارها قديم ولا هرم، جامع متين، وأصله كنيسة لقسطنطين، خربت واحترقت، فبناها يوستينيان، وصرف فيها على ما قيل خراج مصر سبع عشرة سنة، وضاهى بها الباني المسجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسلام في كعبة اسلامبول مسجداً أقصى، ففي سنة ٨٥٧ لما افتتح السلطان محمد الثاني

المدينة، دخل هذه الكنيسة راكباً على حصانه، وبعدما صلى فيها وأزال آثار عباد الصليب وصورهم، جعلها مسجداً يتلى فيه القرآن بدل الإنجيل، فجزاه الله خيراً على سعيه الجميل، ويرشد لذلك وضع القبلة ٢٠/ والمنبر، فإن المنبر بارز في جانب القبلة خارجة من الحائط وبينهما مسافة والعادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقاً بالقبلة، وتكون القبلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقر بهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبواسطة خابية كبيرة من رخام يستقى منها، وفيه كثير من العرب خدّمة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه خمسة عميان وبصيراً يقرأون البُرْدَة كما في مصر، وتلفظهم حسن، لأن أصلهم عرب، فأعجبني ذلك، إلا أنهم يلحنون، وهم معذورون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها في مصر، بلد العربية، ويقول بعضهم:

مولاي صلّ على مَنْ حلّ في الحرم محمد المصطفى المخصوص بالكرم
بدل قول المصريين:

مولاي صل وسلم دائماً على حبيبك خير الخلق كلهم

وهذا حسن لعدم إفراد الصلاة عن السلام المكروه عند البعض، ويقرأ الباكون بيتاً من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة. وقبة البنية عالية، ومناراتها أربع سامية، وقد اعتنى مولانا السلطان بتعمير هذا البناء، فجوزي خيراً على هذا الاعتناء: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾.

لطيفة:

اعلم أن اسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كستنتنبول، أو نحو ذلك، يعني بلد قسطنطين، فلما

أخذها المسلمون، قالوا: اسلامبول - أي بلد الإسلام - ولم تبق التسمية القديمة إلا عند النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر يقولون: اصطنبول، قيل هذا مأخوذ ٢١/ من لسان الأروام، لأن استينبولي معناها «إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مراراً عديدة الروم يقولون هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثال مصر «جاء من اصطنبول في علة» أي حضري غير فلاح، يقولون ذلك هزواً، ويقولون أيضاً: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صاداً وقالوا: اصتنبولي، أو: استنبولي، وقلت موالياً:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافرت اجريد ورحت ازميز واصتنبول
رأيت ملاح شكلهم في كل شيء مقبول
ما عندهم شي رزالة زي ما في مصر
علن على القلب لكن يلتقوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف، ولم أستنكر من اسلامبول إلا قواويق^(١) الأرمن التي هي كالبوش، وزى النساء في الأسواق، ومسألة الذوق لا حرج فيها، وكل حزب بما لديهم فرحون:

لا تعذل الإنسان في شهواته في الناس من يلتذ طعم الحُصرم
وكذلك صعوبة الطرقات في بعض الجهات بحيث يعسر فيها مشي العربات،
ولذلك الغالب فيها المشي أو ركوب الخيل، فهي أجدر بأن تكون جحيم الخيل،
وقلت في مدحها:

قد عاب اسلامبول من لم يديرها وكذا المليحة عند ذي عنة

(١) كلمة تركية معناها لباس الرأس.

ما ضارها إن كان بعض طريقها مثل الصراط فإنّها جنة

وبالجملة فلا تعدم الحسناء ذاماً، وقد ركبت حصاناً مرة من غلطة، وتوجهت إلى اسلامبول على القنطرة، وهذه القنطرة طويلة جداً، من رآها علم عرض الخليج لأنه في المرأى صغير، وذهبت إلى بالقلي - متنزّه جميل - كبركة الشيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكذلك كل الطريق خارج المدينة لينة سهلة ليست كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة المطر، ٢٢/ وبها كثير من الأشجار، وفي هذا المحل كنيسة الروم التي عمروها بإذن مولانا السلطان محمود عليه رحمة المولى المعبود، وكان ذلك ذريعة إلى استدعاء أرمن مصر تجديد كنيستهم لما نازعهم في ذلك علماء مصر، وقد أجيوا، وفي هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بساللم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون منه رؤوسهم ويشربون تبركاً، وقد وجدت فيها جاذراً وظيفاء، كما قال الأخطل في كنيسة الروم:

إنّ من يدخل الكنيسة يوماً يلقّ فيها جاذراً وظيفاء

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص بتقليب الأرجل بصناعة، لا بهزّ الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي كالكمنجة والقانون، وخيام فيها القهاوي والشربات ونحو ذلك، وللصغار مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفاق بجانب سامر الرقص، سامراً في وسطه ميت أرمني يراد دفنه، وجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفراً عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهم بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء والكلام، فهؤلاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الزقن»، وما رأيت أحداً بكى عليه ولا استعبر. وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل المخضر، ثم عدت على قنطرة أخرى إلى

مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة^(١)، سمي بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيام السلطان أحمد، وهناك يتفسح كثير من الناس، خصوصاً سكان غلطة ويتزهون، وهناك قهوة كبيرة، وقصور حسان، وحوور وولدان، وذكرت بسيري هناك في السير ٢٣/ في ريف مصر أيام النيل لكثرة الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق هذا الجبل سهلة لينة، وكله أخضر، وفيه أعمدة جليلة، مكتوب عليها بالذهب، وعليها نشان السلطان محمود، وضعت علامة على غاية رمية السهام، لأنه كان فارساً رامياً، ولضلال الجهالات والأوهام رامياً، أخضل الله ضريحه، وروح بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة بالأشجار المتناسقة، فله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها من المراضع، وقد ذهبت عند الجي الدولة الروسية في غلطة^(٢)، فقابلني بالبشر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر منذ أعوام، وقرأ عليّ شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها، ولما رجعت إلى اسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطلول، والعود أحمد، ذهبت إلى الجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبشر، وذلك أولاً من حسن طبيعته، وثانياً بسبب رساله وصاية كتبها لي حامي الغرباء وناصر العلماء رئيس الديوان الأسنى والمداوي لعلل القلوب، والأسى مشير السر سيناوين، وبحسن عنايته، أتتبع في هذا السفر، كأني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

وما سافرتُ في الآفاق إلّا ومن جدواك راحلتي وزادي
محبك حيث ما اتّجهتُ ركابي وضيفك حيث كنت من البلاد

(١) تقع وراء شيشلي، كانت منتزه استانبول.

(٢) أي سفير الدولة الروسية ELCI.

ثم فارقت اسلامبول، وفيّ على فراقها أسف الشكلى، ونزلت مع الترجمان المذكور في وابور روسي ٢٣ شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني ٢٤/مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقر به العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك دره لطيفة البيوت والأشجار. ولم أجد الماء أبداً، وصرت أجري على ظهر الوابور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في اسلامبول:

أهيف من الترك خلّى القلب في تفتيت
لمن رأى الحب من عيني عمل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي كيت
من خجلتي فت له استانبول أنا وجريت

وكان الهواء طيباً، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

الشمس إن غربت يبدو لنا قمر فنحن بين السماء والبحر في نور
وقلت:

البحر أسود والسما زرقاء	لكنّ فيه سفرتي بيضاء
أنا آنس من طيب وقتي راقص	ومطيتي طنانة وغناء
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها	لكنني طربّ فذاك غناء
بيخارها تعدو على أمثالها	إن صحّ أو إن لم يصحّ هواء
وتنق في البحر العميق كضفدع	وتخافها حيّاته والماء
فالماء منها قد تغير لونه	وعلاه نوح مقلق وبكاء
هل نارها نار الجحيم أما ترى	تلك المياها ومالها إطفاء
في بطنها قيظ وفي ظهر ربيع	أو خريف تارة وشتاء
وركبتها فوق الأجاج وقبل ما	للنفس جارية حلت سوداء

فكأنها عربية تجري على عجلٍ ولكن خيلها سحراء
عامودها قذف الدخان كأنه بركان نار عمّها الإذكاء
أو مثل سعادة أطار الريح في الجـ الشعور ورأسها شمطاء
وتخال مروحة الهواء كأنها رقاصة لكنها صماء
٢٥/ أعجوبة في شكلها فاقت فقلّ في وصفها ما تشتهي وتشاء
هي خان زاد أو حصان مسافر أو مركب للسير أو رمضاء
أو معمل الحداد أو هي نزهة أو بيت سكنى جادّة البناء

ثم اتفق الإرساء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعاً وخمسين ساعة، وعند رجوعي كانت مدة السفر تسعٍ وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاحون أنهم وصلوا تارةً في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في الوابور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر نظرنا فيه حكيم، وأمرنا بوضع أيدينا على آباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، وذلك بعدما نظرونا ونظروا تذاكرنا مع القبطان، ثم ذهبنا إلى الكرنتينة مع أمتعنا، فأما نحن فذهبوا بنا إلى محل، أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الوقت حصل لي خجل عظيم، وأبيت أولاً كعنيزة مع امرؤ القيس، يوم دارة جلجل، ثم أخذنا ثياباً نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تترى، وطاقية، وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء الغجر، وقلت إذ ذاك:

ويوم أودسا جردوني بدلتي فصرت بلا ثوبٍ كيوم ولادتي
لبست ثياباً غيرها فكأنني صغير تبدّى في قماطٍ ولفةٍ

ثم ذهبنا إلى المحل المعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوضاع كاملة الأدوات، محكمة البناء، وحيطانها بالورق المنقوش، وأعطي لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أُحضِر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب

الشخص شيئاً أحضر. وخُبز هذه المدينة نظيف ظريف إلا أن ماءها ثقيل الطعم
كما قلت: ٢٦ /

ولله يوم أودسا وطودها نطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها ولكن طعم الماء ليس به حُسن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح ، وليس فيها نفسها ماء عذب ، إنما يجلب
إليها من آبار أو عيون ، وتارة يشربون من الصهاريج المملوءة من المطر والعيون
البعيدة بنحوست فرست - يعني فرسخ - روسي كما يأتي بيانه ، وسبب حلاوة ماء
العيون أكثر من ماء الآبار دائماً ترى العربات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء ،
ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعنا ، فوجدناها منشورة على أخشاب
معطرة مبخرة ، ومحل الكرنيتينة نظيف ظريف ، وهو قسمان : قِسمٌ لمن ألم به
الطاعون ، وإذا مات فيه أحد أُحرق هو وأمتعته ، وقسم لغيره . وهناك المروج ، فكنا
نتفصح فيها وننظر السفن الواردة والذهابة ، وإنما لم يكتفوا بكرنتينة اسلامبول لأنها
جديدة غير شاقة ، فيظنون أنها غير كافية ، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك
خصوصاً من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية ، بسبب إخفاء بعض
البضائع ، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنيتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنيتينة ، وأما أنا
فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة الحلف بالإيمان المغلظة التي منها
الطلاق ، فقلت : لأي سبب هذا الحلف ، هم قلعونا الثياب ، وصرنا عرايا بين
أيديهم ثم بخلوا الثياب وردوها لها (لنا) . ففي أي شيء نخون الكرنيتينة ، فقليل
لي : الروس وكل الفرنج يخافون جداً من الطاعون ، ومع كل هذه الاحتياطات
فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء ، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون ،
فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة .

وانحليف كثير عن الروس ، فيُحلفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن
يكون أميناً للقيصر وولي عهده ، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد ٢٧ / القيصر

يحلفون عند بلوغهم الحلم . ولترجم هنا ما ذكره بعض مصنفى الروس في ظهور الطاعون أيام كترين الثانية سنة ١٧٧١م قال : « هذا سوط غضب الله النازل من مملكة الترك إلى الملية المجاورين لهم في وقت زحف الروس على بغداد وبلاد الافلاق » ، ومع وجود الكرنتينات التي رتبت في روسيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز ، دخل الطاعون في وطننا وانتشر في ٣ كانون الثاني ، وفي ٩ من ذلك الشهر دبوا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط ، وفي الأثناء الكبة ، افترست الأخطاط الجنوبية الغربية من روسيا ، وبسبب ذهاب العسكر إلى اللين والترك كان غير ممكن إحاطة القرى البوائية . ولهذا أخذت المملكة أولاً في عمل الوسائط التي توقف هذا الحادث وتقمعه ، فانتخبت ابعاد سليم العيال من مربعاها ، وإبقاء المرضى في البيوت ، ويعطى لهم من الشبايك الأقوات على الميري بعدم الملامسة وكثرة الاحتياط ، وعلى تقدير موت المطعون يهدمون بيته ويحرقونه هو وأمتعته ، وهذه الوساطة كان معمولاً بها في المدن فقط ، وبسبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسبب عن عدم تصديقهم بنفع هذه الوساطة انصب الطاعون كالسيل المهلك في روسيا متقوتاً بالوف من القرابين ، ومنتقلاً من محل للآخر وقبله الأخبار المهولة التي أيست الروس من الحياة ، فقط الهلع والأنين يسمعان حيث الهدوء والسعادة المقترنين عن قريب قوماً معيشة الروس تحت حكم كترين الأخيرة ، وفي الآخر أسوار موسقوما حمتها من الضيف الملعون الجالب الموت ، ففيها كان ظفر الموت الساكن ومنظر الجهل ، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا ، لكن لومهم لازم أولاً لتعلم الذرية » . وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسقوب ، ٢٨ / بل من بلاد الفرنج ، وهي جديدة العمارة من منذ خمسين سنة ، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة ، وكل وقت تزيد ، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية ، كثيرة التجارة والامتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب ، بسبب انه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيباً للمسافرين في الوصول .

والمنهل العذب كثير الزحام ، فلذلك تراها مملوءة بعربات المتجر ، وقل أن

تنفك إلا في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد
الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل لسان بسبب كثرة الغرباء، وزيادة على ذلك،
إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغربية كالفرنساوي والنيمساوي
والإيطالياني، فلذلك فرض عندهم في التربية خصوصاً لبناتهم. وهواؤها معتدل في
الغالب، ولكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة البضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من
طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح والأمطار بها قليلة، لم نرها إلا ثلاث مرات مدة
الكرنتينة، ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير الجو
كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كالأعمدة، وتارة كالمشاعل، فتذكرت
إذ ذاك حريقة مير الخليج في مصر، وكانت الأيام طويلة أكثر من مصر، فكأن النهار
أكثر من ستة عشر ساعة، وهكذا كلما بعد الإنسان جهة الشمال كما تذكر في أيام
بتربورغ وقد قضينا هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر
والسفن فلا عيب فيها، إنها تعد من العمر كما قلت:

وأيام على أيام مصر تطول وغينها عنا مُحجَّب
٢٩/ولست أرى بها عيباً سوى أن تعد عليّ من عمري وتُحسب

واستمررت على تعلّم لسان روسيا مع صاحبي، وحفظت بيتين بالروسي
مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتها:

الوداع الوداع ثم وداعاً يا بلادي وعزتي الأقربينا
يا بلاداً من أسعد الأرض فيها أنا قضيت بالمسرة حيناً

ثم عند خروجنا من الكرنتينة جاء حكيم آخر ونظرنا، ثم توجهنا إلى ديوان
الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسلوا الكتب إلى محل آخر ليتمتحنوها،
وهكذا يفعلون في كل الكتب والجournals الواصلة في روسيا، لا بد من عرضها
على محك البحث، ومنع ما لا يناسب منها، ولهذا ترى في الجournals بعض
عبارات ممحوة بالسكين، ثم بعد ذلك أخذت الكتب، وسكنت في موضع معد

للغرباء متسع نير، وكل هذه المواضع التي للمسافرين كذلك، وكذلك البيوت وطرقها واسعة جداً، دائماً يسمع قعقة العربيات ليلاً ونهاراً، وفيها منتزه على البحر يسمى «البولوار» وهو أربعة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسيح خصوصاً في العصارى، وخصوصاً في اليوم الذي يلعب فيه بالموسيقى مثل يوم الأحد، وفيه دكك لطيفة مثبتة لاستراحة المتفسيحين، وعند طيب الهواء ليلاً تذهب الناس وتجلس هناك على السلالم الكبيرة الموصلة للبحر لاستنشاق الهواء، وقد ذهبت هناك في ليلة سكن بها الريح واستروح بنسيمها العليل كل قلب جريح :

وطاب لي النسيم فرق حتى كأنني قد شكوت إليه ما بي

فجلست هناك أنظر للبحر الأسود، وكان هادياً، وإلى القمر وهو ٣٠/ كحساء
تارة تحت برقع السحاب، وتارة يلوح بادياً :

والبدر مثل جميلة تاهت على عشاقها فترقبوا الميعاد
فيروح طوراً تحت سحب براقع ويلوح طوراً حبذا إذ عاد

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولوار صورة رشيلي حاكم أودسا السالف، ماداً يده إلى البحر، وواقفاً على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشياء نافعة للمدينة كأنه منشؤها، والعادة ببناء آثار لحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئاً عظيماً خارجاً عن العادة. وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما يأتي، فلم لا نعمل آثاراً لأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين؟ وليس لازماً في الأثر صورة حتى يقال إنها محرمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبالجمل فعمل التصوير علم نفيس يحكي لك الأجيال، ويريك أباك وأهلك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلم لا نشتغل به لتشحيذ القرائح القريحة، وتعليل النفوس الجريحة، مع الخروج على الحرمة، إما بالاقتصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؟ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على التعلم شيء آخر كما قيل :

تَعْلَمِ السَّحَرَ وَلَا تَعْمَلْ بِهِ الْعِلْمَ بِالشَّيْءِ وَلَا الْجَهْلُ بِهِ

وقد كتب لي مسيو فرنيل في مكتوب ما نصه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير». فكتبت إليه: إنني ما كتبت شيئاً من شأن الصور لأنني رأيتها في مصر. وأحدثت ٣١/أول مرة تعجبي واستغرابي حتى قلت:

وصورة حُسن قاتلَ الله مَنْ غدا
كَلِفْتُ بِفِيهَا إِذْ بَدَتْ غَيْرَ أَنِّي
يَصَوِّرُهَا مَا بَالَهُ كَيْفَ يَفْعَلُ
إِذَا رُمْتُ تَقْبِيلاً فَمَاذَا أُقْبِلُ
وقلت أيضاً:

وصورة حسنٍ أبدع الدهرُ شكلها
توهَّمَهَا مِنْ عِيَّةِ آدَمِيَّةٍ
إلى أن تعدَّى طورها لبَّ جاهلٍ
ولكنها قد أوتيت عيَّ ناقلٍ
فنهنتهم فاستبدلوا الغيَّ بالهدى
فكانت لدى الشيطان أقوى الحبائل
فقولهم زور شبيه بصادق
وزجري لهم حق شبيه بباطل

فكتب إليّ: إنه انسرّ من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن تقال في التصوير، وإنه وجد إنساناً عشق تمثال العذراء عشقاً حقيقياً حتى عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة، معدن هذا الفن التي رنّ فوقانها وطن، وفي آخر البولواربيت الأمير فرانسوف حاكم أودسا - وما صاقبها، وما قرب منها مثل بلاد القرم إذ ذاك، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبشر، وفرّجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة بالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكالٌ منوعةٌ تلهي نفوس الأناسي عن أمانيتها
على وفاق الهوا فوق القباب بدت فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع فأخبرته ، وهو محبب في هذه المدينة ،
كأنه أب للناس ، مجتهد في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس ، وقد عيّنه القيصر
وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس ، لما رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا
يدخل في باب الحجر والتفليس .

٣٢/ وفي وسط المدينة جنينة كجنينة روستق بمصر ، إلا أنها كلها طرق ، وفيها
معمل للماء المعدني ، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل
على حسب علته ، وتتفسح هناك في خلال الشرب . وهناك في هذا الوقت موسيقى
في بعض الأيام ، فلهذا يأتي ناس آخر غير المتداوين للتفسح . وعادة الأوروبيين
أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر ، فيشربون كل
يوم مقداراً معلوماً كما يأمر الطبيب ، منهم من يشرب أربع كبايات ، ومنهم أكثر ،
وبعد شرب كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة ، ثم يشربون أخرى وهكذا ، وربما
سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني ، وبعضهم يتداوى
بالاستحمام في البحر ، ويذهبون لأجل ذلك ، وبعضهم يتداوى بالامرين ، ومنهم
من يتداوى بشرب الماء البارد الطبيعي كما في غريفين بوج من بلاد النيمسا ،
وهناك يتداوى تقريباً من جميع الأمراض بلا عقاقير . وفي خارج المدينة حديقة
كبيرة ، تسمى حديقة النباتات ، تذهب الناس إليها فراراً من غبار المدينة وحرها ،
وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيام الصيف ، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار
خارج المدينة ، فمررت بين صفوف الأشجار ، فكان الهواء ألطف مع قرب المسافة
بسبب عدم كثرة الأبنية . وأما في بتربورغ ، فلكثرة الأبنية خارج المدينة غالب
النواحي حارة ، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد ، وفي خارج المدينة أيضاً
مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والخياطة
والنسيج ، ونحو ذلك . وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة ، فقابلتني ٣٣/ مديرتها
بالبشاشة ، وفرجتني على جميع أوض الدروس وأوض الطعام وأوض النوم ، وكلها
نظيفة ظريفة ، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة ، ومن حيث أن نساء

الأوروبيين وبناتهم يحضرون المجالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مُهذبة أخلاق الرجال، مُلطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء، فبكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدباً في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصر، إنما هي مخازن ودكاكين منظمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجار، في غاية اللطف فهذه التسمية مجازية، فتذهب الناس هناك في العصاري، ويتحلون ويتبردون، إذ هناك الحلوات والمبردات ونحو ذلك. وبالجملة فممتزحات أودسا تشرح الصدر والفؤاد وتنسي الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشئ عن رفاة البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المُثْرِين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغربني وتحقق النظر بي خصوصاً النساء، لأن لباسي عربي بالكُلِّية، خصوصاً لما كنت أركب العرب، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر، والخيول باسلامبول، وقلٌّ مَنْ يركب الخيل، فعمّ النظام، وكل عربيات الركوب بالخيول، وأمّا عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران اسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأمّا الحمير فإنني رأيت بها أتاناً تجري في مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر، ولم أجد هناك مَنْ يتكلم بالعربية أولاً كما قلت:

إِنْ جُزَتْ مملكة الفرنج تجد بها ما تشتهيهِ النفس من أمنيهِ
٣٤/ لكنما العربيُّ في طرقاتها مُستَغْرِبٌ يبكي على العربيهِ

فيه تورية باللغة العربية.

لم يلقَ فرداً عارفاً بلسانه أبداً ولا هو عارف الروسيهِ
هو ساكتٌ إذ لم يجد عرباً بها لكنه متكلمٌ بالنيهِ

ثم بعد ذلك رأيت بعض فرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني بالعربية، وقد كلمتني بئتهم في وسط البولوار، ثم قالت عند الذهاب: اقعد بعافية - على عادة

نساء مصر - فقلت حينئذ:

أمرضتني عيونها
مع هذا لسانها
وهي إن تبغ شافيه
قال لي اقعد بعافيه
وقلت أيضاً:

فتاة من الافرنج تنطق بالعرب
لباقة ألفاظ وسحر لواحظ
ترئت بمصر بلدتي ولقيتها
وقالت بلطف بعد طول تحدثت
فقلت لها إني فديتك راحل
فتطربني ألفاظها غاية الطرب
وغير كنظم الدر أحلى من الضرب
غريبين في مرسى أودسا فيا عجب
بعافية اقعد سليماً من العطب
غداً وفؤادي قاعد عند من أحب

وصادفت في منتزه أودسا فتاة افرنجية ببرنس عربي ، فذكرت بلادي التي فيها
أثرى الأنام من الصبوة واللهو والصبا والمجون :

كان عيشي بها عزيزاً فلا غر
و لعيني تبكي بماء مهين
وقلت:

في أودسا بدت حسان الغواني
وأرى بينهن فوق فتاة
أتراها بذلك اللبس ترمي
٣٥/ فيها قد نسيت وحشة بُعدي
أذكرتني بمصر كل رشيق
ونضته من بعدما عَلِمَتني
ظلم الردف خصرها مثل ما قد
سجننته بين النطاق أسيراً
هو بعض منها وما رحمته
يتبخترن في ثياب الجمال
برنساً من ثياب عرب الرجال
لسلامي بغاية الآجال
وكأنني بذاك بين الأهالي
يزدري لحظه بعين الغزال
عاشقاً والهوى قرين الدلال
ظلمتني ولم تجد بوصال
مثل أسرى لقدّها الميال
كيف يرجو الغريب رحمة قال

وأنا ميت بحية صدغيها م سليم لكن بغير قتال
ليس إلا اللحاظ في وسط البد وار يسطو على النهي بالنزال
وعيونني تنزهت فجنت لد قلب حتفأ أمضه بالنكال
آه من عينها وعيني وآه من جفاها وصدها المتوال
يا أودسا رفقا بطل غريب واسترى كل طفلة في الحجال
وقلت أيضاً:

تبرنست في أودسا عادة حسنة من الفرنج نفت عني الكرا وسنه
فهل تشير إلى أنسي ببرنسها وانها مع مثلي تفعل الحسنه

وفي أودسا مارستان للمرضى ، وبيت لليتامى ، وفيها التياتر بالإيطالياني كتياتر
مصر، إلا أن البنية شاهقة ، ذهبت إليه مرتين ، الأولى أظهروا فيها السلطان محمد ،
وأظهروا اللاعبين بعمائم كالمسلمين وصوّروا إحراقه البلاد ، وحين خرجت وجدت
المطر ، فقلت : «هربت من الحريقة وقعت في المطر» ، ولم يكن هناك متعمم
غيري إلا اللاعبين ، فهل أنا منهم ؟ لا ، ويقصدون بذلك تعليم الناس أخبار الأمم
وأحوالهم ، فهو في الحقيقة درس أدب ومغني طرب ، يقول لسان حاله :

يا مغرقاً في أدب الدرس أفضل منه أدب النفس

٣٦/ والثانية أظهروا فيها متدلّهة من العشق وعاشقها ، ولا شك أن هذا يكشف
عن القلب جلد الخشونة والغلظة ، فبالجملة التياتر كما قال ابن عطاء الله : في
الدنيا ظاهره غرّة ، وباطنه عبرة ، وكما قال الآخر :

ليس شيء إلا وفيه إذا ما صادفته عين اللبيب اعتبار

وفيه خانات مُعدّة للطعام ومع غاية الإحكام في البناء والنظافة وعندهم قائمة
بما يوجد من أصناف المأكولات فيطلب الشخص ما يريد ، وقد يتفق أن جماعة

يذهبون معاً للأكل، وكل ما يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي في هذه
المواضع نساء حسان يضربن بالقانون فلقد أشغلني حسن صورتهم عن حسن
صوتهم، وتذكرت قولي سابقاً:

ليتني للسمع ما كنت أشتا ق ولا كنت مولعاً بالملاح
إن عيشي يمرّ في اللهو والحز ن وعيش الغبيّ في الأفراح

ومعهم بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل من أعطاها شيئاً سلمت عليه
بكيفية جميلة، وهذا نوع من الانحناء يسمى «ريفيرانس»، فأين صورة هذه النساء
المكشوفات الوجوه من صورة من يضرب على القانون في مصر من عجائز الرجال.

تنبيه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إما من الاتفاق على كلمة
أو استعمال اللفظة الفرنسية وتعريبها، والروس دائماً يستعملون كلمات
فرنساوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع وجود كلمة روسية، لكن
استعمال الكلمات الغربية اللطيفة، وهذا كما تستعمل الكلمات العربية في
التركي والفارسي، أو الكلمات الفارسية والتركية في العربي، وأما ترجمتها
بعمل التمني فلا يناسب؛

أولاً: هذه الكلمة للسلطين والباشوات والأمراء. ثانياً: عمل التمني باليد،
والريفيرانس بالرجل وبينهما بون بعيد.

٣٧/ وقلت مخاطباً لبعض أحبائي بمصر وأنا في أودسا:

يا حبيبي بمصر ما لك تنسى ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا ر وما في الوصال قطع مرسا
«تورية بشهر مارس الا فرنجي»

جاز بحر الهوى الأجاج وقاسى فوق قيس عشقاً وضعفاً ونكسا
ثم أضحى الهوا لديه حميداً فتراه في دولة الترك أمسى

عاش فيها فوق الخليج زماناً في التذاذ ما فيه صادف بوسا
ثم أجلاه دهره وهو خصم عند مُشَوّد بحر شدة فتحسى
ويرى البحر كالسماء ولا أر ض يراها أفي السموات وأمسى
ثم طاب الهواء وأحسن لي الدهر ر فأرست عند سيف أودسا
بلد تلتقي إذا كنت فيه منزلاً واسعاً وخصباً وأنسا
فيه تمشي الولدان والخور زهواً في جنان النعيم صباحاً وأمسا

ثم إن أودسا تسمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسم محل فيها إلى الآن .
ولما رجعت إلى أودسا وجدتها زائدة العمارة، حسنة الشارة، فهي كل يوم في
ازدياد، إلا أنني دخلتها في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنساني خماسين مصر،
ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيدروف النائب مناب الأمير فرانسوف،
تلقاني أيضاً بغاية البشر، فقلت :

لِمَ لا تقتدي أودسا بأهلي ك فتلقيني بأحسن بشر

ثم إن علماء الجغرافيا قسموا روسيا إلى أقسام : روسيا الصغيرة، والروسيا
الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقد انضمت إلى
روسيا ممالك أخر دانت لها، وانقادت كمملكة اللين والفينلاندا والجرج وغير ذلك
كما سيأتي .

٣٨/ ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء ٢٢ أيار في عربة اشتريناها ومررنا على
ديوان الجمرك الذي مررنا به أولاً، فنظروا العزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع
رصاص ثم ختموها وأرسلوا خفيراً معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذهاب
من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى
أول محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلا إذا
رأوا ورقة مسماة البيدروجين، أو تذكرة المرور، لكن إذا لم يكن بيدروجين لا

يلجأون إلى إعطاء الخيل، ويأخذون مهما أرادوا من الكراء، ومع البيدروجين يلجأون إلى إعطاء الخيل بالثمن المقدر، وتلك الورقة منشنة وعليها نشان القيصر، فبغير ورقة لا يمكن السفر، فهي كالحارس للإنسان، وذلك أن تعطي الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصل بعض شيء يكون التفتيش سهلاً، وهذا البيدروجين تارة يشتري، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها، هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق إثبات الولادة، والتعميد والتزويج، والعق، والقسم، وغير ذلك لا تكتب إلا في ورق منش بنشان الروس وثمانه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأول ما دخل ذلك في روسيا ٢٣ كانون ١٦٩٩م بأمر القيصر بطرس الكبير، وكان الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين ٣٩/ في أيام بطرس، وبقي الأخير على حاله زماناً طويلاً، وأما الآن فارتفع الثمن جداً، فمن سنة ١٨٤٠م إلى هذا الوقت ثمن النوع الأول ١٥ كبيك فضة ٣٠ ثم ٦٠ ثم ٩٠، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، الأول ٩٠ لما قيمته من ١٥١ ربل إلى ٣٠٠ ربل فضة، والثاني ربل وثمانون فضة، لما قيمته من ٣٠١ ربل فضة إلى ٩٠٠ ربل فضة، وهكذا إلى الرابع والعشرين فقيمته الكاغد المنشن ١٢٠٠ ربل فضة لما قيمته ٣٠٠,٠٠١ فصاعداً، وللتمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصد ذكر أنموذج من كل شيء. فأعطينا البيدروجين وأعطي لنا خيل بالأجرة المقررة لكل فرست كبيك ونصف أو أكثر بحسب المواضع، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة، وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفرست يعني فرسخ، والفرست الروسي خمس مائة سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست

عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذهاب والباقي من المنزل، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عموداً مبنياً من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب جيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذه الغاية نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول. وفي كل منزلة أفراس بالأجرة إلى المنزل الأخرى، فكنا نغير الخيل في كل منزلة، فتارة نأخذ أربعة وتارة أكثر بحسب المنازل سهولة وحزونة، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والصحو ٤٠/ والغيم سيان، فلا مانع أبداً ولا خوف في هذه الطرق التي هي صحارى بلا أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأة وحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب وليس بلازم للمسافر في بلاد روسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين هذه السنة إلى بتربورغ أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق، ففتش عليها وأرسلت له في بتربورغ. والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوتها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت حقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نهر دفين، وبالمروج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس، وأعجبني هذه الكيفية المسهلة للأسفار. ووددت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبني رعي عجول البقر الصغار وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذاً في تلك الغيطان والأشجار التي تنقطع حتى قلت:

أبصرت إذ جزت على روسيا	أشجارها بالحسن مغبوبة
تدمشقت من حسن جناتها	على دمشق الشام والغوطة

وقلت:

لو الحريري أبصر الروسيا لقال فيها جنة الدنيا
أو عدها أول جناتها لكنه لم يحظ بالرؤيا

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم ، ثم اعتدت عليه ، وهي أسهل المركوبات
بعد السفن على أنها ٤١ / سفين بر الفرنج كما أن الإبل سفين بر العرب كما قلت :

وألذ المركوب ما معه يسهل إذ ما تروم الرقاد

وقلت كذلك :

عربية العربي جرّ ته إلى تلك البلاد
فيها مشاربه صفت وبها أتيح له المراد

وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط ، وقد اتفق أن السماء أبرقت
وأمرت في أول السفر ، فقلت :

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها رفعوا برانطهم لأجل سلامي
حتى السما حيّت ببرق ضاحك والأرض رشّت ساعة قدامي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل ، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علة في
الواقع ، كقول آخر :

وما نزل القطر إلا لكي يُقبّل بين يديك الثرا

فإنه من البيتين ، أن علة نزول القطر وسبب البرق ليست إلا التحية والإكرام
والتقبيل ، وهذا من التلاعب بالكلام .

ومررنا على أنهار كثيرة أولها نهر بوخ ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف يجر
بحبل كمعدية أبيار من قرى مصر ، وقد شربت من مائه العذب عند المرور . قلت :
وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر ، وهناك جبل مخضر في وسط البيوت

اللطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذهبة، وصرت أتعجب من حسن هذا المكان وأقول: ليس في نواحي بتربورغ مثل هذا المحل في طيب الهواء وحسن الموضع. وهناك انسلخ منا جلد تلك العجلة الحديد، فأعطيناها الحداد ليثبتها، ثم بعد مدة انسلخ ثانياً في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهلة ونقول: العجلة من الشيطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان ٤٢/.

ثم وصلنا كيف Keiv يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندريه، وهذه المدينة كانت كرسي مملكة روسيا أولاً وعليها آثار القدم، وهي مقدسة عندهم، بها كثير من جثث قسيسهم المقدسين يزورونهم في الكنائس، ولهذا كثيراً ما يحجون إليها كما إلى بيت المقدس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل أيا صوفية وقد طلعت على كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة وهي كثيرة الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينيبر Dnieper، وهو من أنهار روسيا الكبار، ويتصل إلى موهلوف Mogilev، وحولها غابات كثيرة ترى سوداء من بعيد، وقد رأيت فيها النظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقلب أرجلهم كال موج وقلت:

لا تعجبوا إن كان أهل روسيا أسد الحروب فأرضها غابات
إن فاتني في مصر أحسن روضة فلدى بلاد روسيا جنات

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعة حول القلعة إظهاراً لقوتهم، وإشعاراً بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية ومتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرباب الجلال، قد تدنس فسطانها فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك:

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها قلبي فها هو مرتج على الكفل
ورفعت بيديها الذيل من طبع أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
وبدلته سريعاً وهي قائلة هذا جزاء الذي قد راغ من قلبي

ولما رأني أديم النظر إلى حسنها ، سمحت بإرسال رسول الصفا ، فقلت وقد
عراني انقباض وجفا :

٤٣ / مذ أرسلت ديوثها لي عفتها خجلاً وقلبي بالعيان قنوع
وأبيت حسن وصالها مع حبها إن المحبة بالوصال تضع

فكان قلبي سلك طريق سليك بن السليكة القائل :

يعاف وصال ذات البذل قلبي ويتبع الممنعة النوارا

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال ، صارت تجري أمامي محلقة
على دجاجة بيدها فقلت :

صادف فؤادي عند كيف رشيقة سحرته بالنفثات من شفيتها
قد سرت عنها وهو باقٍ عندها بث الهوى الإيماء من عينيها
دجت على أثر الدجاج وحلقت نحو الأمام برفعها ليديها
فكان ذا منها عناق مودّع لما رأت أني أميل إليها

ودائماً تسمع في كيف دق الأجراس ، وكذلك سائر البلاد ، فإنها مشحونة
بالكنائس خصوصاً المدن ، وقلت مكتفياً :

وسامرتها والليل مُرخٍ ذيوله علينا كأننا قاضيان على الهوى
ومذ سمعت صوت النواقيس هرولت تصلي فراغت مهجتي ضربة النوى

النوى : مختصر من النواقيس ، وهذا هو الاكتفاء . أو بمعنى البعد ، ولا يحسن
الاكتفاء إلا إذا اشتمل على التورية كهذا ، وكقولي :

شكوت للمحبوب نيران الجوى بكبدي فماس تيهاً وقللا
وقال لي أنت الخليل لي فلم لا أصبحت عليك برداً وسلا

فإن سلا إما مختصر من سلاماً أو فعل من السلو، وعلى ذكر النواقيس قال
الحاجري:

مذ قام يضرب بالناقوس قلت له مَنْ عَلَّمَ الطَّيْبِي ضَرْباً بِالنَّوَاقِيسِ
وقلت للعين أيّ الضُّرب يؤلمكي ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وعليه مؤاخذه أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقه أن ينسبه ٤٤/ للقلب،
وكأنه قاسه على قرّة العين، والفرق ظاهر، لأن قرّة العين سكونها عن الطماح أو
بردها سروراً، وهذا ناشئ عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء الناشئ عن
حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشئ عنها، فالعين تنظر فيألم القلب فتبكي
العين، فكأنها جوزيت حيث كانت السبب، فاقترسام الحظ مع القلب وبكائها برداً
للسرور وحاراً للحزن، فسبحان اللطيف الخبير، وأيضاً فلا يحسن الذوق الأدبي
إشباع الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضاً فإن ضرب النواقيس من حيث هو
لا يؤلم من حيث أنه بسبب الفراق، كما فعلت في شعري. وعلى ذكر النواقيس،
فلنذكر الناقوس الخالد وهو في موسقوفي حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة
يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلا لم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في
الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات
المشهورة أنه كان معلقاً في نوفغورد (Novgord)، ونقل إلى موسقو وعُلق، ثم لفرط
ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سامة من طول الانتصاب، لكن حقق
بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانياً، لكن بصرف ألوف الرُّبَل، ويظهر كجبل
من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم،
ولهذا يميل لونه إلى البياض الفضي ويلمع، والفلاحون يزورونه في الأعياد
ويعظمونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويصَلُّون. ومحيط دائرته
على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدماً وأربعة ٤٥/ أصابع، وعلوه أحد
وعشرون قدماً وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعاً،

ووزنه أربعمائة وثلاثة وأربعون ألف وسبعمائة وسبعون رطلاً ، وقيمته ستة وستون ألفاً وخمسمائة وستون ليفر ستيرلانسك وستة عشر كبيك ، مبلغ جسيم ، وأثر عظيم يبلى الدهر ولا يبلى . وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية نواقيس يوحنا الكبيرة التي أعظمها أربعة آلاف بود ، لكن يتعجب كيف تقدر الحيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل ، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضروري لصيرورته مصوتاً رناناً . وفي كييف (Kiev) مدارس ؛ منها مدرسة البنات ، وقد أعجبتني في ظاهرها ، فكيف من باطنها ع تعني مثال «الغصين هذا فأين الظل والثمر» . وفيها مواضع كثيرة ترصد فيها الحريقة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء ، وعند بيت حاكم كييف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلوم مع ستر أغصانها لطرق الحائط ، وفيها قلاع مبنية بالأحجار وكذلك بيوت كذلك وبالخشب كبيوت الريف ، وكل السقوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر ، وحكمة ذلك سهولة انحدار الأمطار والثلوج ، ثم خرجنا من كييف يوم الاثنين ٢٧ أيار من باب آخر مقبب ، وهناك عدة قنوات تمر السائلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معدية كبيرة ، وكذلك نزل عربيات وخيل وناس كثير ، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار ، وهناك معامل كثيرة تضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة ثم خرجنا مع العربية من المعدية ، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرئ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

لكنها ليست كبيرة ، بل الأشجار غالبية بحسنها وتمايلها ، وفي هذه النواحي رأيت الفلاحين يحرثون الأراضي ، كما في مصر ، إلا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل ، ومررنا على الغربول (Garbul) ، وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار ، وهناك لما نزلت للاستراحة أحرق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب ، وهكذا في جميع الطريق ، وقد اتفق أني رأيت فتاة

ظريفة الشكل في بعض المحطات، فصارت تنظر إليّ وصرت أنظر إليها، وكان
المطر أحسن إليّ بالوقوف أمامها فقلت:

هيفاء من شباكهها قد رنت	نحوي وقد طار جناح السفر
أحسن شيء راقني أنها	تحب أن أصدق فيها النظر
رُمان نهديها بدا نصفه	والوجه كل الحسن فيه ظهر
لا كعداري مصر يخفين من	حسن المحيا غير غنج الحور
أبدت ثايا بعقيق اللما	قد ختمت لا بعقيق الحجر
أوقفني في حبّها برهة	حتى برؤياها نعمت المطر

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس ٣٠ أيار، وبهذا وضعنا عصا التسيار،
وأقمنا بها مدة ٢٣ يوماً:

دخلنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها دينبير Dnieper ،
وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يوماً حسناً، لأن التلامذة كانوا
يلعبون بالموسيقى، ويغنون، وفي آخر يوم آخر ذهبت إلى المدرسة، وتفرجت على
المغناطيس وجذبه، فذكرت قول الشاعر:

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا فحيثما درت دارت نحوك الصور

٤٧/وقلت:

ما حيلتي في حب غانيةٍ	قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا	لا غرو أن قلبي الحديد صبا

وذهبت يوماً آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي
تحت سقيفة لطيفة تقي من المطر، وكان معنا حسان فقلت:

مضى زمنٌ في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند عين تدفقت فله في أنسي وحزني عينان

وعليّ في تشية العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله :

جاد بالعين حين أعمى هواه عينه فانثنى بلا عينين

مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء . وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة التي عندها مدرسة البنات ، فصرن يجرين نحوي ، وتفرجت على ضرابي الطوب خارج موهلوف ، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم ليناً كما في مصر ، وتفرجت على قاعة كبيرة مسقفة للنظام إذا كان المطر ، وهي مثل قرا «ميدان» في مصر . وذهبنا إلى الزروع وبتنا في الضياع ليلتين ، ووصلنا إلى بون ، ورأينا عندها عيناً تجري تنبع من الرمل على وجه الأرض ، وقد وضعت فيها عصاً كانت معي فدفعتها قوة الماء ، وهي محفوفة بكثير من الأشجار ومبني عليها حاصل صغير . فله تلك العين ومنظرها الذي تقرّ به العين ، ويسهل فيه إنفاق العين كثرة العيون ، وتفرجنا هناك على صيد السمك من النهر الخارج من تلك العين ، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جداً ، فطأطأت رأسي لكي يسهل عليّ به التجديف ، وقد استحوذ عليّ شيطان البق في إحدى ٤٨ / الليلتين ، فبت بليلة نابغية . ورأيت معمل القطران ، وشجر البندق ، وغير ذلك من أنواع الزروع كالبسلة والقمح الأسود والشعير والبتاتس ، ورأيت زرع الفواكه كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار ، ولا تخرج هذه الفواكه إلا في الشمس ، فلذلك تقل الفواكه في تلك الديار مع كثرة أشجارها ، فليست كمصر ، فإنها كثيرة الثمار جداً من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين برشوفي وبلح أحمر وأخضر وأصفر . إلخ وقثاء ، وخيار وقاون وتفاح وموز وبرتقال وقصب السكر . وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين ، ومن الخضار كالمولوخيا والبابايا والقلقاس ، وذلك لا يوجد في هذه البلاد غير ذلك مما لا يحصى مع رخص السعر جداً ، فلذلك قلت :

لله مصر وحسن تربتها ونيلها بل رياضها النضرة
إن كانت الروسية نمت شجرا فإن أشجارها بلا ثمره

إلا أن الفواكه تحفظ كثيراً في هذه البلاد، فالعنب لا ينقطع أبداً من بتربورغ،
والبرتقال يمكث فيها غالب السنة، وفي موهلوف رأيت كثيراً من البنات الصغار
يلعبن بالقانون، ويرقصن عليه ويغنين، فقلت حين أطربني ذلك:

هويت افرنجية طفلة تبرقعت بالحسن والذل
تلعب بالقانون حيناً كما تلعب بالقانون في وصلي

وقلت:

بعدما أطربت بشدو لحون رقصت مرة على القانون
وتثنت في رقصها وتهادت فتبدلت حشمتي بالمجون

ثم بعد ذلك رأيت النساء أيضاً يلعبن ويرقصن من غير ٤٩ / نكير، وهذه عادة
تلك البلاد، إلا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره
بحضرته من غير إحساس بغيره، ويعدون ذلك من الأدب واللفظ، وتقضية الزمان
بالحظ والمسرة، ودائماً محادثتهم مصونة عن غير الأدب، إلا أنه تارة ينشأ من ذلك
العشق والفساد.

وفي موهلوف حمام، وقد استحمت فيه وحدي، لأنني كنت عند صاحبه
فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معاً، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون، فليس معيباً
عندهم كشف العورة في الحمامات، وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامات
مصر واسلامبول المشتملة على عدة مغاطس وحنفيات، بل فيه طشوت وأسطال
مملوءة ماء بارداً وحاراً وصابوناً وأغصان أشجار صغيرة يضربون بها أنفسهم، وهذا
نموذج لحمامات بتربورغ إلا أن فيها حوضاً كبيراً مملوءاً ماء للاستحمام، وفيها
الحماميون يغسلون الشخص بالليف والصابون، إلا أنهم لا يكيسون، وبالجمل

ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أوض من خشب، أو حجر مدفأة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكيس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشيعنا أقاربه وأصحابه بعض أميال ودّعونا، فكان ذلك الوقت مشبهاً لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

لله أيام تقضت بالصفاء في موهلوف
كم من حسان أبصرت عيني وكم خلّ ألوف

٥٠ / لا تنكروا زرق العيون فهكذا نصل السيوف

ثم جزنا في الليل على قرية صغيرة تسمى اسكندرية، وقد استحوذت شياطين الحريقة على بيوتها، وعند ذلك رأيت أهل القرية محدقين حول النيران، ولا يستطيعون إطفاءها، وقلت ملوحاً بقصة إسكندر ذي القرنين:

ولما بدت اسكندرية سحرة رأيت بها نار الحريقة لا تهدأ
فهل خوف ياجوج ومأجوج قد أتى هناك ذو القرنين يبني بها السدا

وقبل الوصول إليها بدا اللهب، فكنا نظن أنه شفق. فهذه الليلة كانت كليلة ابن بابك حيث قال:

وليلة بت أشكو الهم أولها وبت آخرها أستجذب الطربا
في غيضة من غياض الحزن دانية مد الظلام على أرواقها طربا
يهدي إليها مجاج الحمر ساكنها فكلما دب فيه أثمرت لها
حتى إذا النار طاشت في ذوائبها عاد الزمرد من عيدانها ذهباً

ثم مررنا على فينسك VENESK، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من اليهود

مثل موهلوف وسائر البلاد التي جزنا عليها، ومن بعدها بقليل تقلّ اليهود، فلا يرى إلا محض الروس خصوصاً في بتر بورغ، إذ ممنوع فيها سكناهم، فمن جاء لوقت معين. وبها كثير من الكنائس، وأقمنا بها يومين، وذهبنا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقها الكثيرة الأزهار، ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت صحو كما في غالب الطريق والبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر. ثم في يوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمت الآفاق، وذلك عند القرب من بتر بورغ فقلت:

أنا يا بتر بورغ جئتُك بالب شرّ وتلقينني بوجه عبوس
٥١/ أنت غضبي عليّ أم ذاك تيه ودلال والتيه شأن العروس

ثم بعد برهة بسمت الشمس بالإشراق فقلت:

عند ازدياري بتر بورغ رأيتهما بنت السرور يضمها ابن سحاب
خافت وذا ماء البكاء وقبلها خافتني الأكار لاستغرابي
أو أنها استحيت وذا عرق الحيا والبكر يخجلها لقا الأغراب
ما زلت أخدعها بلين مقالتي حتى تبسم ثغرها لخطابي

وفي قرب بتر بورغ تسارسكيا سلو^(١)، مسكن العائلة الامبراطورية في الصيف، وفيها بستان كبير محفوف بالأشجار المتناسقة والجداول المتدفقة والقصور الشاهقة والأزهار الباسقة والطرق إذ ذاك بين سطين من الأشجار كما في غالب الطرق، فأذكرني ذلك طريق شبرا بقرب القاهرة، إلا أن الأشجار في هذه الروضات أكثر لكن في تلك أطيب وأبهى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهذه طريق العربات، وهناك أخرى، وهي طريق الحديد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفاً وشتاء، إلا أن الصيف أكثر، فتذهب الناس أفواجا للتفسيح هناك والتفرج على ما هناك من

(١) أي قرية القيصر، وهي قرية صغيرة.

العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة، وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفيين بالآلماس أهدهما السلطان محمود إلى القيصر، وهناك بيت للفيل والفيلة، وللأغنام الغريبة، وسائر الحيوانات الغريبة الشكل. ثم من تسارسكياسلو تذهب عربات البخار إلى بافلوسكي - منتزه جميل فيه بستان كبير - وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطئ تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الرياحان. ثم مررنا على الرصد، لكن ما رأيته إلا بعد مع جناب ٥٢/ سفير جوقند العالم العلامة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشراف، وقد شربت معه أفوايق الأدب، واستجلينا عرائس الطرب، ورأينا النظارات المكبرة التي تُرى بها النجوم، ورأينا بالنظارة من هناك هلال كنيسة إسحاق مع بعد المسافة، وما رأيت من السفراء الوافدين إلى بتر بورغ من ذوي الفضل والأدب إلا هو وجناب سفير الدولة العلية حضرة فؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجادبنا كما قال الحريري أطراف الأناشيد، وتواردنا طرف الأسانيد؛ فوجدته تعلمة نقاداً، وألفته روحاً لجسم الأدب، ولا بدع أن سُمي لذلك فؤاداً. وفي تلك السبل صارت الخيل تجري كالطيور، والأرض تطوى كطي الزابور، فتمثلت بقول الشاعر:

وكننت إذا ما جئت ليلي أزورها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
وسبب ذلك أن هذه الطرق مثبتة بالأحجار الصغيرة، وتسمى منعولة كأنها لابسة نعلًا، فما ألطف مشي العربات عليها بخلاف الطرق غير المنعولة، فيعسر عليها مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمادى الأولى، دخلت بتر بورغ:

وكان آخر عهد الطرف من فرح بالدمع أول عهد القلب بالجَلَدِ

الباب الأول

في منشأ الروس

الساكنون الأول في تلك الأراضي الواسعة التي تسكنها الروس الآن كانوا «سكيفي وصرماطي» يعني الصقلب، وكانت تلك الأراضي غابات ملتفة، وغيطان متسعة تسمى الصحارى، لكن هذا كان من الزمان القديم، وكان هؤلاء الناس مساكين لأنهم لا يعرفون الله، ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام، يعني ٥٣/ الصور المصنوعة، ولهذا يسمون الوثنيين، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يبنون المدن الظريفة، ولا يخطون مثل هذه البدل التي نلبسها، ويلبسون جلد الوحوش. وفي الصيف يبنون أخصاصاً بدل البيوت، أو يستترون في الغابات، وفي الشتاء ينحتون في الأرض مسكناً مشابهاً لما يفعله الآن القلموق وسكان سيبير ويسمونه يورطة - أي دويرة المنتجعين -، وفرقة منهم تتقوت بالصيد والأسماك والخبز بصيد، وتحرق الأرض، وتعيش دائماً في محل واحد، وتسمى القاطنين، والأخرى يستعملون للأكل لحم مواشيهم السائمة ولبنها، ولا يقيمون بمحل واحد، ولذلك يسمون المنتجعين، ومع ذلك فسكيفي وصرماطي يعرفون عمل السلاح، ومن الخشب اللان يحنون القسي ويربطونها بالعروق القوية، والحرايب الحادة، والسهام، ويعملون من العظام القوية أو الشطف والسيوف من الحديد، والمجن من الجلود الغليظة، ولمحبتهم الحروب كانوا شجعاناً، لكن قاسين غالباً يتحاربون مع جيرانهم ويقتلونهم ويحملونهم قرباناً لأصنامهم.

وقال الروم وأهل رومة في شأنهم : كأنهم لهم فوق الجسم الإنساني وتحت الجسم الخيلي ، هذا بسبب أنهم دائماً يحاربون على الخيل كأنه طار لهم في الهواء الزغب الأبيض ، يعني الثلج ، وكأنهم في الشتاء وينقلبون ذئاباً وضباباً بسبب أنهم يلبسون جلد الذئاب والضباب ، وحين استأصلت الحروب سكيبي وصرماتي ، ظهر محلهم الصقلب الذين تشعبت منهم الروس ، يظنون أنهم جاؤوا من آسيا ، ومع أنهم أيضاً لا يعرفون الله ، ولا يعبدون الأصنام ، ولم يكونوا قاسين هكذا ، وما كانوا يقتلون أسراهم بل يتخذونهم عبيداً ، وبعد عدة سنين ٥٤/ يعتقونهم . وكانوا أيضاً شجعاناً يغيرون دائماً رجالة ، وعند الحرب يسألون ربهم الموت أو الظفر ، ويهجمون على العدو بصياح مفرح ، وبالموسيقى ، وكانوا مشغولين بالفلاحة إلا قليلا ، وهي تصلح الناس وتمنعهم من أن يسلموا أنفسهم للبطالة التي هي أم العيوب ، وبسبب القوت الغليظ والتعب صار لهم صحة أبدان وقوة وجمال الخلقة ، وكانوا مستقيمين طيبى القلوب ، ولا يكتمون ما في باطنهم ، ولا يحلفون أبداً ، بل يقولون : «أنا أستحي إن لم أفِ بالعهد» ، ودائماً يوفون بوعودهم ، وإذا جاء المسافر في قراهم ، كل واحد منهم يلاقيه بالترحيب ويكرمه في دويرته ويسخن له ماء الحمام ، ويحميه عمن يتعرض له ، ولما رأى اليونان كرم الصقلب أحبوا زيادتهم وحملوا إليهم الذهب والبضائع وقايضوهم على ذلك بالمواشي والجلود والغلة والصوف والعسل والشمع وغير ذلك ، ومن هذا نشأت التجارة ، وصار الصقلب أغنياء ، وهؤلاء البياعون يسمون عندهم الضيوف ، ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن ، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهن ، لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى ، بل يحرقونهم على الخشب ، وفي وقت الحرب يحاربون بقرب أزواجهن لا يستهلون الموت ، وكانوا يؤدبون أولادهم بالقساوة ، ويلزمونهم باحترام الكبار وتوقيرهم بحيث أن الشبان لا يتجاسرون أن يعصوا إن أمروهم ببعض شيء ، والشبان قط لا يدخلون في خطاب الرؤساء المتعلق بتدبير المهام ، وبلا لوم يفعلون على إرادتهم ، ويتميزون بالتواضع

والأدب والإطاعة والاجتهاد، وأكثر الكل محبة الوالدين وتوقيرهما . ٥٥ / وكانوا إلى هذا الحد مؤدبين بحيث انهم إذا تلاقوا مع الكبار دائماً يرفعون برانيطهم بالأدب كما يفعله الآن الفلاحون الطيبون . والصقلب كانوا يحبون الرقص والموسيقى ، إن ذهب أحد منهم في الطريق لا يأخذ معه سلاحاً بل يأخذ معه قيثاراً أو صفارة أو زمارة بالقرب أو نحوها من آلات الملاهي كالربابة ، وليس فقط في وقت الصلح ، بل وفي وقت الحرب عند رؤية الأعداء الكثيرة هم ينبسطون ويغنون الغنوات وينسون الخطر .

أصل ولاية نوفغورد^(١) Novgorod

أصل الصقلب نوفغورد؛ فربح غوستو ميصل روريك أول أمير روسي من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩ .

الصقلب ينقسمون إلى عدة بطون مختلفة الأسماء منهم : صقلب دونا؛ وهم الساكنون على نهر دونا، ولم يكونوا مثل الآخر في محبة الصلح والشفقة والعفة، بل كانوا في الغالب يغيرون على جيرانهم، ويأخذون مواشيهم ويخربون بيوتهم . وفي واحدة من هذه الغارات استأصلوا بالنار والسيف بعض ولايات الروم . وقصر تلك الأرض سأل الاقتصاص من الخان الشمالي، يعني قيصر أواروف الذين جاؤوا في روسيا في القرن السادس من صحراء التاتار في آسيا، لكن بيان الذين حمى نواحي كثيرة من مدة تألب ليعاقب سكان دونا على جفوتهم وغلظتهم، ولما جمع جيوشاً عظيمة ذهب أمامهم وصار ينهب ويحرق الأرض ويهلك الناس، وبدلاً عن حماية الشجعان هم تخلصوا من الغارة واستتروا في الغاب، وكثير منهم ذهب في الشمال عند أجناسهم السعيدة الذين ٥٦ / يعيشون في نواحي سواحل بحر بلطيق، وبحفظهم عفتهم الأولى وشجاعتهم تخلصوا من الأسر أو الرق . والصقلب البلطيقون كانوا أكثر تمدناً من الآخر، وبنوا مدناً منها نوفغورد الموضوعه قرب غدير

(١) انظر، قلفاط: تاريخ بطرس الأكبر، ١٧/١ .

أيلمن ونهر فولخوف، ولهذا يسمون النوفغورديين، ومن قديم كان عندهم قانون بتحكيم الأكبر، فكل عائلة تطيع الجد أو الأب أو العم أو الأخ الأكبر الذي يملكهم ويفصل النزاع بينهم، وله التسلط التام عليهم، وفي الأمور العمومية يحكمون الرئيس المسمى الأشنج، وفي العسكر فوجد أوقوفود يعني صاري عسكر، وكان الصقلب النوفغورديون زمناً طويلاً أقوياء وأغنياء، لكن حروبهم مع مجاورهم الذين كدروا عليهم بفتكات عديدة وبلبات عديدة أضعفتهم في الآخر جداً حتى إنهم دخلوا تحت سلطنة واريغ، قوم شجعان يعيشون على بحر البلطيق في سكاندينا التي هي الآن السويد، وفي مدة بعض أزمنة طردوا واريغ ثانياً خلف البحر، لكن لما رجعوا خالصين منهم وقعوا في ضنك جديد فابتدأوا في النزاع والشقاق والحروب بينهم الناشئة من عدم الطاعة للأكبر والرئيس. وجيرانهم اغتتموا هذه الفرصة وابتدأوا ثانية ينهبون مملكتهم، ويأخذون مواشيهم، ويقودونهم في الأسار. وبالسعادة كان في نوفغورد في ذلك الوقت الأكبر العاقل صاحب الهمة العجوز غوستوميسل الذي يحبونه كلهم ويوقرونه جداً، ولما رجا أن يخلص قومه من ورطة العذاب والضنك الحقيقي، دعاهم في ميدان عظيم، وحقق لهم إثبات قانون الملك يعني اختيار أمير أو ملك، يحكم وحده المملكة، ويقمع البغاة والخارجين ويحميها من المجاورين الوحشيين ٥٧ /، فحينئذ تحزب النوفغورديون أحزاباً منهم، ويس كريفيج، وأرسلوا رسلاً بنصيحة خلف البحر إلى واريغ، يقولون لهم: أرضنا واسعة وكثيرة السكان، ولكن لا ترتيب فيها، تعالوا املكونا واحكمونا، وثلاثة إخوة من أصل واريغ، والروس يسمون روريك وسيناف. وتروفور مشهورون بالأصل والنسب وحسن السيرة، جاؤوا ٨٦٢ بجيشهم العظيم في أرض الصقلب، وروريك ابتداء بحكم نوفغورد وسيناف «بيلي اوزر» يعني البركة البيضاء، في شمال نوفغورد الشرقي مملكة ويس وتروفور أربورسك مدينة كريفيج في الجنوب الشمالي من نوفغورد في مملكة بسكوفسك، فمن ذلك الوقت سميت تلك الجهات الروسية وأهلها سمو «الروس»، والصقلب تمتعوا ثانياً بالراحة والسعادة لأن جيرانهم ما بقوا

يجسرون أن يغيروا عليهم والبغاة والخارجون كانوا مقهورين ، فذات يوم رجل يسمى وادم رجل رديء جداً ، وكان نقم على روريق عدم إباحة النهب والشقاق ، تعصب مع أمثاله من الأوباش ضد أميره ، لكن الله عاقبه فقتل في الحرب ، وعوقب أصحابه كلهم ، وبعد مدة قليلة مات سيناف وترفور وورث ملكها روريق ، وصار وحده ملك روسيا الكبيرة ، وحكم سنة ٨٦٤ مدة سبع عشرة سنة أحسن ما يكون .

أصل ولاية كييف (١) Kiev

سكولد ودير ، الحرب مع الأورام : قد ذكرنا أن روريق لما جاء ، جاء معه جيش عظيم ، وكان في عددهم سكولد ودير رئيسان من رؤساء العسكر ، وهما مولعان بالحرب ، فذات يوم لما اجتمعت ٥٨ / الأصحاب ذهبوا إلى روريق وسألا منه الذهاب للتفتيش على السعادة في الأراضي الأخرى ، وهو خلاهما يذهبان بالفرح بسبب أنهم كانوا كلهم حربيين وأقوياء فذهبا حتى إلى الجنوب ونهبا البلاد التي في الطريق ، ولما وصلا إلى نهر دنيبير نهر كبير في داخل روسيا على الجنوب ، ويصب في البحر الأسود - رأيا على ساحل النهر مدينة فسألا : لمن هي ؟ فأجيبا : بأنها مدينة صقلبية بناها ثلاثة أخوة صيادون ، وباسم الأكبر سميت كيا سميت كييف Keiv ، وكل الأخوة الثلاثة ماتوا من مدة طويلة ، والمدينة تحت يد الحربيين المهولين الخزر ، تدفع لهم الخراج حالاً ، والخزر سكنوا أولاً نواحي بحر كيلان المسمى قديماً بالخزر الموجود بين روسيا والفرس والتاتار المستقلين فحينئذ حكمها سكولد ودير ووعدا أن يحميها من الخزر ، لكن بدل ذلك جهزا السفينة وأجلسا فيها عدة كثيرة من جماعتهما ومن عساكر كييف Keiv ، وركب الجميع من كييف على نهر دنيبير إلى البحر الأسود ، وظهرت عند أسوار القسطنطينية تحت الروم ، إذ ذاك وحاصرها ، والروم رأوا الروس أول مرة مع الاستهوال ، والعسكر لم

(١) قلفاط : تاريخ بطرس الأكبر ، ١٧/١ .

يتجاسروا أن يحاربوهم واستهولوا كثرتهم، والسكان ارتعدوا وظهر هلاك القسطنطينية متحتماً، لكن كان هناك أسقف يحب الخير يسمى «فوطي» أخذ صورة العذراء التي تضرعت نحوها الناس عند الضنك، ورفعها مع الطرب على الساحل، وابتدأ يدعو بقلب مخلص، وجثا هو والأعيان والعوام والعسكر على الركب وسألوا من العذراء الحماية، فحينئذ «فوطي» غطس الصورة في البحر إلى أن هداً القلق، وسكن الضجر وبالبعثة ارتفع غيم ثقيل، وتفرقت عساكر السفينة ٥٩/ وغرقوا ورجع سكولد ودير بعدد قليل من العسكر إلى كييف، وكثير من أهل كييف تركوا عبادة الأصنام واتخذوا دين النصرانية سنة ٨٦٧م، لكن ما زال أكثرهم وثناً إلى زمان فلاديمير، الذي عمّد الجميع وأدخل النصرانية في روسيا سنة ٩٨٨م، والأسقف فوطي أرسل لهم قُسساً يعلمونهم الدين والقراءة والكتابة بحروف تهجي الصقلب المخترعة من بعض أزمنة في مدة الراهبين كيريك ومينوديا اللذين ترجما الإنجيل بين الصقلب في مورافيا، وإنما لم يختار لهم فلاديمير دين الإسلام مع أنه عرض عليه أيضاً كباقي الأديان لأنه لما سمع أن دين الإسلام يحرم الخمر، قال الروسي : لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصبر، وصار ذلك مثلاً . فلذلك ترى العوام يشربون كثيراً خصوصاً في الأعياد، وترى السكارى في الطريق وأيضاً المجاورة للأورام قوته اختيار دينهم لسهولة الارتباط بينهم وبينهم، إذ هم معلمو الروس الدين والعلوم، وفيما ذكرناه هنا كفاية لمعرفة أصل روسيا، ومن أراد بقية التاريخ فعليه بترجمتي لتاريخ روسيا الصغير لأوسترالوف .

الباب الثاني

في بتر بورغ

في بتر بورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعة أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجليدها، وقوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبنى بها وتمر العربات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بتر بورغ وتأسيسها، وتقدم البناء فيها، وكثرة الأشغال، وزيادة سكنى الغرباء فيها، والأهالي وصيرورتها تحت الروسية، وتوسيع طرقها، وحسن إحكامها وتنظيمها وترقيتها يوماً فيوماً إلى وقتنا هذا وفيه فصول .

الفصل الأول

/٦٠

اعلم أن بتر بورغ كلمة مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلد، أو محلة، والعامة تقول بتر وهي قصبة مملكة روسيا المؤسسة في ١٧٠٣ م، تشغل جزءاً من إينغري القديمة، وجزءاً من كاريليا القديمة، يعني الفينلاندا، موضوعة في ٦٥٩، ٣١، ٥ درجة من العرض الشمالي، وفي ٣٠، ٥٩ درجة من الطول من دائرة نصف النهار المأخوذة من الجزائر الخالدات في سهل متسع إلى قسم النيفا في خور فينلاندا، وتمتد على الساحلين، وتشغل عدة جزائر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحه. ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسافة من المدينة إلى

ناحية الشرق، في قبلي جبال دود بروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة مسطحاً مستديراً باعوجاج مجرى النيفا، وبعد ٤٤ سنة من الملاحظات المتعلقة بحوادث الجو، علم أن بتر بورغ ترتفع على سطح بحر بلطيق بمقدار ٨٥٤١ م أو ٥٩٦٢٩ قدماً إنكليزياً، والأرض كثيرة الجزائر، وهي عموماً دسمة ومهترزة، وتحت سطحها السبخي يوجد راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة، وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧ م، وحاسبه القولونيل ترليتسكي، حسب أيضاً أن موسقو تحت جدران كريملان ترتفع بقدر ٦٢١٨٤ على النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حل بنواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عموماً ضعيف، وذابل، ومن المنتقعات تنبت ٦١/ أشجار قصيرة متفرقة مثلاً، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيداً آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور محزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتقعات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تسبق في كل موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاثفة والخضارات تنجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ، وفي سنة ١٧٧٣ م اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفافنج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قيل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلا بملح عادي قليل جداً، بحيث لا يحس به وأيضاً ماء النيفا معروف بأنه من أصفى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخلصان المدينة بسبب البالوعات التي تلقى فيا وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالباً مكدرًا ومحتويًا على بعض مواد مضرّة بالصحة خصوصاً في الصيف، ففي مقابلة ذلك ماء النيفا في كل فصل شراب زلال

للسكان، عذب بارد شفاف، إلا أنه للغرباء سهل أول الأمر، كما قلت في
المفاخرة بينه وبين النيل مشيراً لذلك :

من قاس بالنبي نهر نيفا ولم يذق حلوه وعذبه
عندي عليه دليل ذوق هذا شراب وذاك شربه

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشئ من الخلجان،
ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ فرست، وسطحها ٦٢/نحو ١٨٠٠,٠٠٠ سجين
مربعة، وطولها ٦ فرست من ركن حارة نارفا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير
أسمولني، وعرضها ٨ فرست من الحاجز الموسقوي إلى ساحل النيفا الأيمن أمام
جزيرة ابوتيكيير أو جنينة الصيدلانية ونصف المدينة تقريباً محدد بالنيفا وخلجانه
الأصلية، وربما محدد بمياه الخور، والباقي يطل على القرى والمدينة مكشوفة
بحيث ترى من كل طرف ولها وسائط قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي لوضعها
الشمالي، وفي قعرها الصعب يحدث في الهواء تغيرات متواترة شديدة، لكن
أصل الهواء صافي والرياح مع شدتها تهب دائماً وخصوصاً من الشرق تبرد حارات
بتر بورغ العريضة، وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتفعات
المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣,٠٩، والرياح الغربي هو الغالب،
والرياح القبلي الغربي بسبب الغيوم والرياح الشمالي الغربي مصحوب في الصيف
بالصحو، وفي الشتاء بالنشوفة والبرد، ولوحظ الطقس المتوسط في سنة ١٨٣١م،
٢٩٦، وأيام الغليني نادرة جداً، عدت في سنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سنة ١٨٣١م،
١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سنة ١٨٣٠، ٦ مرات هبت على ٦ مرات من
قبل و (١) من قبلي غربي و (١) مرة قبلي شرقي و (١) مرة من الشمال الشرقي،
وفي سنة ١٨٣١م كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة قبلي غربي، و (٢) مرة قبلي و (٥)
مرة الشمالي الشرقي و (٢) غربي.

والعادة أن النيفا يتجلد في تشرين الثاني، وفي ١٧١٨م في مدة ١١٤ سنة ما

حصل إلا ٢٤ مرة، إنه تجلد . ٢٠ و ٣١ تشرين الأول، ومرة حصل في ١٨١١م، ١٦ تشرين الأول، وفي هذه المدة بعينها ما تأخر تحلل الجليد إلا ٦ مرات، ووقت تعويقه في التجلد كان ليلة ١٣. إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٨٢٦م، ويمكن أن يلاحظ أن النصف الأول من نيسان وقت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سنة المذكورة لم يتحلل النيفا أبدر منها من ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلا ٦ مرات، والتحلل الأعوق كان في سنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢م، ١٦ آذار، والعامّة الذين أمثالهم في الغالب من قبيل المكاشفات خصوصاً فيما يتعلق بقطرهم يحددون تاريخ تجلد النيفا، وتحلله بهذا المثل المضاعف «اليوم مار نقوله الماء يحبس»، «وليوم مارجورج القنطرة ترتفع»، وذلك أن يوم مار نقوله صاحب الخوارق، ٦ كانون الأول، ويوم مارجورج ٢٣ نيسان، وعلى ما قلنا يعرف العادي أن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الجمد يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد، وقصر مدة الربيع والصيف فيها، فهل كان هنا أبو منصور قسيم بن إبراهيم الملقب ببرزجمهر حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع :

لقد حال دون الورد برد مطاول كأن سُعوداً غُيبنَ في مناحس
وحجب في الثلج الربيع وحسنه كما اكتن في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيفا، سكان الساحلين المتقابلين المغترقين غالباً عدة أيام بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغيّة والقلق على ساحل النهر كي ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جداً إلى ٨ كانون ١٤/ الأول وكدر الناس ورفعت القناطر مرات حتى كان هذا سبباً لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر ببناء قنطرة مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن على طرف التمام،

حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان النيفا للتجلد، وفي السنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها القيصر أول مرة. وفي وقت اضطراب النيفا بالجليد تأتي الناس أفواجا على الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهر النيفا جليد تراكت جنادله ما بين مُرغٍ ومزبد
فها هو يبكي رعدة وترى الورى يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وفي سنة ١٨٤٤م تحلل النيفا بسهولة عظيمة، ففي ليلة نيسان ابتداء، وفي صبحه عبروا، والعادة أن يوضع على النيفا ألواح كالقناطر ويثبتونها لأجل العبور، ثم إذا تقوى أزالوها، وإذا زادت قوة الجليد مشوا بالعربات.

ولما رتب بطرس الأول منجرة المدينة نسب لها في ١٧٣٠م النظارة على كل أبنية بتر بورغ المخصصة ونتج من هذا أن سلوك النيفا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقاً غير ما أمر به ٧ أيلول ١٨٣١ م، وذلك أن رئيس منجرة المدينة بإشارة لائحة من ساحل الترسانة يذهب من أمام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بنديرة المنجرة المذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريدون يحضرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضاً أو غائباً، فناظر الأشغال المذكورة ينوبه ٦٥/ في زورق بمدفع بنديرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام ورده، يذهب حاكم القلعة منها ببنديرة لائحة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقاة حاكم القلعة ويخبرونه بإمكان العبور على النيفا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أولاً زورق رئيس المنجرة ويتبعه زورق المدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبل المؤخر، وإن كان الزورق القيصري وزورق رئيس الدنما وزورق

وزير البحر في الترسانة، ذهبت لملاقة حاكم القلعة، وتبعت زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة في القصر سلم بطلق ٧ مدافع ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصر ويخبرون القيصر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والإخبار أن بإمكانات العبور على النيفا من الطرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع تبعه إلى القصر بنديرات الزوارق تجذب أيضاً وحيث زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي سواحل النيفا المتخلص من غطاءه البارد وطلق المدافع وشوشة النواتية التي تنزل في النهر، والزوارق التي لا تعد ولا تحصى، التي تمخر في النهر من كل طرف، يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة، وكم من تنظيمات فعلت على ساحل النيفا البديع مرة بعده وأي منظر وأي رونق، وأما في هذا الوقت فيذهب ٦٦/ حاكم القلعة وحده في زورق ويأخذ معه حقة مملوءة من ماء النيفا إشارة إلى جواز الجواز وحيث يملؤها القيصر مجرات، وتطلق المدافع ويبتدىء العبور، وأما تجلد النيفا فليس له رسم الآن، ولكن في أيام بطرس الكبير كان المرور على الجليد متوقفاً على مرور واحد مسخرة من القصر يمر أولاً على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمل راية من القماش، والآخر بأيديهم قوس وحبال وقواديم والشاطيء الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جداً بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدىء تشييته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة، كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادي خشبي، وبعد السطر الأول من البيوت كانت العين تقضي بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنایع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر أيار وزئبق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة

في ١٨٢٦م، حصل في بتر بورغ أمر نادر جداً، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح، لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغير، وكان الصرست درجات، لكن ما دام ذلك زماناً طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيفا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأول فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر ٦٧/ التحليل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جداً حتى إنه في ليلة تنمو النباتات وحينئذ الأشجار تبدأ في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهر بالكلية، وحر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور الصيف الجنوبي، لكن يدوم قليلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك في سنة ١٨٠٢م كان الحر في الظهر ٢٦ درجة، ٦ وفي ١٨١٢م كان ٢٧ درجة ٢، وكان في شهر تموز والزوابع والصواعق عموماً لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادراً فوق المدينة وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جداً، فهي لا ليل ولا نهار وإنما الدغيشة وتباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتر بورغ بدائع وعجائب وغرائب
فالصبح فجر صادق والليل فجر كاذب
فكأنها بضائها الليل منها هارب

والرياح في هذا الفصل في العادة ساكنة والهواء صاف خفيف شفاف حتى يمكن القراءة في كل ساعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسطع شفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمر وأطول يوم في بتر بورغ ١٨ ساعة و ٢٩ دقيقة، ويبقى ٥ ساعات و ٣١ دقيقة مسافة الليل بلا ظلمة الذي نعتناه آنفاً، وإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسراً، ومع ذلك فالمسلمون يصومونه، وانظر لقول أبي الغنائم الرملي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول:

شهر الصيام مبارك ما لم يكن في شهر آب
خفت العذاب فصمته فوقعت في نفس العذاب / ٦٨

والشمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ ساعة و ٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ ساعات وربع، لهذا من أول شهر أيار إلى أول شهر آب لا يوقدون فوانيس الحارات، ولما رأيت أول مرة إيقاد تلك الفوانيس أول آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال قلت:

لله ما أحلى الفوانيس التي مصباحها يبدو كشكل هلال
لولا تعددها لقلت أهلة لكن أقول إذن نجوم ليالي

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثرة لرؤية ذلك أول مرة ثم يتركون. وفي هذه الأيام أوقدوا فانوساً كبيراً كالشمس لإضاءة الشارع الكبير، ولكن إلى الآن ما حصلت نتيجتها المقصودة، وهي الإنارة الكاملة، ولا يستغرب نحو ذلك، فقد رأيت مرة في التياتر تصوير البدر والليل فقلت مَوْرِيّاً:

وفي بتر بورغ غال عقلي تياتر نهاراً فأضحى من صناعتهم ليلا
وقد أحسنوا تصوير بدر بسقفه وما صور الرحمن في أرضه أعلى

وندر تبسم الخريف، بل هودائماً عبوس مظلم محزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسماء المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحل الطرق، فأظن أن أحوالها تقصر عن أحوال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصفهاني فقال:

كيف المسير بنيسابور في الطرق وبيننا أبحر تطمر من الليق
يا حبذا البحر ينجوفيه صاحبه بالعموم أو بركوب الفلك من غرق
ترش منه على أثوابنا لمع حتى يعود جديد الثوب كالخَلْق

كأنما بطنها فيها ويابسها ما اسود وابيض فوق الجلد من بهق

٦٩/ وفي هذا الوقت، الهدوء مضر والحركة لازمة، والرياح الغربي في شهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بغثة فيضان المياه التي في وسطها أسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، حينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو ٢٢، وندر جداً أسفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠م كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون الأول (١ ٣٩)، ومن ١٧٦٦م إلى سنة ١٧٧٠م وصل البرد إلى ٣٣، ويحسن هناك إنشاد قول أبي سعيد الأبي في وصف البرد:

في موضع خفيت به الـ	أصوات برداً في النداء
فالقريق يجمد في اللها	والصوت يجمد في الهواء
نطاً الزجاج من الزجاجا	ج إذا مشينا في فضاء
والجو يلمع في نوا	حيه ضريب كالهباء
وكأنما صقلت به	بيض السيوف أو المراء
جمدت له الصهباء حتّ	ى قد أتك بلا أناء
فإذا أردت خرطت مصك	من رحيق أو طلاء
لو عاين العذرى مشوى	قد رضيت به نواء
أو حلّه ألهاه عن	جر الهوى برد الهواء

وليس بلازم أن تقول أن أقصر يوم في الشتاء مساوٍ لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقدة دائماً، وكذلك البيوت، وقلة الأمطار في الشتاء بسبب الصر الكالح إنما هو الثلج الذي ينزل أول الشتاء فيغطي الأرض ويبيضها فيتزحلق الناس في العربات وينسرون بذلك، ٧٠/ وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض:

كأن نيسان أهدي من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الحُللِ
أو الغزالة في شمس الضحى خَرِفَتْ فما تفرق بين الجَدي والحَمَلِ
ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطر».

ولا قول:

فرأيت الحبيب شَحَّ بوصلٍ مثل ما شَحَّ بالحيا تموز
إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز
كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر:
والجو ما بين تسجال الغمام وتسجاع الحمام وتسجام الشآبيب
فمن هزارٍ على الأغصان مرتجز ومن رذاذٍ على الريحان مسكوب
وقد لوحظ أنه عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين
أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:
وأسنة السطوح السود حازت بياضاً حين جللها الجليد
فهل شابت من البرد الذي لا محالة قد يشيب به الوليد
وقلت:

انظر لأسنة السطوح ح وقد تغطت بالجليد
كبرادة من فضة نثرت على لوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩م، وسنة ١٧٤٠م حين غطت الشتويات القاسية جداً جزائر
خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء
نازلاً في فينيسيا إلى ٢، وفي فرانكفورت إلى ٣، وفي أوبسال إلى ١٨، وفي فيمار
إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥

كانون الثاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠م ما بين ٢٦ ، ٣١ ، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق ، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد ٧١ / المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلا بعمق ثلاثة أقدام ، ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت ، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصباً للغاية ، وفي كانون الثاني ١٧٤٠م بني على النيفا أمام القصر بيت من الجليد طوله ٨ سجين ، وعرضه ٢ وسمكه ٣ مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صب بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في الحال ويلحم الصخور ، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة ، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل ، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر ، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق ، والبيت محوط بحاجز جميل بدرابزين فيه باب كبير ، وبابان صغيران ، وعلى هذه الأبواب موضوع قصارى برتقان أخضر ، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصان الجائمة عليها الطيور مصنوعة من الجليد بغاية الإتقان ، وخارج الدرابزين ٦ مدافع عيار ٣ أرطال مع آلاتها من عجلة ودكة وغير ذلك ، و ٢ هاون عيار ٨٠ رطلاً ، و ٢ دارفيل ، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان ، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة ، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ربعا القائمة بقرب فيل كبير كالعادة فوقه فارس ثالث قائده ، وعلى الشمال حمام معرق دفيء وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا ، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشور المنحوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجرام الجامدة ، وهذه الأشياء مع اتساقها وإتقان كلها وكل جزء على حدته تتميز بهندسة دقيقة ويقضي العجب بصلابتها خصوصاً مدة الامتحانات ٧٢ / المختلفة المصنوعة بحضرة القيصر وعائلته ، وجملة كثيرة من الناظرين ، وقد طلقت مدافع الجليد بعجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعمير في القصبة ، والجلل أصابوا لوحاً من الخشب ثخنه قدما من موضوع بمسافة ٦ خطوة ، والأهوان المعمرة بربع رطل

بارود رموا البناء. وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملهب، والفيل يصب من خرطوميه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدماً الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في فمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمائة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل تقضي بالعجب أيضاً بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك، وفي كل من جهتي هذا المدخل أوضة بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الغندرة تحت مرآة، وشمعدانات، فيها شمع يولع مدهوناً بالنفط، وساعة أواني مختلفة وجزر صغيرة وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى وفيها فرش بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرش طاقتان وزوجان من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتمائيل المجسمة، تولع قطع الجليد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخرى سفرة عليها ساعة دقاقة، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الجمد، وفي الطرفين كراسي، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولا ب مزين بصور ومملوء بأواني ٧٣/ النقل والحلاوة وصواني للشاي، وكبايات وملاعق وأناجر مع أطعمة وصحون مملوءة بالفواكه. كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللفظ في غاية التطبيق لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقل الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصير بالكلية نيران، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس واحد مسخرة من القصرة الملكي الذي غير دينه. ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته

بعض أيام ، وكان مأذوناً لكل الناس الذهاب للتفرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة ، ولكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحد حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدانات عليه .

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقي هذا البيت العجيب الساحر للبلبليب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة ، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق ، وبعد ذلك بقليل تساقطت بالكلية نحو الجهة القبليّة ، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم إلى سردابات الجليد التي في القصر ، لأن في هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيفا ، وتحمل إلى السرداب لتبريد المياه بجليد ، والحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء ، وقد صنف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعايين لذلك الزمان كتاباً وصف فيه هذه البنية العجيبة ، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠م في هذه المدينة ، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ ١٧٤١م . والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى ٧٤ / النيفا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل ، وفي سنة ١٧٣٣م في المنزل المجاور لقصر المرمربنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب ، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج ، وهذا يمكن أن يكون وحده المرثي من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور ١٧٤٠م ، وقد بني في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠م أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد ، وعلى المتراس ٥ مدافع ، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام ، وهذا البرج كان محكم البناء ، إلا أنه تقليد صغير ، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه ، ومن دوس المارة على النيفا يكون عليه كالتراب ويصفر ، وقلت في المفخرة بينه وبين النيل :

هيا انظروا ما أصاب نيفا حتى غدا أصفر الإهاب

النيل ماء وذا تراب والماء يعلو على التراب

وقلت أيضاً:

إن قيل إن النيل في المـدبه طين قذر
فإن نيفاكم حكى جموده الشب الزفر
النيل عذب سائغ وذا كطود منقعر

وأما فيضان ماء النيفا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغيير الهواء وعصف الرياح، لكن في سنة ١٧٨٨ م، وفي سنة ١٨٠٢ م اشتهر ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لطوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤ م كلا شيء، وكان اليوم السادس كنذير الخراب، فأمطرت السماء طول النهار، وكان الريح بارداً جداً، يهب بشدة عظيمة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جداً، والسكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات ٧٥/ السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضوا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والليالي من الزمان حبلـى مثقلات يلدن كل عجيـبه

وتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصباح يهبط على العادة، لكن من المصيبة أن كان هذه المرة بالخلاف - والله خرق العوائد - فهبت في الليل ريح بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي الصباح اجتمع على ساحل النيفا أمام قصر الشتاء خلق بلاد عدد يضربون الأمواج المتصاعدة بسبب الصواعق، وعلى وجوه الناظرين يلاحظ الحيرة والانبهات لا الهول، لأنه لا أحد إلى تلك الساعة خاف مصيبة دانية، وطامة قاصية، ثم بالسرعة تجاوز الماء الحد وبلغ ١٣ أقدام و ٧ أصابع وعبر السواحل إلى الحارات من كل جهة إلا حارات قليلة، وزاد حتى عامت السفن الكبيرة في الحارات، وأرست عند

شبابيك البيوت ومشربياتها، وقصر الشتاء كان كصخرة يتفجر منها الماء من كل طرف وتضربها الأمواج وترمي بزبدتها إلى الدور الأعلى، والنيفا يغلي ويتموج بقوة وسرعة فرقت شمل القناطر، وشتت جمع السفن الثقيلة، وركابها رفعوا أيديهم إلى السماء منتظرين الممات قانطين من الحياة، وكثير من صخور الصوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع الناس الذين يفاجأهم الماء ينطون إلى شبابيك البيوت، أو يتعلقون بأعمدة الفينارات، أو بأغصان شجر البولفار، أو بأعلى العربات، والخيول هلكت وفي لبابها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى المكاتب غرقوا، فوق الماء يطفو كثير من الأمتعة التي نهبها الماء من البيوت، ومن الصلبان التي قلعتها من المقابر البعيدة، والمصيبة كانت أدهى وأمر وأشأم في النواحي الموضوعة على ساحل النيفا الأيمن في الأماكن القريبة من الخور، فهناك ٧٦/علا الماء ١٦ قدماً، وهلك كثير من الناس خصوصاً في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أذن للشغالين بسكنى الدور فوقاني، لكن سرعة الماء عاقتهم واضطروا لتخليص حياتهم أن يشاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص منشدين بلسان الحال:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وبعد الظهر بساعتين، حاكم المدينة ظهر في زورق باثني عشر مجدافاً في شارع نيفسكي وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس، وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه وكل شي بلغ الحد انتهى، فما أفضع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة. والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات، لأن الصاعقة كسرتها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشققها، وفي غيرها كان العبور مستحيلاً، وكم من مئات من الناس يكون على هلاك أموالهم وغيرهم أسوأ حالاً، منهم يبكي جيف أقاربه، وغيرهم محروم من المسكن والقوت

والملبس، يثنون على طول بيوتهم المدرسة. وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أولاً إلى بيت الحاكم وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ رُبل لحوائج المساكين اللازمة، وبيت الحاكم فتح، وصار مضيفة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأُعطى لأربعمائة عائلة وثمانين ثياباً ونقوداً للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، منهم ٢٥٠ يسكنون عنده دائماً، وقسم في اليوم الأول خبزاً بأكثر من ٣٥٠٠ رُبل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم ويأخذ بعض الفقراء ٧٧/ منه ويمونهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عاداتها فنسيت خسارتها الخاصة واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليوني رُبل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائل الإعانة والإسعاف أمر بنصيب ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة، واحد في وسيلي أستروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ وواحد في ناحية فيبورغ، وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالركة والشفقة كالأب الرحيم، والملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينة، وأمر أن ترسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدون الناس. على أن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات اللازمة، وفي عدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات صدقة من طرف المملكة، وجلب من الريف كثيراً من الفلاحين للأشغال، أُجرة الواحد عينت برُبل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغالين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة ربلات في اليوم، وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عن هذا الحادث المنحوس، وبرحمة الله وإسعاف القيصر والمحسنين انمحي ذلك الأثر. وفي ١٥ تشرين الثاني أُشهرت الصلاة لشكر الله الذي يعاقب ويعفو، ولا يستقصي في الغضب. وفي ٢٢ من ذلك

الشهر أشهرت صلاة الجنائزة على كل غرقى هذا الطوفان، وثم انمحي ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هذه المدينة، تذكرة للنقم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هي خسارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفرًا، ولا يمكن ضبط الأشياء التالفة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٧٨ / ٤٦٢، وتقور ٣٦٨١، وانكسرت القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠,٠٠٠ بود سكر - والبود أربعون رطلاً - ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ ربل، ومن الدقيق ٦٠٠,٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤٨٦,٠٦٦,٤، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيمًا بسبب الوسائط والاحتياطات المربة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧م عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراعاً (٤ أقدام و ١١ أصبعاً)، فكان هذا حادثاً خارقاً للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع وولعت فنارات الخوف لإندار الناس لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

الفصل الثاني

اعلم أن بتر بورغ مشبهة لحادثة من حوادث الدنيا أصلية وحكيمة أنشأتها خواطر القيصر الراسخة بلا حد، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتماً في صفحة الدهر لا ينمحي، وهي منشأ التجديدات الروسية، وقد بزغت بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بأسره بلا إرادة، وهي التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله يد غريب متغلب، الذي له أول رتبة بين مدن أوروبا بسبب تاريخه العجيب

وحسنه وتوحيده في المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا تحت الأوربا. ٧٩/. بتر بورغ التي تفكرنا دائماً ببطرس الأول أصل كل ما تراه في روسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتر بورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأخر كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوي، بتر بورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحقق مؤسسها حام على مهدها، والعقل الثابت الألمعي والجسور من أمة الروس المحلي بقوة متينة راسية لا تتزلزل، رتّى وغدّى شجاعته الشابة، ولم تزل من يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالباً، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلة معرفة الأوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبيناً كافياً وتفصيلاً وافياً فنقول:

الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣ م، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيفا المحقق بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيفا واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا بياتينا من أعمال نوفغورد الكبرى. والقيصر إيفان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيفا الذي كان مدة قرون طريقاً لنوفغورد الخارجية رأت عدة مرات الروس، وسمعت غير مرة صياحهم بالنصر قبل ١٨٠/ أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى روسيا. والنوفغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسوقة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢م فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيفا لتخريب اينغري وكاريليا.

وبعد نحو مئة سنة يعني في ١٢٤١م أرسل ملك السويد أريك الكبير بحصد النوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاندي بالتوالي دننما كثيرة العسكر لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت التيار حتى وصلت لملتقى النيفا ونهر إيزور، وصل في رأس جيش اسكندريار وسلافيج أمير نوفغورد الذي قدسته حينئذ الكنيسة، ودعا السويد للقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ الباقيين إلى الفرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة الذي بسببه لقب هذا الأمير نيفكسي سيمون وبوسادنيك رؤساء القوة الجمهورية في نوفغورد تسلحوا على الأبطال الحاملي السيوف الذين لا يزالون يكذبون الأرض المنسوبة إلى فوتسكيا بياتينا، وكان التلاقي عند فم النيفا وقتلهم ودمروهم، وبحيث أغرقت كل مراكبهم. وقبل سنة ١٢٠٣م السويد الأعداء الزرق للنوفغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسلحة وغيرها من الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجتهدوا في تملك النيفا، وبنوا في سنة ١٣٠٠م على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاه مع النيفا قلعة صغيرة سموها لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت نتيجتها لأن النوفغورديين ٨١/لما فهموا الأمر جاؤوا في ربيع السنة التالية وطردوا السويد وحرقوا القلعة، ثم في سنة ١٢٢٣م لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصل النيفا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أرخوفة أو أرشوك المذكور كثيراً في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨م ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقل النوفغورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغري وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوفغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من طرف مهبطون حول دننماه الراسية في النيفا، فالتجأ إلى تولية الأدبار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧م إيفان الثالث هجم بحملة فاصلة على نوفغورد، وصار أيضاً مالكا العمارات البحرية

التي بعد نحو قرن صارت للروس إلى الأبد. وفي سنة ١٥٨١م وسنة ١٥٨٢م القيصر إيفان الرابع الملقب بالمهدد أو المهول أشرف على ضياع أينغري وكاريليا، وأخذ السويد نارفا، وإيفان غورد، ويام، وكربوريا أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠م.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥م اعترف بأن الكل ما عدا نارفا منسوبة للروس بواسطة عقد (تياوزين)، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة ابهالهم، وفهموا فحوى قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

وملكوا اينغري وكاريليا اللتين ردتا لهم في سنة ١٦١٧م بواسطة عقد سطلوبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاندا، ومجرى النيفا من كل طرف لم يريدوا أن ينتقضوا بحسن وضع ٨٢/ هذا النهر، فمن سنة ١٦١١م أسسوا بناء على رأي جنرال غردبا المشهور على ملتقى أخته على الساحل الشمالي قرب لانديسكرون، ويمكن في محله بالنفس مدينة سموها نين وبقر بها قلعة صغيرة سموها نينسانتز، والروس يسمونها كانتزي، والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعت عليها كريستينا دعت كثيراً من التجار أن يستوطنوها، وصارت من سنة إلى سنة أعمار وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤م مركز تجارة معتبرة بحيث ان في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نين كان سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠م وسنة ١٧٠١م سكانها الذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جداً حتى ان واحداً منهم يسمى فريزيوس سلف شارل الثاني عشر مبلغاً جسيماً، وأوا قرب الاشتغال الحربي وخافوا زحف الروس فتسللوا لواداً في الوقت المناسب، وأقمرت بعدهم نين ونينستانتز المحروس بخفر ضعيف انقلب بواسطة عسكرية منفردة، وكان

بشير تضعضعه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٤م حرب نوتبورغ السفاكة هكذا يسمى السويد قلعة أورشك التي بناها النوفغورديون وقعقة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠م في حصار نارفا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢م على سواحل النيفا، ولما اشتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة دونما مخصصة لإخرا ب القرى وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أمر كونيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وإبراكسين مأمور هذه الناحية بظهور ٨٣/السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابة في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة والعنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقين إلى التحصين في جدران نوتبورغ. وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال السويدي أن يتدارك هزيمة الدنما وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على السواحل ابرورنهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي هرب نحو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نين شانتز في ٢٢ أيلول من السنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ، وفي ١٣ من الشهر التالي، دخلوها غالبين، وهجوم الشتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مينيتشيكوف المشهور حاكم القلعة المفتوحة أرسله في ذلك الخريف إلى سواحل لادوغة، وأمره أن يبني سفناً في منجرة المحل ومراكب للنقل تستعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نين شانتز، وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسبل بورغ يعني البلد المفتاح، فتح الطريق ليس فقط لفتح المواضع التي ترتفع عليها الآن بتر بورغ بل لفتح كل الأستوينا، والليتونيا، وجملة من الفينلاندا، ولما عزم بطرس على تملك سواحل بلطيق التي كانت منتسبة للروس أمر فيلد مارشال شيريميتوف، صاري العسكر، والذي كلها في موسقو بأن يبدأ الحرب في سنة ١٧٠٣م بالمشي نحو

شليسبل بورغ، ومنها يهجم على نينشانتر، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شكلاً مخمساً مبنياً في ركن ملتقى أخته في النيفا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشارل الثاني عشر محاطة من مسافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب ساحل النيفا، ومن جانب شليسبل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسوبة للمدينة، وباقي نين يعني الجزء الأكبر بتلة كبيرة للمرضى وكنيستين للوتر يانتي واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطئ المقابل لأخته، وكان هكذا شكل نين ونينشانتر في خريف سنة ١٧٠٢م، وحين وصل خبر أخذ نوتبورغ، هذا الخبر تفوى سريعاً بظهور تجريدة روسية أرسلها القيصر في طول النيفا من البركة إلى أخته، ولما نظر حاكم القلعة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام اللهب يشتعل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أساس، ولكن كان قبل الأوان، لأن الروس - كما قلنا - لا يهجمون قبل الربيع، ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسله من شليسبل بورغ من طرف الضابط مينتشييكوف، كدرت الخفراء من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣م في وقت ما سافر شيريميتوف من موسكو وتقدم مع العسكر إلى نينشانتر جاء عشرون ألف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسبل بورغ وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض بريابو برانسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كانت شيريميتوف على ١٥ فرست من نينشانتر أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رأسه القولونيل نيد هارت والقبطان غلييوفسكي على سفن كثيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلاً بكشف الموضع ٨٥/، قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشعر بها في الليل ٢٤ أو ٢٥ وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبته، وانتهزت فرصة تكدر الحراس وتملكت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير

علاج على الظاهر لتملك الحصون الأخر التي يحرسها ٨٠ (ثمانون) رجلاً فقط، لكن الشجعان الذين تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهم لم يؤمروا إلا بمجرد الكشف تركوا غنيمتهم، وانصرفوا والسويد لما كان لهم وقت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشجعوا وأخذوا الحذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جداً، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولما أعلموا شيريميتوف بهذا الخبر، تقدم بكل مساعدة في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نيشانتز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منها لمراهمهم، وفي ذلك اليوم بعينه الجنرال لايرت رئيس الأشغال الهندسية الروسية فتح الخندق بثلاثين سجيناً من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاوناً و ٢٠ مدفعاً جلبت من شليسبل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة ميتتشيكوف، وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الخفراء كما قلنا آنفاً في ليلة ٢٨ بإنزال ٤ أرط من عرض برياو وبرانسكي، و ٤ من عرض سيمونوفسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدنما النيفا الكبير غير مبال بنار القلعة المهول، لأجل أن يسد فم النيفا الذي ربما يصل منه سفن السويد لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تقوم الدنما.

٨٦/ أظهرت لعين القيصر أرضاً وحشية لا تنعش الناس ليس فقط هذه السواحل، لكن أيضاً كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغطى بالغابات والمنتقعات غير المطروقة هناك، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهدمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقوتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينته من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة تيار النيفا، ثم إن القيصر لما أمّن سكان هذه الغابات في أنفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد ولا مركباً للعدو، ورجع في اليوم الثاني إلى المعسكر، وفي جزيرة

كوتويوف خلى ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيفا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة اشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٣ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسبل بورغ كانت حاضرة لهدم أسوار القلعة، ولما علم شيريميتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطاً شريفة، إن ردّ القلعة بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عموماً، ورد السويد كذلك، وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى الخامسة من الصباح، لم يكن إلا الإطلاق المتوال بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحس الحراس بضعفهم عن المقاومة زمناً طويلاً، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلقى لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في أيار سنة ١٧٠٣م في الساعة التاسعة من المساء أن عرض برياوبرارنسكي الذي كان فيه شاه زادة الكسي تعلم ضرب السلاح أولاً، دخل غالباً في قلعة نينشانتز التي في ٨٧/ ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلاً لأول عمارات، قصبة مملكة روسيا الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينشانتز في يده بلا سفك دم كثير غير اسمها إلى سلوتبورغ، وفي ٢ أيار أصبح أشهر النصر بشكر الله وإطلاق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعاً إلى موسقوتخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم، ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ أيار الخفر الذي خلّاه القيصر عند فم النيفا أعلم بظهور دنما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضاً وصول الروس إلى نينشانتز، وما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان، فأطلقت مدفعين إعلماً بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدنما استحسن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح، ففي مساء خامس أيار أرسلت فلوكة من دنما السويد في النيفا للتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية

الذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي ، وأرسلوا بغير التهامل وأخذ واحد منهم ، وأخبر أن هذه الدنما تحت إدارة نائب القبطان نوميرسي الذي غلبه ابراكسين السنة السابقة في لادوغة ، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع فقربتا من فم النيفا ورمتا اللهب أمام مدخل النيفا في انتظار المستعملين والفجر ، ولما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة ٨٨/ من ذلك ، فذهب في المساء بعينه وأخذ معه ميتيشيكوف بصفة رئيس الطبخية ، وجملة من العسكر بعدما تكلم في ذلك مع فيلد ماريشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيفا ، بقصد أن يهجم بالسرة إذا جن الليل على السفينتين المذكورتين ، والهواء الذي كان أولاً ساكناً ، والسماء المصححة أظهرت تسهيل قصد القيصر لكن بالسرعة عصف الرياح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الخور والنيفا بشدة ، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خبرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها ، وأن تنقسم إلى قسمين قسم يهيج في طرف الدفة من جهة البحر ، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة ، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دنمائه في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف ، وبعد انتظار بعض ساعات آن الوقت المناسب ، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل المهولة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين ، معاقل السويد ومثل القيصر هيج الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوكة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها ، لكن من باقي الدنما التي نشرت قلوها لتلحق معركة القتال ، لكن عوقت بسبب قلة الماء ، والروس هجموا على سفيتي السويد ، حيث تكشر لهم المنايا عن أنيابها ، وما خلص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشئ عن الأياس من البخت الذي ينتظرهم ، والقيصر هجم على السفن أولاً ، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفينتين ، ومن ٧٧ رجلاً كانوا فيها ٨٩/ ، وعوقب بالموت تسعة عشر

لعندهم، وكل الباقيين وقعوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أول ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهماً جداً أن بطرس باشره بنفسه، وأشهره ١١ أيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ وقرب السفيتين المجلوبتين بالظفر إلى أمام القلعة، وبهذه الفرصة الجنرال غولوقين قبطان باشا أول فارس نشان الحواري القديس لندري قلد بهذا النشان رؤساء الظفر والقيصر وإشرافه ميتيشيكوف، وأنعم على الضابط والعساكر الذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلاً تحقق، ولما رأى بطرس نفسه مالكاً لمجرى النيفا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيفا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ أو يختار لذلك محلاً آخر أقرب إلى البحر، وبعد الحل العقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلة حصانتها، وبعدها عن فم النيفا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحر، وبطرس لأجل اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنح فكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدينة كبيرة محصنة، وأن ينعش فقراء اينغري وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع والفنون، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القول إلى الفعل، فاختر لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى ٩٠/ اينساري يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيفا الكبير قبل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي ستارنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلف شارل ١٢ كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت سينبوك أرضاً واسعة إلى فم النيفا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهربانيين، وسمى هذا الملك لوست هو لم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان

الضيعة بسبب البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة، ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، ولم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث إن أهل القيصر لم يقرؤها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ الذي تذلل الآن قليلاً بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويفسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيفا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن أهدقت بها المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتر بورغسكي ستارنا، وتسميها السويد كوفيساري، يعني «جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم الثلث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض، ووضع بيديه الحجر الأول ٩١/ من البرج الموضوع على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتر بورغسكي ستارنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط الملعونة ضد تيار النيفا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيفا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني السهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كوفيساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاولاً باسم الحوارى القديس بطرس، وكان ميتيشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل ورون بيك كان ناظراً، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نيشانتز، والذين كانوا مخيمين على سواحل النيفا العرابة على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا

قسمين : واحد تحت حكم الجنرال الأمير رينين بقي في بتر بورغ ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوبور باوام الذي سبب أخذهما بحيث بلا خسارة انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير ، والقيصر في صيف هذه السنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس ، رتب ألف رجل عسكرياً مشاة أقوى وأحسن ما يكون ، وسمى أولاً هذا النظام الأحسن عرضي مييتيشيكوف باسم رئيسه ، ثم بعد ذلك سماه عرضي اينغرى ، ومع أن هذه العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر ، له مزايا خفر القيصر ، ويسكن دائماً في بتر بورغ من حيث انه كان خفراً مخصوصاً لمييتيشيكوف ، وإعلاء جزيرة ايفيساري وردم المنتقعات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخرى ، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة ، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير رينين ، ثم أهل اينغرى وكاريليا وناس من أولونيتز ونوفغورد ، وأحضر من داخل المملكة ألوفاً من الصناع والأسطاوات ، وكذلك من القزاق والتاتار والقلمون ، وأعطاهم للمساعدة أسرى السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠,٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغل في أساس بتر بورغ ، وليس للشغالين الميرية إلا القوات ، ولكن لغيرهم زيادة على القوات كراء ثلاثة كبيك في اليوم ، والكبيك عشر ربل ، والكبيك في ذلك الوقت مثل ١٥ الآن ، وأغلب هذه الشغالة ما كان لهم أولاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان ، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفة ولا عربة ، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في حجور قفاطينهم ، وبعد الأشغال القاسية هكذا ينامون في الكشف في أرض رطبة تحت الضباب ، والغيوم المطرة ، وكان يتفق لهم أيضاً مقاساة الجوع لأنه لا سهل دائماً تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠,٠٠٠ رجل ، لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب ، فلم يكن فيها كثير إغاثة ، والريح المخالف عوق سفن الفراء الآتية من داخل روسيا على بركة لادوغة ، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجاً عن العادة ، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب

والاجتهاد الخارج عن العادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ ، لكن كل ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة الروسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق ، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشئ عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث ان بعد مضي أسابيع عدم جملة من الغابات والمنتقعات ، ٩٣/ وأن في محل الدويرتين القديمتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصدى فوق الماء متاريس القلعة المهددة ، ومن يوم تأسيس القلعة أراد القيصر إسراع الأشغال ، فقسم النظر بين ستة أشخاص ، فأخذ لنفسه قسماً ، وفوض الآخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصاً إلى ناريشكين وتروبتسكي وذوتوف وغولوفكين ميتيشيكوف ، ولتذكر هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظام مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربطرس الذي سمي باسم «القيصر» ، وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيداً اسمه ٢٩ حزيران ، وعمل ميتيشيكوف للقيصر ولل كبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه ، وما كان الباعث لبطرس على بناء هذه المدينة حسن وضعها فقط ، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدنما تدخل وتخرج وترسي ، وبطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف سنة ١٦٩٥ م كيف نفع دنما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيفا يلزم أن يكون للروسيا مفيداً ، وما زال مسدوداً وما استراح حتى كمل قصده ، وذلك انه لما أحدر من النيفا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفاناً كاملاً جريان هذا النهر العظيم ، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيفا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن يكون ميناء للمراكب التجارية ، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين ، وكانت لطيفة المنظر ، وتصور بنفسها مفتاح النهر ، وفي الدخول في هذا الموضوع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة ، وبطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكره الحاد ، ونظره الثاقب ، فعزم أن يبني ذلك مدينة ، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غي منتظر عقد الصلح وغير مبال بصعوبة فيضان المياه ، وبينما يرن خبط الفؤوس في هذه المواضع الساكنة ، ما سكت السويد على نظر

هذا، ٩٤/ بل جردوا عساكر ١٢٠٠ من فيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كرونيورت الذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢م في حرب مع ابركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطتين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا، عبرت عبوراً صعباً بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجأهم في أشجار غلب، غلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى فيبورغ بعدما عدموا كثيراً من أمتعتهم ومدافعهم، وبواسطة زيادة الشغالة المتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فحر خندق لثلاث يتعرض لفقد الماء خصوصاً في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينوانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشها يحكى الرخام الأصفر باسم الحواري ماربطرس، والحواري ماربولص، وهذه الكنيسة كان لها ثلاثة أهلة في أعلاها، وأيام الأحد والأعياد يرفعون في قلب المراكب، وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي الساحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من دور واحد وبقربه بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير كعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب يظهر حاد، وصاري محفوف بأوتاد مذبذبة، وعلى الحصان يوضع العسكري المذنب ذنباً عظيماً مفرشاً وعلى الصاري واقفاً، وهذه الجرسة كانت موافقة ٩٥/ لعادة ذلك الوقت، وبقرب بيت العسكر بيت خشب منقوش بكيفية نقش الكنيسة عين أن يكون الترسخانة، وفي البيوت الأخر كان مسكن قسس كنيسة ماربوطرس وبولص وكنيسة اللوتيريانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات». وفي برج مينيتشيكوف بيت لطيف صغير كان معداً للعقاير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار

بين برج القيصر وبرج ميتتشييكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كوفي التي صارت جزيرة بتر بورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبطة لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بنديرة القيصر تتهاذى على برجه، وأيام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكاً بمخله وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلا، وبحر بلطيق، ونشر البنديرة أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وإطلاق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشرة يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريباً من القلعة بقدر الإمكان ليمتحن الأشغال غالباً، فبنى في جزيرة بتر بورغ بقرب الساحل النيفا الكبير بنحو مائتي سجين من برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتاً من الخشب عرضه ثمانية سجين وسمكه ثلاثة، ومجدد روسيا لما كان عدواً للترفة والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوضتين بينهما مدخل ومطبخ والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولانديين، لأجل أن يظهر حيطاناً من الأجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي وسط السقف يرى هاون، ٩٦/ وفي كل ركن بنية جاهزة للطلق، وهذه الأشياء الثلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور، وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن الوضع إلا جليلاً ورفيعاً، وبنى ميتتشييكوف محبة الرفعة والفخر أمام دويرة القصر بيتاً من الخشب أيضاً، لكنه واسع، وفيه تشتهر الأعياد ويلقي القيصر بسبب صغر بيته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك بلا نظام لأجل كنّ الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل المدينة المولودة في ١٧٠٢م وبطرس لما رمى أساس مدينته، ورأى إمكان تحصيل دنما، سافر أول تشرين أول إلى «لادينوي يوله» الذي سماها «منجرة أولونيتنز»، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطان و ٩ قبقات، ثم رجع

إلى بتر بورغ في الفرقطة المسماة «ايتاندار» التي أنزلها من المنجرة نفسها والمصحوبة بست قنج جديدة أيضاً، وفي مسافة الطريق بسبب الريح العاصفة الشديدة لبخت الفرقطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصليح عند وصولها، وهذه أول مرة أن مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيفا وتعمر على سواحله، والقلق الذي كان يجده القيصر لتكميل دننما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة بعينها سنة ١٧٠٣م أن يبني في خط نوفغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب للنقل وأكثرها بناها الأوسط جبريل ميتيشيكوف، الذي تعلم السفانة مع القيصر في هولاند، وقلة الملاحين عطلت بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن دعا إلى خدمته ضابطاً من هولاند ومن البندقية، ومن بلاد مسكونة بأمم أصلهم من الصقلب ٩٧/ خصوصاً من سواحل البندقية، ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن الواردة إلى ارخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر دننما القبطان «نومير» التي كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيفا إلى فيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خورالفيولاند ابتداء في التجلد قنجة واحد إلى جزيرة ريتساري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣ فرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة وقاس مشعبها، وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رأى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم أيضاً ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلّى في الجزيرة ميتيشيكوف مع ٤ أورط، وقسم على الآخر مساكن للشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسقو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النحاس، والسبع معادن كلها تقريباً مغتنمة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسقو أبطل عادة مستعملة في روسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم المنغول كانت مكروهة جداً لبطرس خصوصاً في وسط

الوحد، والمنتفعات، فلذلك حُرِّج على فعلها، والعامة المتعودون كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجوداً بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا ألجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أول مرة بعد تأسيسها سفينة من هولاندا، رئيس هذه السفينة كان يجيء كل سنة إلى خور فينلاندا، حيث ٩٨/ كان السويد حاكم البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيسترا حيث الآن «سيستورسك» و«سيستريك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثنا عشر مركباً تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة بها خصوص (دننما) القبطان نوميرسي التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقابلة القيصر لالتماس إذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لما وصل كان القيصر وحاكم البلد غائبين منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين ضمّنهما شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه أن يجلب إلى بتر بورغ السفن الموسوقة بالبضائع والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه وأراد أن يدخل النيفا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرسي الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولاندا وتتقوى بها عليه، قال له أن يقضي الليل مع ست من سفنه خلال دننما السويد، ويصل إلى نهر سيسترا على السواحل التي فيها بعض عراض روس، من وقت هزيمة الجنرال كرونيورت، ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشرين الثاني لما وجدت بغتة بعيدة من دننما نوميرسي، وكان النيفا والمخور إذ ذاك عاريين من الجليد، والسفينة موسوقة ملحاً وخمراً، فقابل مينتشيكوف الذي يفهم مقاصد سيده السديدة ويحصلها بالهمة العتيدة الرئيس بغاية البشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلاثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينة ثم

وعد أن يهدي لرئيس المركب الثاني التي تجيء بتر بورغ ثلثمائة مجر، ولرئيس ٩٩/ الثالثة مئة وخمسين . ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لالتفات القيصر، بل لحضوره أيضاً كان محط نظره تحصين بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتناؤه واجتهاده آمراً مشافهة إن كان حاضراً، وبالكتابة إن كان غائباً:

اعلموا أني لكم حافظ شاهداً ما كنت أو غائباً

وبينما كان يخترع الأشياء النافعة لإصلاح داخل المملكة كان يربط العلاقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع ويترك سفناً وغلايين من كل نوع إلى نهر دوناء، وبمجرد ما وصل من موسكو إلى فوروثيج أرسل إلى ميتتشييكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهذا القصد إذا فعل قبلي الجزيرة خصوصاً من جهة الشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ وميتتشييكوف لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتحصينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظير، وكل المواد اللازمة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم والأشغال في وقت واحد تقدمت وحصلت بالاجتهاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث إنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاندا على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار، وأرض كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل شعب النيفا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة بعضهم في البناء وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانية آلاف فرس بعدم الزاد وبالعت، وهلك أيضاً كثير من الناس، وهذا كان قرباناً لازماً لحفظ بتر بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلية في الدنمارك وسواحل بلطيق، وقبل تحلل النيفا كملت الأجزاء الأصلية من الحصن ١٠٠/ والقصبة المولودة كانت في حصن من جهة البحر، وصارت السكان كل يوم تزيد زيادة على الروس، كالتجار الآتين من نوفغورد بالغرباء من الأستونيا والليتونيا، وحتى من السويد المساكين الذين حرموا بسبب الحرب من المسكن ومن الصناعات والأسطاوات

والنواتية الذين جاؤوا أفواجا بعيالهم ، وتركوا أوطانهم ، والتاتار والقلموق المدعومين من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت ، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة ، وفرغت المنجرة في أقل من سنة ، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلا على عشرة خطوط ، والخط المحلي الذي فيه تبني السفينة ، وعند رجوع القيصر من موسقو شاهد عدم انتظار وضع البيوت ، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة ، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة وأعدلها وأطفها وأجمالها ، لم تزل ساحرة لعيون النظار خصوصاً سياح الأقطار وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار .

وفي سنة ١٧٠٦م فاض النيفا ، ومع أن الفيضان ما مكث إلا ثلاث ساعات سبب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية ، فطغى عليها الماء ، فصارت جارية لا تحمل السكان ، ولم يجد الأهالي عاصماً من الماء إلا الركوب في السفن ، كما تداوى شارب الخمر بالخمر ، ومع وقوع الحريقة التي اجتثت عدة بيوت عظيمة من الأساس سنة ١٧٠٧م ، كان وجود القيصر كالجود ، فأطفأ النار حتى صارت برداً وسلاماً ، وتلافى التلف الذي تسامى ، وفي سنة ١٧٠٨م ، يعني خمس سنين من تأسيس المدينة استحققت بتر بورغ أن تسمى ١٠١/مدينة أوروبية ، واشتغل السكان الذين أكثرهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم :

واتخذ الناس كلهم سكناً ومثل الأرض كلها داراً

ولما رأى القيصر نتيجة غراسه ، وقوة بأسه ، اشتهى أن يرى ذلك لأناسه ، فعزم عائلته من موسقو لرؤية مدينته الجديدة ، عروس المدن التي ما رأوها بعد ، وإنما سمعوا عنها ، وليس الخبر كالعيان :

ولكن للعيان لطيف معنى به سأل المعايينة الكليم

وقد حصل في موسقو إذ ذاك بعض تنقلات أوروبية وتغيرات تمدنيه ، ولكن

العوائد القديمة باقية إلى الآن عموماً، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ فرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسبل بورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل القيصر معهم في السفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتر بورغ ولاقاهم قبطان باشا ابراكسين من مسافة ٤ فرست في زورق، وسلم عليهم بإطلاق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبراء العظام إلى بتر بورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت ميتشيكوف، وفرّجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح واعتنائه بحفظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان على بلاد الفينلاند فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد الكونت بونريرس ورجع بالظفر مع وجود دننما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك الكونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي ١٠٢/ فيبورغ فجمع جمع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائماً عازمين على التآلب والتجيش لأخذ بتر بورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧م الجنرال لوبيكر بعسكر جرار (١٤٠٠٠)، ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبيكر بوطاة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيفا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبيكر غلطاً عظيماً أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغري المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظاناً أن يجد القوات الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلظه عليه (خطأ الطبيب إصابة الأقدار). ومع أنه غلب أولاً عدوه فقد وجد عدواً قاهراً لا يُعامل:

وأنفس خطبك الذي لا تناله وأنكى عدوك الذي لا تقابله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغرى المسكونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابراكسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففر ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشبية، بذات قضت الأيام بين أهلها، (مصائب قوم عند قوم فوائد)، ولم يكن ملجأ السويد إلا البحر الغضبان المتماوج، كثير الصواعق، ففر من فر، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمر. ١٠٣/ لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباع، وعاق السويد عن ركوب البحر، وأرسل ابراكسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فكنت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وهكذا فرغت غزوة لوبيكر المهولة على بتر بورغ أولاً ثم آخراً على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وباؤوا بمكرهم، ومع أنهم أزهبوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة وإحراقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه النواحي بالروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقطع لزوجته خمس ضياع، ولشاه زادة ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاه زادة أخته نتاليا، وأيضاً أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعاً ميتيشيكوف، فإنه أخذ جزءاً من أحد عشر جزءاً من بلاد اينغرى، وقسمت روسيا أول مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨ م. وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغرى المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩م، لما تمكن بطرس من بلاد اينغرى أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتر بورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفراؤه أخبروا أنه بنى مدينة على الماء كل يوم تزيد، ورغبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسوا وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالى سفنها التجارية إلى بتر بورغ لا تدفع إلا نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلاً للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك وفي ١٠٤ / ١٧٠٩م، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشانة مار أندريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينتشييكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقه عجيبة الشكل، صُورت فيها صور مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها هذا النشان. وهذا اللعب سر الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في روسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمرأى محفل عظيم من المتفرجين ابتداء بيده بناء بارجة وسماها «بولتافا» بأربعة وعشرين مدفعاً.

وفي سنة ١٧١٠م أرسل هذا العنقاء ابراكسين لحصار فيبورغ مرة ثانية، لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦م ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكر لما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاندا في المساكن الأحاسن، فاغتنم روسيا هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابراكسين ٥٠٠٠ رجل، و ١٠ مدافع بثقل ١٢ و ١٣ هاون، وذهب على الجليد ١٥ آذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائل الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاندا، وأطلقوا عليهم النيران، وعكسوا عليهم النيران حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بتر بورغ، وما كان معهم بعد ذلك إلا زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت

الذي هو وقت التحلل ، فما أشد فرح ابراكسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش ، وهذا المدد من أعجب ما يحفظ في التاريخ ، ويدل على التمدن النير الذي لمع في روسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب ، وجعلها بين أخواتها في أعلى المراتب ، وذلك أن القيصر ١٠٥ / لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدنما التي قضت الشتاء في بتر بورغ ، وأرسل مراكب قلعية تحت إدارة كرويس ، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتزي ، وفي هذه السفن ١٠,٠٠٠ ، فتقدم في رأس الدنما ٧ فارقيات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعاً ، وفي وسطها بنديرة كرويس ، لكن الجليد عاق عبور الدنما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ ، وبطرس طلاع الثنايا ، ومقتحم المنايا دائماً يستسهل الصعب ويستهنون الخطب ، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المغافرة وشدة المعاقرة ، وانحط الأمر على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمة للجليد ، وكان في الرأس فارقية بأربعة وعشرين مدفعاً ومنجّه بالبومب ، ونشرت هاتان السفينتان الشراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام ، وفتحتا فيه طريق للباقي ، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد ، ووصول هذا المدد غير الأمر وقوى الحصار ، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران ، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة ، ووصول القيصر أعجل الأمر ، وفصل النزاع ، ودخلت عساكر بري أوبرارانسكي القلعة ظافرين ، وأعطى لإبراكسين جزاءً على ذلك نشان مارأندريا .

قلت : وقد مررت عند رجوعي من هلزن فورس على بورغو ، وهي مدينة حسنة ، يلوح فيها آثار العمارة ، وبها سوق وتجار ومخازن ومضاييف ، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وأبنيتها بديعة تشابه مباني بتر بورغ ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «موت ربوس» للأمير نقولة ، وقد قضيت فيها بعض ساعات أنيسة ، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة ، فمن ذلك البرج الظريف على خندق ١٠٦ / لطيف ، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات ، وهناك حنفية ماء

باردة ومنازة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولة أثراً لبعض بلدياته الفرنسية الذين جاؤوا الروسيا، وحماهم القيصر اسكندر وأكرم مشاهم، وفي المدينة تل من الصخر عالٍ صعدته، ورأيت فيه حجراً كبيراً منقوش على سطحه « П / » يعني بطرس الأول، لأن بطرس لما وصل، صعد على هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكلا المدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائماً في التقدم، وفي فيبورغ كحل مشهور باسمها يجلبه المسافرون، لذيد الطعم، وبعض الخبازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقد حكيت ولكن فاتك الشنب»، وبنواحي فيبورغ فؤارة ايمترا، وهي فؤارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقرة لنظري، وينحدر الماء من أعلى الصخور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصخور، وبالجمله ففي الفينلاندي ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحسن والأعظم، وكل الصيد في جوف الفرا، ومن قوة الماء تتصور بصور شتى، أحجار تبيعها الصغار مع جدتها كانتكة المصريين فيشتريها السياحون، وربما هاودوا بها والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابتها وندرتها، ونزلت هناك من سلالم من خشب عدتها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابزين، ووصلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيضة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير من الناس الزائرين يكتبون أسماءهم في الكشكات تاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم ١٠٧ / . وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتربورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكيا سلو»، وهو مشتمل على عيون كثيرة وينابيع جميلة، بعضها يخرج من أفواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقى كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فؤارة سمسون أمام القصر القيصري، يرتفع فيها الماء جداً، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حذاء سقف القصر.

وفي أول تموز ذهبت هناك وتفرجت على الوقدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها خلال العيون، بحيث إن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت بولتافا، أُديت مراسم العبادة والشكر لله، وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ، وبعد ذلك أطلقت المدافع من القلعة والسفن، وفي المساء عملت على النيفا حريقة وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولهم، وأخذها ٨ أيلول، وبفتحتها أطاعت كل مملكة كاريليا، بإقامة القيصر في بتربورغ في سنة ١٧١٠م ما كانت إلا أعياداً:

أولاً - بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شيريميتوف ريغا، وفي ٨ آب خضعت قلعة دوناموند، وكذلك بيرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار ارينسبورغ وفي ٢٩ تملك باور من ريفال، وعلى هذا المنوال طاعت بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: ١٠٨/ وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاند في سفينة البخار، أرسيت على ريفال ومكثت فيها نحو أسبوع، وهي بلدة قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جداً، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جداً، صعدتها ونظرات فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسيح تسمى «كترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناء بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعداً لسكنى شاه زادة قسطنطين

وأخيه نقولة، ولدي القيصر الحالي .

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لا في القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة متحجراً كالمومياء، فأبقي عبرة للناظرين وفرجة للمسافرين، ووضع في دهليز الكنيسة، وقد رأته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفر.

وثانياً - بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاه زادة حنا، وذلك أنه في ١٤ حزيران جاء سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي الدول، كان رتب ذلك مع ملك البروسيا عم الأمير، وذلك أن بطرس لما أخذ بولتافا وهزم عساكر شارل ١٢، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليتم له ما يريد من إراحة البلاد وصلاح العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا ماراً على بلاد اللين، وطلب من الملك فردريك الأول المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم ير في تلك المعاونة نفعاً لبلاده ١٠٩ / حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس وأكدها بوعدة أن يتزوج ابن أخيه بنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند للأمير متوارثة. ولما رجع إلى روسيا مرّ على مدينة كورلاند، ولما وصل الأمير بنفسه إلى ريفال أهدى له مينتشيكوف حجراً أزرق شفافاً عجيباً ثمنه ٥٠,٠٠٠ مجر وحصاناً تركية، وفراء ثمينة وتحفاً أخرى، وألفي برميل دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي ضرب بلاد ليفونيا واستونيا أن يعمل كرنينة قبل نارفا، وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيمتين مزيتين و ٤٠٠ فارس لحفظه و ٥٠ لحراسة الموضع الذي هوفيه، ووصله هناك أول مكتوب من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم وقدمه بطرس إلى خطيبته وأمها وصار يراهما كل يوم، وبهذه الفرصة زادت الأفراح، ففي ٢٦ آب ذهب أهل القيصر إلى شليسبل بورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل ميتشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله الجنرال ابراكسين، وفي ١١ عمل مثله الأمير تشاركايسكي، ثم عمل قوم آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل ميتشيكوف ليلة رقص ثانية، ودام الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغيره الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٣١ تشرين الأول أشهر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، وهذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة. وبني بطرس في هذه السنة ١٧١٠م، في محل يسمى فيكتوري (يعني النصر) دير اسكندرينفسكي، وهذا الدير كبير جداً، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسىكت.

١١٠/ وفي عيد اسم الاسكندر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجا، وزيادة على القصور والأبنية في المدينة، أحدث القيصر قصوراً خارجها، فأول ذلك قصر كتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك. كل ذلك محفوظ إبقاءً لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرينغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنية كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسيح خصوصاً يوم الأحد، وفي أول أيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصرية كل سنة، والأول يوم مشهود، كثير الزحام الفرح، لأن ذلك أول اخضرار الأرض وإشراق النبات، ثم يعمل الرخام بعد ذلك:

كالبدل لا يُرتاد وهو منور وترومه الأبصار وهو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضاً في المدينة بيت للبوصطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيه، ولا يضيعون الزمن في تفتيش منزل، وكذلك رتب معامللاً للأجر قريبة من المدينة بحسب الإمكان لغلو الأجر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقة المتتابة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢م، نزل من المنجرة بموكب عظيم،

الغليون الكبير المسمى بولتافا الذي ابتدئ فيه الشغل سنة ١٧٠٧م، ولا زال في كل سنة ينشئ وينزل سفناً عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصاً في أيام أعياده وأعياد أهل بيته، وقد رأيت إنزال سفينتين من منجرة بتر بورغ إحداهما باسم الإسكندر ولي العهد، والثانية باسم زوجته مارية، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلا عند حضور القيصر والعائلة الامبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد، ولا تعب ولا علاج في إنزالهما بل أزلقوهما مع قطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هذه القطع وعامت، وعند النزول ضربوا الموسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان ١١١ / السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيها.

وفي سنة ١٧١٣م حاصر القيصر بطرس هلزن فورس ثم رجع إلى بتر بورغ. قلت: هلزن فورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر اسكندر، والآن تذهب إليها السياحون في الصيف لطيب هوائها وللاستحمام فيها، وقد ذهبت إليها صيفاً، ورأيت في مينائها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبوغاز الاستانة المحروسة، وأي مركب تقدر لا على العبور إذا لم يكن لها إذن، وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها تقد لإعطاء أوراقها، فما أحصن هذه المينا، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتر بورغ في البناء، وتوسيع الطرق، إلا أن الممشى بها قليل، ولعله يصنع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمومية تسمى الأونيفر ستيت، فيها مقعد كبير فيه طاولات التلامذة موضوعة بالتدرج أعلى فأعلى، وفي صدره صور اسكندر الأول وعمود مكتوب فيه اسمه وتاريخ تأسيسه. هذه المدرسة سنة ١٨١٥م، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبوه، فلما حرقت سنة ١٨١٨م، نقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سينوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوفة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحصن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع في الأمطار، وحوله غدران من الأمطار،

وهناك منجرة ومحل للأسلحة كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكراً لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز ١٨٣٣ م، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويعهم بشأنهم.

١١٢/ وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتر بورغ، وفيها زين كنيسة التليث بناقوس كبير أخذته الدنمما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أخذت منها، وجعلت أساس خزانة كتب اكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طبع في بتر بورغ، وهو كتاب إغارة عسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح بولتافا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر من جملتها؛ سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندية عجب الناس، ولما مرّ على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم من الرز والزبيب والخمر ونحو ذلك ١٥ رُبلًا، لكن برودة الهواء ورطوبته في بتر بورغ خصوصاً في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعمل بقرأ وحفظ إلى الآن، وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم. قلت: والآن في تسارسكيا سلو فيل من مدة سنين تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بُخارى الذي وصل سنة ١٨٤٩ م حمل معه أيضاً فيله، لكن ما وصل إلا في الصيف بعد موته هو في بتر بورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والناس على دين ملوكهم، فبنى الأمير غاغارين حاكم سيبيري بيتاً عظيماً وبقربه بنى الأمير شانيروف وزوتوف وغيرهم، وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى دير مار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيفسكي بروسبك، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بتر بورغ.

١١٣/ ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أولاً الطريق واسعة طويلاً وعرضاً ووسطها مبلط بالحجارة وفي وسطها بلاليع لشرب ماء المطر، وما هول الحجارة من الطرفين مبلط بقطع الخشب المرصوفة بحسن الترصيف وعليها تمر العربات مسرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة المبلطة بالحجر الصوان لمشي الناس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر، وعادة الكبار التفصح في نيفسكي قبل الغداء خريفاً وشتاءً، فهو ملتقى الأحاب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة من كتب موقوفة أخذت في حرب أربيل، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، ويجوز لكل من يريد المطالعة فيها أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزانة، إلا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلا بإذن خاص.

وكم رأيت هناك زيادة على الأوروبيين من فرس وروم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضاً التياتر الاسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحديقة لطيفة، وفيه أيضاً السوق الكبير غوستولي دفور، وهوبنية عظيمة، مربع الشكل، يباع فيه كل شيء. وفيه أيضاً بنية عظيمة أحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على مخازن عالية، فلذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

ثم عمل القيصر فبريق شمع من ناحية فيبورغ وسوقا في جزيرة بتربورغ، وأراد أن السفن المتجارية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند ١١٤/ في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيرها القيصر بنفسه مثل

الملاح إلى الجزيرة ، وضرب صفيحة عليها نقش صورته لتذكّار فاتحة التجارة الخارجية .

وفي سنة ١٧١٤م ذهب القيصر إلى ريفال لتأسيس المينا، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد وجلبت إلى بتر بورغ، ونقلت المحاكم من موسقو إليها، وأمر القيصر بإحصاء بيوت بتر بورغ، فوجدت ٣٤٥٥، ووفد عليه سفير حاجي محمد بهادر خان أزبك، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد، وأطلقت المدافع في القلعة، وتبعه ٣٠٠ سفينة، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدنما الروسية ومينائها حصينة جداً، بحيث لا يمكن بها لسفينة العبور إلا بالإذن، وكم فيها من سفن وبوارج بعضها من أربعة أدوار كبار راسية كالجبال بمائة وعشرين مدفعاً وأكثر، وهناك مدافع مرصوصة، وقد دخلت المدينة من البوغاز بعد أن جازوا الجواز، فوجدت أبنيتها كأبنية بتر بورغ إلا أنها مثل ضواحيها، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية، وبها ترسوخانة أمامها فسحة كبيرة في وسطها صورة بطرس الكبير فاتح البلدان واقفاً على عمود وبيده سيف، وهذه الصورة مصنوعة في سنة ١٨٤١م، وهي محتشمة جداً وبها جنينة كبيرة تسمى «جنينة الصيف» لطيفة المنظر، فيها كشكات لطيفة، وفيها منظر عال، أمامه عمود أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريخ ١٧٠٣م، وصعدت هذا المنظر، فرأيت منه البحر والسفن، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة.

وفي الجنينة فسقتان كبيرتان مربعتان، في وسط كل زورق صغير جداً في غاية الظرافة بصاري لطيف، وهناك خليج مرصيف لتعمير السفن تنزل فيه السفن المراد تعميرها ثم يوضع حاجزان من الطرفين ثم يخرج ١١٥ / الماء بالتو تعمير المركب، وحين تتم العمارة يرسل الماء وتطلق السفينة تجرى إلى البحر. وفي اليوم التالي سافرت السفراء ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سفينة، فأما القيصر فوصل بلا عائق، وكذلك السفن التي تبعته، وأما سفينة السفراء وأعضاء

المحكمة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الرئيس والمستعمل، ولَبَخَتْ في الخوص وتَعَوَّرَتْ، وفي اليوم الثالث تضاعفت الصاعقة وأُنذرت بالهلاك. وفي اليوم الرابع خلصت من الخوص بواسطة سفينة أخرى أرسلها القيصر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الفرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، وبعد الجزع والفرع والهلع، قَنَطَ وتَغَطَّى ورَقَدَ على المطوبة (أي سطح المركب ينتظر الموت)، وأمر الملا الذي معه أن يدعو الله، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيهما أَمَرَ القليصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٣٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أولاً مائة نفس يبنوا لهم بيوتاً في المحال التي تعطى لهم المملكة، وأمر الأغنياء والملتزمين والتجار ونحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيراً من المأمورين خصوصاً البيار (يعني المتلزمين الذي اضطروا إلى ترك مسوقو وطنهم العزيز وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصصة)، كما قالوا إلا بالدموع والمنتععات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقاً:

أمر على ربهم ساحلاً فأرجع من دمع عيني خصيباً
فوا عجباً لبحار الدموع وما أطفأت من فؤادي لهيباً

لكن بطرس لم يتفكر إلا في عاقبة وطنه السعيد، واستبدل الراحة الجزئية براحة العموم، وما فكّر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائماً في المعارك، فذهب وحارب وأسرَ قبطان السويد إبرنسشليد مجروحاً بعد ساعتين من حروب خطيرة سَفَاكَةً، وسطوات فتّاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٣٥٢، وأسرَ الباقيون. وقتل من الروس ١٢٤ وجرح ٣٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس أبو بلا عائق، وكتب القيصر إلى مينتشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في

هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانساً حبس جم غفير من جنرالات وفيلد مارشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دننما، فنخبرك بنصر مبین ما كان له نظیر إلى الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السنة من الفینلانڈ، منها مدينة قازا وقلعة نیسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفینلانڈ، ثم رجع إلى مدينته ظافراً، ودخل بموكب عظیم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترنیغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دبرت عليه الأوقات، فما كان يفعل إذ ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهنىء بذلك، وحصل له السرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي أو ستروف في قصر إشراقة مینتیشيكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من جملة الحاضرين قبطان السويد إبرانسلید، فقال القيصر للحاضرين مشيراً إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعاً خادماً أميناً لملكه مستحقاً ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضاً لإكرامي، ومع أنه قتل من رعيتي كثيراً من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلا الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق رعايتي له لا تنقص أبداً، فعند ذلك قام القبطان ورق قلبه، وبعدما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلا ما اقتضاه الواجب، وإن لم ١١٧/ الألق الموت الذي طلبته في معارك الحرب فمما يسلبني الفكر بأن غالبی ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنني سعدت بالتماس أمانه وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبّر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن يذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسبل بورغ من الترسانة ٢٨ تشرين أول، وهذا الغليون ابتدأته اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابة العقلية، وقادوم الشنان، تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: يا إخوتي، من كان يقدر

منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هناك على ساحل بحر بلطيق أن تغلب أعداءنا في دننما بنيناها بأيدينا وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل كنتم تظنون في قليل من الزمن، تشاهدون جمّاً غفيراً من العسكر والنواتية شجعاناً مجريين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليس فقط بالأهالي المولودة في روسيا بل بالمحترفين وبالأسطاوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا وتوطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنورة. المؤرخون نسبوا إلى الروم الشرف بأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلاهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل الأوربا، ودخلوا اللين وما وصلوا إلينا قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه، الغرمانيا (Germanya) واللين قبل ظهور العلوم فيهم، وبواسطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن وتصدوا بنفسهم إلى نشر ١١٨/ هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقاً في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تقرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريان الدم في جسم الإنسان، وأرجو أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر بلاد الروم وطنها القديم، والكاشف أن الروس ينجلون الأمم المتمدنة يوماً، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفئ التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون اسمهم على قمة المعجد المنيرة.

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سمعت بغاية الإنصات الديني وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقيقة كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفاً للقيصرة نشان كترين شكراً لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها

أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كل ما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث إن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمالة، ثم بعدها شاه زادة حنا بتروفنا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة صاري عسكر، ثم قرت عينه برؤية رهائن الروس من اسلامبول.

وفي هذه السنة كتب فرماناً ٦ تشرين أول بعقاب النفي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتربورغ ١١٩/ إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا فرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول فرماناً آخر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتربورغ لا بد أن تحمل معها بعضاً من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربة بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلأ عشرة أرطال، والآتية في العربات لا بد أن تزن خمسة، ومن خالف فرمانات فعليه الغرامة عشرة كبيكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصاً إلا بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا سبب كثرة اللصوص والمعاكسين الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلاً من أهل الخبرة المجريين لأجل الجمر ك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لسته عشر لساناً وهي الروسي والليهي واللاتيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيما رقي والإيطالياني والاسبانيولي والرومي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والقلموقي.

وفي سنة ١٧١٥م اعتنى القيصر بتحسين المدينة واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعاً، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت إلى بترغوف ومن هناك إلى كراسني سلو. الخ.

وفي أول هذه السنة أشهر عرس الأمير توزوف وكان عمره ٨٤ سنة وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل رقص مسخرات، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم غريب، وعقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلا بغاية الصبر، وقصد القيصر من ذلك فكهة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة. وفيها أرسل القيصر سفيراً إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سييريا حكيماً، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتتم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيباً إنكليزياً كان في عسكره وأصبحه بمهندس.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد وسمي على اسمه بطرس، وأشهر فرح الولادة أسبوعاً، وأرسل القيصر إعلانات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكرياً شاباً اسمه كاسمي، وأترجاك أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم»، وكتب مثل هذا إلى فون هوفت، غير أنه قال: نواتياً شاباً وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: أرجو الله أن أراه يوماً تحت البندقية.

وفيها أسست أكديما الملاحة وتلك قوتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافر سافرتين لرؤية البلاد الغربية فنفسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلا لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها أحب أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من

الحيوانات والطيور والأسماك والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير ذلك من أشياء الصناعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئاً بقيمة ١٥,٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند سنة ١٦٩٧م، وبقي في موسقو. وفي هذه السنة ١٧١٦م، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجار المعدنية، ومن الودع ١٢١/ اشترت من العالم غوتفالد، وكتب عظمة جلبها ميتتشييكوف من كورلاند سنة ١٧١٤م، وبعد سنة ضم أيضاً جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشتراها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي أوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزداة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتو على عدة أوضاع واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسماك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرج العامة فتذهب الناس أفواجا لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنة ١٧١٧م، حفر أربعة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانس، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة الكونت بروس. وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثنا عشر سجيناً، وناقوساً أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥,٠٠٠ ربل خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٠م.

وفيها أهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جداً بحيث تكلفت مبلغاً جسيماً في نقلها براً من كيل إلى بتر بورغ أهداها له دوقه شليشبل هولستين لما عرف شغفه بالعلوم، وفيها ابتدء في بيت لعب التياتر بمعونة شاه زادة نتاليا الكيسيفيا.

وفي سنة ١٧٨٠م قضية ابن القيصر شاه زادة الكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاندته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج روسيا، كل ذلك

أغضب القيصر حتى هدد بحرمانه من إرث التخت ، لكن لم يفعل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد ، لكن لما ولد بطرس الثاني وَلَد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح ، وكان ذلك بلا طائل :

إذا أظهر الدهر شخصاً ليياً فكن في ابنه سيّء الاعتقاد
فلست ترى من نجيب نجيباً وهل تلد النار غير الرماد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالبಾಗಿ ، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفرع ، وملك قلبه الهلع ، ووقع في حالة الغرغرة ، وبلغت الروح الحنجرة ، ولم تنفع اجتهادات الأطباء ، ولا تسلية الأحياء المحققين له عفو والده ، ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة ، كأنه نسي عيوبه وأفعاله :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع

وفيها أمر بإحداث ضابط سياسي للمدينة ، وترتيب كونسلازية السياسة ، وقواعدها منحصرة في ١٣ نوعاً :

- ١ - الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل .
- ٢ - أحكام شواطئ الأنهار والخلجان وحفظها .
- ٣ - السرقة .
- ٤ - النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجارة الوقود .
- ٥ - النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمرتها ووزنها .
- ٦ - رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر .
- ٧ - فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة .
- ٨ - النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستوقدات .
- ٩ - النظر في البيوت المتهممة والألعاب المحرمة .
- ١٠ - إمساك المساجين والهربانيين والبطالين .

١١ - إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.

١٢ - الاعتناء بإمساك المؤذنين وإطفاء الحريقة ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.

١٢٣/١٣ - الاعتناء بنصب مسدّات في المدينة وأون^(١) باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤ - إسكان النظام في بيوت الناس أيّاً كانوا كباراً أو صغاراً.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبنى البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن، وشواطئ الأنهار والخلجان مرصفة أحسن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مراعاة، ففي الخريف والصيف، بكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس الثلج وتنظيف المماشي منه، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا وإذا جمد حكه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه، فدائماً يمكن التفسح بسهولة، وأمّا طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلا في آخر الشتاء، وكذلك الأسطحة قبل أن تحلل شمس الربيع ذلك، فيكون البلل والوحل، وأمّا شمس الشتاء فلا تحلل الثلج بل الصحو والنشف غالباً عند شدة البرد، فكأنها تبرد كما قيل:

يوم تود الشمس من بردها أن أت النار إلى قرصها

وكذلك القناطر في غاية المتانة والظرافة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في

(١) أون: عشرة، أون باشي: رئيس عشرة، الكلمة تركية.

الحال، وأمّا المداخن، ففي كل أسبوع يأتي الهبابون لتنظيفها لما أنها مظن الحريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة فحينئذ يولع فانوس لإعلام الناس، فيأتي المطفئون بالطرنبات وغيرها من آلات الإطفاء وأمرهم في ذلك عجيب، والفلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلا بد من التعليم على تذكرة مروره. ولكل أحد تذكرة يغيرها في الغالب كل سنة، ويدفع شيئاً مخصوصاً، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسب صغر البيوت وكبرها، ويمشي البواب أمام البيت في الليل بعضاً يخططها على الأرض، وفي البيوت الميرية زيادة على ذلك حراس وديبنات، وللأقوات من طرف الضابط سعر مخصوص يكتب في الجرنالات لتعرفة العامة، ومن طفف في الكيل أو الميزان فعليه الغرامة. والمجرمون يُقادون في السلاسل ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسّادة على المؤذين كل طريق.

رجع وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حذب، كي تنشطهم وتلين طبائعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه الملهيّات تفكر أنه بقي عليه أيضاً تقريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للذات اللطيفة التي ما عرفها الروس، بل ولا تصورتها قبله، ويأن يسهل العلاقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلّا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في روسيا، لكن كل ذلك معارضاً بحجر الآباء والأزواج، فكنّ يعشن في الخزن بلا رجاء ولا حظ ولا ميل بسبب حجرهن في البيوت، فلم يبق لهن إلّا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئاً من معيشتهم بالسكون والهدف والصلاحي، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت المرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلاً، ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدعى من امرأة متزوجة حرمت

في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن ١٢٥/ أن تقيس ما يقال وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتتحدث معه وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الهيئة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المبتدأ بين أكابر الجمعية بسقت، وانكشفت بالتدريج رغماً عن اجتهادات القيصر، وعاشت أيضاً تحصيل مقاصده لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨م فرماناً لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء، سواء وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أياً كان بلا تضيق، فتأتي الناس ليس فقط من شان الحظ، بل من شان أشغالهم أيضاً، لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها، وها هي :

١ - إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعلم الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بالكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.

٢ - الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمس بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

٣ - صاحب البيت ليس مضطراً إلى ملاقة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم وموانستهم، بل بقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيء ذلك الأوض بالسفر والنور اللازمين والمشروبات التي يطلبونها، وأن يضع على سفر مخصوص ما يلعب به كالورق.

٤ - لا تعين الساعات بل الضيوف يقدر أن يجيئوا في أي ساعة شاؤوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ولا بعد ١٠.

٥ - يمكن التفسح واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرارٍ لآخر، ١٢٦/ ويمنع من القيام عند ذهاب أيّ كان، ومن توصيله إلى الباب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كأساً كبيراً عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الإثم ويحتسي فقط. يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلاً للسلام على الجماعة.

٦ - يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

٧ - الخَدَمَة والقواسة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكنهم في المدخل أو في محل آخر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضايقات ونحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

٨ - الرقص في أوضة، وفي أخرى يُلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشرب الدخان والسيجار، وفيها سفرات عليها الخمر والكبريت. . . الخ. والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهراً فيها بحيث يندر من يغلبه.

وأول الجمعيات كان عند ابراكسين، ثم عند الأمراء، ثم عند أهل الاعتبار. وفي يوم الجمعة يحضر رئيس السياسة يكتب أسامي الواصلين، ويحيي القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الامبراطورية، ويفتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنجليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى إنهم زماناً طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم. وفي وسط أدوار الرقص تحضر الستات الشاي والقهوة وشراب العسل وغير ذلك، وبعد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوق هولستين فعل ذلك أولاً فاتبعه الناس، وهذا الدوق أول من أظهر لكبراء بتر بورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها ١٢٧/ من ويج، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلا أصوات الطرنبيطة المصمتة والبوق ونحو ذلك، وكان ذلك حسناً يفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة. وفيها حفر القيصر خليجاً بين النيفا وفولكوف دفعاً لخطر الغلال ونحوها إذا أحضرت من طريق آخر.

وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغربية، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوصطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدروف، وفريقة بُسُط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المدينة في هذه السنة زيادة على الأمور النافعة اللازمة أصناف الفنون والحكم وأنواع الترفه والنعم.

سنة ١٧١٩م فيها أرسل القيصر رجلين عارفين، لكشف شبه الجزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١م، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرحل آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أول نيسان كوميديا عجيبة، فأحطع الناس زرافات ووحداً لرؤية اللعب، لكن بدل الكوميديا رأوا ألواح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أول نيسان»، ففهموا وسروا بمباشطة القيصر لهم، كما يياسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعباً في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يدسّي عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوع آخر، وذلك أنه ذهب أول نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر ١٢٨/ بإحراقه فسارع الناس والعساكر بآلات الإطفاء، فسرهم اجتهدهم وغيرتهم، وقال للجماعة مبتسماً منبسطاً: هذا أول نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم. وفيها غنموا من السويد

ثلاث سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، ضربت صفيحة لتذكّار هذا الفتح .

وفيها تحمل بناء تسارسكيا سلو وابتدأؤها في سنة ١٧١٠م، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقاً عريضة، وبنيت فيها قصر بغير علم القيصر، وعندما تم عرضت عليه أن يذهب معها للتفسيح، فلما رأى ذلك سُرّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت متنزهاً لسكان المدينة يذهبون إليها كل يوم، والآن زادت حسناً وجمالاً وبهجة ودلالاً .

سنة ١٧٣٠م فيها غنم الروس من السويد ٤ فرقيطات، وأنعم القيصر أولاً على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير غالييتسن الغالب بسيف وعصا مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالة يشكره فيها، ورقى رتبة معاونيه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضروبة لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق المدافع، وبالصلاة في الكنائس شكراً لله، وأمر أن تدخل السفن المكسوبة بموكب عظيم إلى بتر بورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونصب هناك حرم من الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرّج، وعملت في الليل حريقة أمام الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع الفرقيطات، ومع كبر المدينة يوماً فيوماً، وازدياد السكان وقتاً فوقتاً، وتكاثر الفتوح حيناً فحيناً، وتظافر العلوم والفنون آنأ فآنأ، فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقاً صعباً يتعب ١٢٩/ القيصر في قطعه، وثعباناً لساعاً لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٣٠م أن فلاحاً كان يدعي الكهانة، وقال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسكان، ويرتفع على الشجر الموجود في القلعة، فصدّقه كثير من العوام، وجم غفير من الطغام

والتجار إلى أعالي بتر بورغ، لكن القيصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠م قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذب الله أقوالهم، والله در أبي تمام حيث حضّ على عدم سماع هؤلاء الدجالين فقال:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الفصل بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والرّيب
وقال آخر:

دع النجوم لطرقى يعيش بها وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إن النبي وأصحاب النبي نهوا عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

وكما وقع أيضاً في سنة ١٧٣٠م أن قوماً أهل سوء خدعوا الناس، فلما دخلوا كنيسة التليث، وجدوا الدموع تجري من صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهموا بالخروج، وكان القيصر غائباً ذلك اليوم، وما قدر الكونت كالوفكين أن يُسكّن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب، وعوقب، وأظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدّن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيراً في قمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجو أن تندفع ١٣٠/ بهمة ولده مولانا السلطان خليفة الوقت والزمان.

سنة ١٧٣١م، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير غالييتسن رئيس الدنما التي في فينلاندا بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف في ذلك الصلح على أن أستونيا وليفونيا واينغرى،

وجزءاً من فينلاند مع مدينة بتر بورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أطلقت المدافع، ودقت الطرنبيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهم بانقضاء الحرب وعقد الصلح. وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرض متلقداً بحمالة مار أندريا، وسلم على الناس بالحشمة، وقال: «أسلم عليكم أيها النصارى الحقية، اشكروا الله القادر الذي أعطانا وأعطى السويد صلحاً خالداً بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة»، ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلاً: «أسلم عليكم يا أحبائي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها من الحرب». ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقى أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبة الضابط، ونشر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحارات متلفعين بشملات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتبعهم الطرنبيطات.

وفي المدينة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سنيات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكراً على سعيه الجميل أن يتلقب أب الوطن وامبراطور كل روسيا وبطرس «الكبير» بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتوسيع الرقعة، التي كانت روسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقته ١٣١/ واعتناءاته الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أولاً تواضعاً لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أولاً مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا الناس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجب حقه وحرمة، فقربت كبار القسس من القيصر وشكره الكونت كالوفكين من طرف الرعية على إخراجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجد العام، وعلى إخراجها من العدم ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم

ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفاً، ثم قال: «نحن لا نقدم لك باسم رعيتك إلا ما تستحق الحياة، الحياة الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل روسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس وأطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلما سكن الصدى رق القيصر بأعلى صوته:

«أتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكراً صادراً من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نغفل صنعة الحرب، وألاً تقاسي روسيا ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشتغل في النفع العمومي، ونحقق المنافع التي من الله بها علينا داخلاً وخارجاً، لنخفف بها أثقال العامة»، ثم صلوا وقرأوا الإنجيل، ثم أطلقت المدافع أيضاً، ثم جثا كل الناس وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفقة «الحياة للإمبراطور، الحياة لأبينا»، ودقت الطرنبيطات ١٣٢/ والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سنيات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص، وبعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحبوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقي من سنة ١٧٠٠م إلى سنة ١٧١٨م التي كانت ملايين، وكذلك غرامات في كل مملكة روسيا، وعملت للعامة وليمة مخصصة، مركبة من ثور قمين ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة، ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر، ثم بعد الرقص عملت الحريقة، ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبة منها معبد بانوس وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠,٠٠٠ نور مختلفة الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنه سلاح الروس، والآخر سلاح السويد تقارباً قليلاً من أبواب المعبد وتصافحاً علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبطاط، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جداً، حتى كانت أسوار بتر بورغ والنيفا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال الحق يفحص برجله جنية، وعليه مكتوب «الحق دائماً يغلب»، وعلى الشمال سفينة تاركة بحراً عاجاجاً لأجل أن تدخل في المينا، وفوقها مكتوب «إنما الأعمال بخواتيمها»، ودامت الحريقة إلى ما بعد نصف الليل، ورجع القيصر إلى سنيات، وهنا الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى الساعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة وجوزي كل من حارب السويد من الضباط والعسكر كل على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السويد ايرنستشليدا المذكور سابقاً بإعطائه صورته المرصعة بالماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السويد ١٣٣٣/ على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصه أنه في الأشغال التي كان فيها أسيراً أبلى بلاءً حسناً، وأظهر الشجاعة التي لا تنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة، فلما وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رقاؤه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار، يعني عربية الزحلقة مع عياله ومع عرضيين من الخفر لإشهار ذلك الفرع فيها أيضاً، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصرية، ومحال للعربات الامبراطورية، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أول مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيفا في هذه السنة، و ١٠ كانون الأول وبلغ ٧ أقدام، و ٤ أصابع، وفاض الماء في الحارات وقطع العبور ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤م، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذلك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢م فيها قضى القيصر جزءاً من السنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عن أُوخته وحارة بكنيسة النجارين الذين يبنون المراكب.

سنة ١٧٢٣م فيها، وصل أميراً هيس هومبورغ أخوان، البكري عمره ١٧ سنة، والثاني عمره ١٦ سنة، وسألا الدخول في خدمة روسيا، وقبلاً، وأُعطي لكل رتبة قبطان وجامكية ستة آلاف ربل في السنة.

وفيها ٢٦ آذار انسَرَّ أهل المدينة بفرح أُعلن أكثر من سائر الأفراح، وزاد به للسكان البسط والانشراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسسي ميخايلوفيج زورقاً، وفي سنة ١٦٩١م رآه بطرس وهو شاب في قرية ازمايلوف، قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في روسيا، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأنهار جذب ملاحظة بطرس وسأل عن أصل الزورق، ولما علم أنه يمكن أن يعوم ليس فقط بواسطة المجاديف، لكن ١٣٤/ أيضاً بواسطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشتاق إلى وجود من يعرف أن يُسيره، فكشف في موسقورجل هولاندي إسمه برانت، كان مستعملاً في أيام القيصر الكسي في الفرقطة المسماة «أرول» يعني النسر، المصنوعة لجماعة التجار الروسية على بحر كيلان، والمحترقة في سنة ١٦٧٠م تحت أسوار استراخان حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسقو، وآل حاله في مدة عشرين سنة إلى الفقر المدقع، والضنك المجمع، لا يعيش إلا من صنعة النجارة، فأخذ إلى بطرس، وعمر الزورق، ونصب فيه صاريًا وقلوعاً كافية. وصار مقاطعاً لتيار لاوزا بمراى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه، ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسرعة تعلم مسك الدفتر بالشاطرة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسها سبباً لمجد روسيا الأثيل، وتمدنها الجزيل، وعزها الجليل، وجولانها في البحار إلى البر الأبيض «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

فلما تمّ الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدننما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة،

وبسببها قُلد بطرس نيشانات النصر الموقور، ولُقّب بالامبراطور، وسُلّم عليه باسم الكبير، والأب الخطير. لم يكتف القيصر بعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجارة مشاركيه، ومكافأة معاونيه، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السعادة السرورية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسبل بورغ في ربيع سنة ١٧٢٣ م.

١٣٥/ بعدما استراح ٣٠ سنة، وفي ٢٨ آذار فخرت الدنما المزيّنة بأحسن زينة في النيفا، وأطلقت مدافع القلعة، وأرسلت الدنما عند ديرنيفسكي ومكثت طول النهار.

وفي اليوم الثاني، وصل القيصر في الزورق يسيره بنفسه هو وكالوفكين والرئيس سيناوين، ويتبعه ٩ سفن، فلما وصل الزورق أدنت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنيطات، وأطلقت المدافع، ودقت الموسيقى العسكرية، وفي اليوم الثالث ذهب القيصر في الزورق، ورفى إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الأمير بديراسموليني رحبت القيصرة بهذا الزورق الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة التثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعاء والصلاة، ثم خرجوا، وأطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سنيات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أولاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدنما، ثم عملت الحريقة في الليل. بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليبس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة تخلف بعض الملاحين عن حضور هذا الفرح المتين غرمهم ١٥ ربلًا لكل سفينة.

ومنها طاب الهواء في نيسان وأيار وحزيران، فكانت الدنما كل أسبوع تجول

في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد إذ لا سرور في هذه المدينة أعظم من طيب الهواء وانقشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال:

١٣٦ / أنا والله أضلُّح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهي

وبالجملة فقد صدق من قال:

إنني أطلعت على الديار وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فتارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدننما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعاً لإشهار النصر أيضاً، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الكثير المنعقد للروسيا، وما نزل الزورق في القنجة وعام الدننما تشيعه حتى وصل إلى باب القلعة، وأُخرج إلى الساحل، وسُلم لحاكم القلعة للحفاظ فيها تذكرة للدننما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصروف جداً، فالبارود المحرق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ ربل، والقارىء يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصروف، لكن هذا عيد أساس الدننما التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدننما.

وفيهما وصل سفير الفرس ومعه تبع ثلاثون نفرأ، وأطلقت لقدمه المدافع وشيعه العساكر إلى البيت المعد له وقبله القيصر، وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفرس بترك خمسة من أخطاها للروسيا، وهي ضاغستان وشيروان وكيلان ومازندران واستراباد. ومن الأبنية في هذه السنة بيت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبرها بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهداً على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصر في جنينة الصيف، وكنيسة التليث، وجزء من

أكديما العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وتبديا فلوسكي ، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠,٠٠٠ ربل ، مدخول خمسة بيوت الآن ، ١٣٧/ وفيها مات الأمير بوتورلين ، وحضر مشهده أهل القصر ، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر ، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه سنة ١٧٢٤م .

من أعظم الأبنية فيها أكديما العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة ، ولتصنيف الكتب النافعة ، وحل المشكلات ، وكتابة الوقائع والتاريخ والملاحظات المتعلقة بالروسيا ، وهذه الأكديما تتركب من رئيس واثنى عشر عضواً ماهراً في أنواع العلوم ، وكاتب وناظر كتب وأربع مترجمين ، واثنى عشر تلميذاً ، وعين للأكديما ٩١٢,٢٤ ربل ، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكونوا من أعضائها ، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتر بورغ ، لكن الله ما أذن لمؤسس الأكديما أن يعيش زماناً طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلا بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥م ، وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازمة أضعفت القيصر وأوهمت جسمه ، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤م إلى الماء المعدني في أولونيتز ، كما هي العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السنة ، خصوصاً في الربيع ، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال ، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج ، وأرسلها إلى بتر بورغ في كنيسة القلعة ، ثم نقلت إلى قاعة العجائب ، ومنها إلى كونست كامير في الأكديما ، وحفظت إلى هذا الوقت ، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير ، ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسقو ، وأشهر تتويج القيصرة بعده لأن الموت لم يُبق له ذكراً وارثاً للتخت ، ثم رجع إلى بتر بورغ ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها ، ثم لما أتم لقومه الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع ، ١٣٨/ وأراد أن يقدس في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرضة الخطوب ومعتك

الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير اسكندر النيفسكي من فلاديمير إلى بتر بورغ، ودفنها في الدير المبني بهذا الاسم، لأن هذا الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنصر، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من ٧ فرست من الدير، ووضعت السفينة التي أمسك القيصر دفنها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القטיפفة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تشورن ريتسكه، يعني الخليج الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامة في ٣٠ آب وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السعيد على الروسيا، وأن يقوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفاً.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقه الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة لمباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له، لكن لازمه. ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولوينتز، وطرق بيده صفحة جديدة وزنها ٣ بود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته، ثم رجع إلى لاختا في عشية مَطَرَة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقاً آتياً من كرونشتاد وتلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانتته زورقاً، ولا زال مُتبعه نظره فلاحظ غلبة الموج للجميع وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظراً بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ فترك في الماء ١٣٩/ إلى الحزام بلا حزم لفرط الرأفة وعموم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سبباً لاخترام المنية وفراق المعاش، فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥م، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتر بورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الحِيل :

كلُّ شيءٍ قاتلٍ حين تلقى أجلك

ثم في ٢٦ وجد خفة لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب لكن وقعت من يده الريشة وآذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب روسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقض حتى حلول المحاق وزاؤل:

توقى البدور النقص وهي أهلةً ويبدو عليها النقص وهي كوامل

وكسفت شمسها المنيرة في الآفاق، ففاضت عليها بسحاب الدموع المآق، فسبحان من لا ينفذ ملكه ولا يبقى إلا ملكه، له الحكم وإليه ترجعون.

الفصل الثالث

لما انتقل القيصر بطرس الكبير إلى الدار الآخرة، وبقي اسمه مخلداً ومفاخرة، خلفته في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته كترين، وقد سلكت نهج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنّت قريباً من مائتي مدينة، وملكّت قريباً من ثلثي بلاد اللينة الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتر بورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس ١٤٠/ الأول، وكان عاش طول عمره في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبنى في شارع نيفسكي كنيسة للوتيريانيين، واتخذ قصر ميتشيكوف في وسيلي أوستروف مسكناً له، وسماه بتسمية نوفويري أوبرازتسكي، والقيصرة حنا يوحانوفنه، وأظهرت رجحان بتر بورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكانها قصر قبطان الكونت ابراكسين على النيفا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبنى محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب

اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتر بورغ.

وفي زمانها أيضاً عمقت مويكه، وبني محل كبير للعسكر عند قنطرة ازمايلوف وبدل بيوت الخشب القديمة التي كانت بيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل القصري لا يبنى غير بيوت الحجر، ونقل بيت الأجزاء من القلعة إلى حارة مليون وزيدت عدة كنائس ببناء كنيسة الصعود التي سميت باسمها حارة فوزينسيكي، يعني «حارة الصعود» وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سنة ١٧٣٧م، ما كانت تجاوزت بتر بورغ من ناحية الجنوب حدود فونتانكه التي لا تتميز بحسن الأبنية، وفي الجهة المسماة فيبورغسكي سترنا ما كان زيادة على معمل البوزة الهولاندي المنقلب إلى أكديميا الحكمة والجراحة إلا حارتين أو ثلاثة، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشغل دائراً في حارات وسيلي اوستروف المسماه الخطوط، وما كان جاهزاً حقيقة إلا الأول وبتر بورغ القديمة، كانت كثيرة السكان، لكن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من ١٤١/ بتربورغسكي سترنا خليج كاربوف لم تكن إلا خميلة عريضة غلباء منطقة مملوءة ليس فقط بالنباتات الغربية والأوروبية، لكن أيضاً بالنباتات الآسية والإفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء. ولم تزل القياصرة تعتنى بتربورغ التي صارت تحت المملكة الجديدة، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحس، اقتضى زماناً طويلاً ومالاً جزيلاً، وتعباً جليلاً، وذوقاً جميلاً، واليزابيت على الخصوص اعتنت بها، ففي أيام ملكها شادت كنيسة نقولة البحري المفتخرة بقباب مذهبة، ومنارة كبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوى على ساحل النيفا أمام أخته عند حوش اسموليني دير التليث للنساء، وكنيسة التليث المشهورة التي بناها المهندس المشهور الكونت رستريلي، وهذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سنة بلا أبواب ولا شبابيك، وكمل بهمة

القيصر الحالي نقولة الأول. وهذا الكونت قد زين المدينة في أيام القيصرة إليزابيت بقصر انيشكوف في ١٧٤٨م، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤م، وكمل في سنة ١٧٦٢م، بعد موت القيصرة، وفي سنة ١٧٥٥م، وضع أساس غوستين دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقه، وما كمل ووصل إلى المنظر الجديد الذي هو فيه الآن إلا في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥م، وكترين هذه اعتنت جداً بتر بورغ وكبرتها وحسنتها واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيفا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى تسارسكيا سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وأحدقت جنيحة الصيف بدرابزين كبير، حسن الصنع، عجيب الوضع من السبع المعادن، وزينت بتر بورغ من ناحية ريغا بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط بيافلوفسكي وغاشيتين، وبنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة ووضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسية، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين الثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظماً وحسناً ومعنى، وزين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلاً، وطوله ٦٥ سجيناً وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جداً في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون، ونحوهم وفي الدور الأخير مسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائماً في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه يجلس القيصر للسفراء وعمل الخدم والعبادات القيصرية، وهناك مقعد الرقص

ومقعد المرمر ومقعد جرجيس المزين برايات كل العساكر وبيارقهم ، ومقعد التخت كان فيه تختاً عظيماً على الذوق القديم بأربع درجات مغطى بالقطيفة الحمراء ، وهذا التخت يتركب من كرسي عظيم مغطى أيضاً بالقطيفة الحمراء وقبة مزينة بالتاج القيصري ، وكل التاج القيصري الكبير مسبوك من العسجد ، وفي خلاله القطيفة الحمراء ، ومرصع بالجواهر وأعلاه مرصع بالياقوت الكبير كبراً خارجاً عن العادة ، والتاج الصغير مرصع بالألماس ورأس قضيب المملكة ١٤٣ / مرصع بقطعة ألماس كبيرة اشترتها القيصرية كترين الثانية من الرومي سافراتسيا بنصف مليون ربل فضة ، يعني بمليون وثمانماية ألف ربل حوالة ، لأن الربل الفضة في زمان كترين كان يساوي ٣ ربل ، ٦٠ كيبك ، والآن يساوي ٣ ربل و ٥٠ كيبك ، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش ، لأن الربل يساوي ٥ قروش . والعسكرة القيصرية مرصعة إلى أكثر من النصف بجواهر ثمينة مختلفة النوع والمقعد الفيلدماريشالي مزين بصور الفيلدماريشالات الروسية الملقيين بهذه الألقاب ، زادونايسكي وزيمينيكسكي وإبريفانسكي بسبب نصرتهم .

والمقعد الحربي ، يعني مقعد سنة ١٨١٢ م ، وجدرانه مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن ، وهوبين المقعد الأبيض ومقعد جرجيس متسع جداً ، طوله ٧٧ ذراعاً روسياً ، مقبب بغاية الصناعة ، وفيه صورة القيصر اسكندر على الحصان الأبيض الذي ركب له لما راح باريس ، وفي زمان كترين كانت التحف والجواهر القيصرية وخواتم الألماس والمنشقات الذهب المرصعة بالألماس والنشانات والرايات والشيش بقبضة ذهب ، وغير ذلك في دواليب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشتاء ، لكن الآن هذه الأشياء محفوظة في الأوضة القيصرية في قصر انيتشكي . قلت : قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وعائلته وحاشيته في الشتاء ، وهو من عجائب الأبنية ، وظاهره ليس محلى بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته :

وما الحلّى إلا زينة لنقيصة يتمم من حُسن إذا الحسن قصّرا
فأمّا إذا كان الجمال موفّراً كحسنك لم يَحْتَجْ إلى أن يُزوّرا

١٤٤/ وفي أول كل سنة يفتح في المساء ويؤذن لعامة الناس ذكوراً وإناثاً بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفاً، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصاً، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر وبعض مقاعد أخرى كبيرة للغاية، فما ألطف هذه المقاعد وأبهجها، وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصر يتفصح مع عائلته، ويرى قومه كالأب الشفوف مع أولاده، ويكثر الزحام جداً حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقة محبوب في قومه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج والشراكسة التاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مأكّل، ذهبَ إلى المحل المعد لذلك وأكل ولا يدفع شيئاً، وقد أصابت هذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدرُوا على إطفاء النار منذ ١٣ سنة، لكن همّة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رفعتة الأولى، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمر بالسرعة، وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عند بعض المعارف الساكنين فيه، فعددت مائة سلم، مع أن هذا ليس في الدور الأخير، والمحل المحرم دخوله مطلقاً إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الامبراطورية، أمّا المحال الآخر فكغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزورها.

وفي شهر أيار حين يذهب القيصر وعائلته لتقضية الصيف في تسارسكيا وبترغوف، يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الامبراطورية للتفرج على هذه البنية العجيبة وما فيها من البدائع الغريبة ١٤٥/ والذخائر اللطيفة.

وفي سنة ١٧٦٨م، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غير هندستها القيصر اسكندر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخوه القيصر الحالي . وفي طول مدة أيامه والشغل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصاً القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشُعري، ولا يمكن لوصف أن يحدها لا نثراً ولا شعراً، بل بالعين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقرر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٧٠م ابتداء قصر المرمر على النيفا وكمل في سنة ١٧٨٣م . وهو يتميز على الخصوص بأنه لا يوجد فيه أصلاً خشب، بل بمثابته دائماً المرمر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيفا، وكذلك بني قصر الأمير ترويسكي الذي أسس دنما البحر الأسود، وفتح بندر أوجاكوف وضم القرم إلى روسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية :

«هو وحده يفهم مقاصدي»، وغرس في هذا القصر جنينة الشتاء المعروفة الآن «بجنينة توريد»، حسنة للغاية حتى إنه لا يباح لكل الناس دخولها إلا بورقة إجازة لثلاث تفسدها لاعامة، وفي هذا القصر سكن خسرو مرزا حين أرسل سفيراً إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير يوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات يوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفاً له سمت القصر قصر توريد، وكترين الثانية اعتنت أيضاً بإحياء العلوم والصنائع فشادت أكديما التصوير على ساحل النيفا الشمالي، وأحسنّت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزدد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى ١٤٦/ يسمونه الصنعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيفا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبو الهول، جلبا من مصر سنة ١٨٣٢م، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وفي سنة ١٧٨٤م إلى سنة ١٧٩٠م بني على هذا الساحل أكديميا العلوم، لكن أقل علواً، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء ينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكاديميين، وكل منهم مشغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل كوفر، وبعضهم بالعلوم الشرقية مثل فرين، فإنه مشغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات وتاريخ ونحو ذلك.

ودائماً يسافر الأكاديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما سافر كوفر إلى سيير محل المعادن، كما سافر بروس إلى تفليس لتحقيق تاريخ الكرج وآثارهم، وفي آخر سني مملكة كترين وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيفسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أولاً في سوق سنوي مزيناً لحارة الجنينة، مثل اللعبة ومحله صار القومبانية يعني مستودع المال والسلف بالمكسب، وبالجملية فكثرين الثانية أكملت زينة هذه المدينة السامية، ورقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول المتنبي، حيث قال:

ولو كان النساء كما رأينا لفضلت النساء على الرجال

ومع أن تملك القيصر بولص كان قصير المدة، لكن كان نافعاً لبتربورغ، لأن هذا القيصر بنى عدة مساكن لطيفة للعسكر ولتعليمهم، وبنى في وسيلي أوستروف مدرسة البحارة، وكمل بيت تعليم الأطفال اللقطاء، ١٤٧/ وبنى بيتاً لسقط العسكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت لإيواء الفقراء الطاعنين في السن، وبنى قصراً عند جنينة الصيف صار بعده مدرسة المهندسين، وبنى في شارع نيفسكي محلاً للتجار يسمى «أومه»، وزينه ببرج مربع، وبلط ساحل مويكه في طول ١٥٠٠ سجين، وزين كثيراً شارع نيفسكي الذي كان إذ ذاك في وسطه بولفار، يعني سطور من الشجر لإظلال المارين، ووضع لجده الكبير بطرس الأول أثراً أمام قصره، وأثر

رومانتسوف في المرج القيصري ، لكن نقل بعد ذلك أمام أكديميا التصوير، ومكتب كديت وأسس أيضاً أكديميا الطب والجراحة ، ووضع لكنيسة كران الأساس وكملمها بعده وارث تخته ، وولي هذه القيصر اسكندر الأول الذي بنى الممشى على النيفا أمام جنينة الصيف، ونصب قنطرة ترويسكي قرب جنينة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سوفاروف في سنة ١٨٠١م، ليس بعيداً من قصر المهندسين وقشلة للبحرية واينستيتوت كترين لتعليم البنات الأكابر، وعند شارع فوسكربسنيكي بنى كنيسة المصابين، ومن أعظم مبانيه قصر الوزارة، ودواوين الأشغال بقبوبه العظيم التي فوقها صور خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسنى، وهذه البنية العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان. وأما القيصر الحالي نقوله الأول، فإنه ما قصر عن سلفه ولا أبقى تعباً لخلفه، إذ قد صرف اجتهاده إلى ما يكمل المدينة والمملكة، فبنى تياتر ميخائيل وتياتر اسكندرة باسم زوجته القيصرية اسكندرة فيدوفنا ومجمع الأعيان، وقد عبث به بنان الحريقة منذ سنين، لكن تدورك الخطر وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة مورسكوي وكارافاني، وأحدث بولفاراً جديداً في طرف حارة ١٤٨ / غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيفسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب، لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقة المعبر، وفي الصيف لا حاجة إليها في ذلك المحل، للاستغناء عنها بالبساتين، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عموداً شاهقاً في العلو كله من الصوان المائل للدهمة أثراً لأخيه اسكندر الأول، وليس له في الدنيا نظير، وهو أطول من ٢٢ سجيناً، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري باسكندرية، والحجر الكبير جلب من بتر بورغ في سفينة مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢م، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢م، في ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤م، حصل فيه الشغل والعمود كان أولاً مغطى

بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد «اسم اسكندر» ٣٠ آب سنة ١٨٣٤م، تحفة سنّية لهذا العيد الكبير وسحر يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضاً من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسية تشكر اسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعباناً، وحوله الآن فينارات تولع بالغاز كل ليلة، ويحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا وعزيزنا الجنرال ميرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصريّة بتر بورغ، وها هي مشوي :

١٤٩/أزين درسكنتم كهي درستوه كه يك قطعه سنكست اين ياره كوه

بكاخ سيهرش ستون ساختند	خردخيره كر دركه جون ساختند
جه كغتم بكردون ستون ك	
رواست	مكر سوى افلاك راه دعا است
ازين به بمطلب نبا شدكواه	كه ما بشد ملك رابرش جلوه كان
بلى دربر هيكل اين ستون	ستون بيستونست وان بستون
نه وهم شتابان وفكر يلند	برار دور اسرابز يرگمنند
نظر رابسرعت به يحشني شودا	به ست يلبس برشده اين نشاره
شند جند جاتابا وجش رسته	بنام يكي ينوونوشين روان
بمهر برادر براوز مهر	جومهر فروزات بطاق سيهر
برافراخت اين ناموريا دكار	برافراخت اين مشعل روزكار
بسي بك زدكرنشان جنين	نباز دبكي تي بساط زمين ^(١)

(١) وترجمتها :

ومن مآثر هذا القيصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين بين
بتر بورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها الأشغال
في مدة الجليد بدق الأخشاب في الجليد، والأعمال الشاقة، وقد تمت الآن، وفي
أيام بطرس الكبير ما كانت على النيفا قناطر بالكلية، وكانت الناس تعدي على
القوارب، كل شخص يدفع كيبك، وعلى مويكة وفونتانكة كانت قناطر نقالة يمكن
رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأما الآن فعلى فونتانكة
ومويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن والأحكام من الحجر
الصوان والدرابزين الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك على جميع الخلجان
والكل كالنيفا مرصع الحوافي بالحجر الصوان العريض، مرصف تمر على هذه

= تسيطر عليّ الدهشة أحياناً . . . ويمتلكني العجب .
مما يجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل . .
ذاك الذي صنعوا فيه عاموداً لقصر الملك،
عاموداً يحار العقل في كيفية صنعه .
ترى ماذا أقول لو أردت الحديث عن هذا العمود؟
يجدر بي أن أقول إنه طريق توصيل الدعاء إلى السماء
ولا أول على هذا من صورة الملك المنقوشة عليه والمتوجه لأعلاه .
أجل، إن هكل هذا العمود يذكرنا بنفس بيستون
فعن طريقه يدرك ذوو الحجى - دون توهم - كيف تلحق الذلة بالأسرى . .
وترى العين على الفور دليل ذلك . .
حين تشهد الصليب وقد رفعت يد الملك .
لأكثر من سبب تم الاحتفال . . وقد جاء تخليداً لذكرى راحل عظيم
بالحب أحيا الأخ ذكرى أخيه، فكأنما بعثت الشمس أشعتها إلى قمر السماء .
لقد أحيا هذا ذكرى أحد العظماء
وأنارت هذه مشعل الزمان
وبفضله وبركته نرى ما نراه . . فما تتيه أرضاً دلالاً على الدنيا

القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة للمشاة وقدام القيصر سنة ١٨٤٠م، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع انها ١٥٠ / محكمة إلا أنه لاعتناؤه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع ليكون المنظر أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها، وقيل له: هيت لك، واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصر راكباً في كاروصته فتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

وضعوا بأطراف القناطر إذ بدت	خيلاً مصورة بأحسن منظر
كلُّ يُقاد بسائس ما غُطيت	بالدرع قامته ولا بمغافر
هذا دليل الخيل والرجل التي	قويت بلا خوف جميع الأعصر
من يقوإن لم يرضَ مالك أمرهم	أن يدخل الساحات أو من يجسر

وفي سنة ١٨٤٢م شرعوا في توسيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت ساكناً في بيت أمام القنطرة، فكنت أشاهد الأشغال الشاقة المتوالية من دق أعمدة الخشب في الماء، ثم تنشيفه، وقد تمت هذه القنطرة، وسبب هذا التحسين أن هذه القنطرة أمام القصر المبني لشاه زادة الأمير الكبير مارية نيقولاونا الديني هو أيضاً من مآثر هذا القيصر، فأراد القيصر توسيع القنطرة لتتسع ساحة القصر، ولذلك هدموا بعض بيوت حائلة هناك بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملية فمآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تدبيره لا تستقصى.

الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك، وفيه فصول.

الفصل الأول

١٥١/ اعلم أن عادة الروس وأخلاقهم الكرم والإنفاق وحسن معاشرته الناس، خصوصاً من مدة ما تقدموا في التمدن والعلوم، وصدقت فيهم فراسة بطرس الكبير، ويميلون إلى الفخر والكبر، قال العلاء في أخلاق طائفة الروس: «موصوفة بحسن الشكل وبياض اللون، وقابلية الصنائع ولطافة الخدمة وإطاعة السيد، وقلة العبادة، وقلة الصلاح، وكثرة الأباق». وفي القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدتهم التاتار حيناً، لكن الآن انعكست القضية، وصار التاتار مدعنين لهم ومن رعاياهم، وليس الناس عندهم رتبة واحدة، بل مراتب:

الأولى: الأعيان، وهذه الرتبة متوارثة، فابن أحد الأعيان يعد منهم، وأصحاب هذه الرتبة يتميزون جداً، بحيث يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإذا تزوج أحدهم بامرأة دون مقامه رفع رتبته وتسمت باسمه، ثم إن هذه الرتبة تنقسم إلى قسمين:

أعيان الأعيان: وهم من كانوا أعياناً قبل زمان بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب الثالث.

وأعيان: وهم من بعد بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب السادس.

مثلاً في تربية بنات الأعيان في ديراسموليني، يشترط إن لم يكن إذن مخصوص من القيصر، أن يكون من أعيان الأعيان، وإذا دخل أحد الأعيان طوعاً في النظام دخل مثل تحت ضابط، وبعد سنتين يصير ضابطاً.

الثانية: الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم، وهم الغرباء والمستخدمون ونحوهم الذين أنعم عليهم القيصر بالنشانات، فإذا نالوا رتبة من القيصر عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم اشتراء الأرض والعبيد الروسية إلا في اختلاف الدين، فيمنع دخول الروس في ملك المسلم، كما أن العبد المسلم يمنع شرعاً دخوله في ١٥٢/ ملك النصراني ومخالف الدين.

الثالثة: التجار لا يعدون في روسيا من الأعيان، فالتاجر ولو ملك ملايين لا يعد من أهل هذه الرتبة، إذا تزوج واحدة من الأعيان حط رتبته، وصارت تعد من التجار، لأن الزوجة تابعة لزوجها في الشرف والخسة، وبنت الأعيان لا تتزوج التاجر إلا بسبب غناه، كما أن أحد الأعيان لا يتزوج التاجرة إلا لغناها، فيختارون التمتع بلذة العيش ولا يبالون بعقد الكفاءة، ولله القائل:

قالوا الكفاءة سنة فأجبتهم إن الكفاءة في يسار الدرهم

الرابعة: أولاد البلد وإذا ترقوا إلى التجار ونزلوا إلى النظام فلهم حكمهم.

الخامسة: الفلاحون إذا أخذوا في النظام، فلهم حكمهم، وإلا فلا يترقون إلى الرتبة الأولى.

السادسة: العسكر، لكن إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الأكتاف بالقصب صار من الأعيان، وذلك أنه لا بد أن يخدم ١٥ سنة، فإذا كان حسن السلوك ربما ترقى إلى مرتبة تحت الضابط، ثم إلى مرتبة الضابط، ١٥٣/ ومن خدم ١٥ سنة له الخروج من النظام إن أراد.

السابعة : الأرقاء، ولا يجوز لكل أحد شراء الأرقاء كما عندنا، بل بشروط أن يكون المشتري من أعيان الروس، وأن يكونوا تبعاً للأرض، فليس للأرقاء سوق يباعون فيه، إنما بيعهم تبعاً للأرض، وتارة يباعون بالاستقلال، ويجوز إعتاقهم، ومنهم من يشتري نفسه كالمكاتب، ولا يصير الرقيق، ولو بعد العتق من الأعيان إلا إذا صار عسكرياً وترقى، ثم إن الأعيان لا بد لهم من التربية والتعليم الذي يكتسبون به الرتب. فإذا تعلموا في المدرسة الكبرى، ونحوها حتى وصلوا إلى درجة «كانديدان» يعني النجيب، يكونون من الصنف العاشر، هذا إن أحسنوا الجواب في البحث، وإن قصرُوا قليلاً فيعطون درجة التلميذ المجتهد، وإلا فلا يستحقون شيئاً، وإن تعلموا في المدارس الصغيرة لا يستحقون هذه الرتبة، ويخدمون بلا رتبة حتى يعطى لهم رتبة، وأول المراتب الصنف الرابع عشر، ثم يترقون إلى رتبة الجنرالات، وكذلك أولاد التجار إن تعلموا في المدرسة الكبيرة، وبلغوا رتبة النجيب، ثم النجيب إذا اجتهد وكتب شيئاً في العلوم، وعمل بحثاً في العلوم، وناقشه العلماء، وأحسن الجواب وصل إلى رتبة مجستير، يعني «عالم»، فيكون من «الصنف التاسع»، ثم إذا اجتهد أيضاً، وكتب أيضاً، وعمل بحثاً، ونوقش فيه ومُهر وصل إلى رتبة دكتور، يعني «فاضل»، فيكون من الصنف الثامن، ثم إذا خدم ترقى بالخدمة إلى الصنف السابع، وهكذا، «والفاضل» يمكن له أن يكون مدرساً أولاً، يعني عادياً، وثانياً يعني خارجاً عن العادة، هذا كله في الرتبة المكتسبة من التعليم، وقد يصل النجيب بواسطة الخدمة إلى هذه المراتب، فيكون جنرالاً، وإن لم يكن عالماً ولا فاضلاً، وأمّا وصول ١٥٤ / غير النجيب فيمكن، لكن لا كالنجيب إلا نادراً، والنشانات يعطيها القيصر بعض الوزراء لمن يستحقها بسبب التقدم والتميز، وهي كثيرة، منها نشان ستانيسلان وحنه وفلاديمير، وشريط الأول بحاشية بيضاء، والثاني بحاشية صفراء، والثالث بحاشية سوداء، وكلها حمراء، والشريط للرتبة الأخيرة صغير يعلق على الصدر، وللرتبة الأولى طويل يعلق كالحمالة، ولا يعطى إلا للجنرالات وللرتبة الوسطى كالقلادة في العنق، وقد

أنعم عليّ القيصر بالنشانيين الأولين ، وقد بهما عنقي بسبب امتياز التلاميذ في البحث ، وقلت حين قبلت الثاني مورياً :

إنني رأيتُ عجباً
في بتر بورغ وإنه
شيخ من المسلمين
يضم في الصدر حنة

وقد أنعم عليّ القيصر أيضاً في البحث الثالث بخاتم مرصع بالألماس الغالي ، وفيه أول اسمه العالي ، وقد تنبه القيصر إلى أن المسلمين لا يحبون التصوير الذي في النشانات المعطاة للمسلمين ، فأقام مقامها صورة النسر هذا ، وقد قلدنا الأوروبيين في إعطاء الرتب والنشانات للمستخدمين ، لكن إلى الآن ما فعلنا ذلك مع «التلاميذ والمعلمين» ، فأني مانع من ذلك ، بل المقتضي موجود وهو تحريض التلاميذ على التعليم ، مثلاً إذا فرغ الصبي من التعليم في المكتب ، ودخل في المدرسة لتعلم العلوم ، فبعد أربع سنين إن شهد شيوخه بالنجابة سمي «نجيباً» ولا بأس بعمل بحث لذلك ، وإعطائه ثبناً وإجازة . لكن في كاغد منشئ ، ثم إن استمر فبعد سنة مثلاً أو سنتين يعطى رتبة العالم ثم الفاضل ، والفاضل له رتبة المدرس الأول والثاني ، وغيره رتبة المعلم أو المعين ، ثم ١٥٥ / حيث نوعنا المراتب ، فلم لا نخص كل رتبة بلفظ ، فنعطي مثلاً للجنرالات لفظة الجناب ، وللوزراء لفظة السعادة ، والشاه زادة وعائلة السلطان لفظة السيادة ، وللسلطان لفظة الأبهة ، ونحن إلى الآن ما فعلنا ذلك ، بل نقول لكل الناس حضرة الجناب العالي ، وتستعمل لفظة الحضرة التي تستعمل حتى في جانب الله والرسول ، ونبذلها جداً كأننا نظرننا لقول القائل :

إذا شورك في وصف بدون فلا يلحقك عارٌ أو نفورٌ
ففي الحيوان يشترك اضطراراً أرسطاليس والكلب العقور

لكن هذا شيء آخر، لأننا لا نقول لأرسطوطاليس حيوان، ولا يحسن أيضاً أن ننظر لقول الآخر:

العبد عبد وإن تسامى والمولى مولى وإن تترك

لأن هذا في تسامي العبد نفسه، وتنزل المولى وتواضعه، وأما من طرفنا فيليق أن لا نرفع العبد فوق مقامه ولا ننزل المولى عن رتبته، إنما المقام الذي نحن فيه من باب قول القائل:

اجعل لكل مكان ما يناسبه فإن للزند حلياً ليس للعنق

الفصل الثاني

في ملابس الروس

اعلم أن ملابسهم القديمة الباقية في عوامهم إلى الآن مشتملة على قميص افرنجي والغالب أنه من الشيت، لأن العوام يحبون الألوان. ثم لباس من البفت أو الجوخ، ثم جبة طويلة محزقة، ولقسهم جُبب طويلة عريضة الأكمام مثل فرجيات علماء مصر أو بنشات السفطات، ولكن من منذ مدُن بطرس الكبير الروسية، صارت ملابسهم كملايس غيرهم من الأوروبيين، فيلبسون الأقمصة البيض، ويضعون على الصدر ١٥٦/ فوق جيب القميص قطعة بفت عريضة بطيات مكوية، وتارة يفصلون القميص ويجعلون على صدره طيات، فيكون ذلك ساتراً، ثم الصدريات المفتوحة، ويتأنقون في تفصيلها حسب الكم، ثم السروال الضيق ثم الجبة الافرنجية القصيرة، وفي مراسم التكلف هذه الجبة مقطوشة الذيل من الطرفين، وطوق الصديري والجبة مرتفع فوق القفا بسبب البرد وللنظام ملابس مختلفة على حسب اختلاف خدمهم، فالضباط ومن فوقهم يضعون على أكتافهم قرصاً من القصب الأبيض أو الأصفر، ويلبسون السيوف، وأما أرباب القلم فلا

يلبسون السيوف، إلا في مراسم التكلف، وكذلك يلبسون فيها بدلة بطوق قصب بحسب رتبتهم، وبعضهم من يلبس البدل المقصبة كلها، وبالجملية فلكل رتبة نوع مخصوص لا يتعداه يلبسه صاحبه في الأعياد، والرواح إلى الكبار خصوصاً رؤساء الشخص، وعند الذهاب إلى مجمع الأعيان حيث الرقص ويسمى ذلك بدلة الولبة، وأما البرانيط فأنواع، المسنمة التي فوقها ريش، أو بلا ريش، وهذا لبس القيصر، والكبار أرباب السيف، وكذا لبس أرباب القلم في التكاليفات، وأما لبسهم في غيرها، فالبرنيطة السوداء المدورة العالية بحواف عراض قليلاً، وهناك أنواع أخرى خصوصاً للنظام بعضها مستطيل وبعضها مربع، وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة، وحدث منذ بعض سنوات للنظام نوع آخر من البرانيط فوقه شرابة من شعر الخيل، والآن كثيراً لبسه حتى إني رأيت القيصر بنفسه لبسه، ويربطون على العنق منديلاً أسود في الغالب، وخصوصاً في الشتاء، وتارة من لون آخر وخصوصاً في الصيف، وأبيض في التكاليفات، وهذا لا بد منه في ١٥٧/ هذه البلاد لبرودة الإقليم، ولما وصلت بتر بورغ كان وقت الصيف، فصرت بلا منديل على العادة، فلما أقبل البرد لم أقدر على الخروج فربطت المنديل على الرقبة وتارة منديلين إذا اشتد البرد، وقلت في ذلك مضمناً بيت المتنبي:

وما حيلتي في بتر بورغ وقطرها وفي عنقي غل له ألجأ البرد
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقته بُدُّ

لكن أرباب السيف يستغنون عنه بالقبة المستطيلة، وكذلك في أيام الشتاء لا بد من لبس الفراء خصوصاً للغرباء لقساوة البرد، وقلت مورياً:

واصلتني يا بدر حتى كان لي بيلوغ وصلك في الدجا آمال
لَمْ تفتري في مواعيدي فأجابني الافتراء بتر بورغ حلال

وأما النساء: فالكبراء كلبس الفرنساويات يعني الأقمصة والألبسة، ثم الإزارات المربوطة على الوسط، وهي كثيرة، ثم الفسطان، ويجوز لهن كل الألوان

والتنوع على حسب النسيم، ويعملون للفساطين وشاحاً يسمى الكرسي، وهي خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفع الخصر، وتارة يتزرن، وتارة يفصلن الفساطين واسعات الجيوب، بحيث يرى عنقهن لكن يضعن على ذلك منديلاً أو شيئاً رقيقاً شفافاً من الشاش حسن الصنع مشغولاً بالطارة أو الإبرة، وفي الرقص لهن فساطين بلا أكمام، فذراعهن ونصف صدرهن مكشوف، إلا أنهن يلبسن الكفوف، وهذا باب واسع الذيل، ويجر كثير السيل، فالكسم في كل وقت يتغير، ويكتب ذلك في الجرنالات، حتى أن للكسم جرنالاً مستقلاً فيه صورة امرأة لابسة بغاية التأنق، أو رجل، وهذا كله يأتي من باريز، ويتبع ذلك نساء الأوروبا، وتارة تلبس ١٥٨ / كبار نساء روسيا السرفان، وهو لباسهم القديم، والفلاحات يلبسنه وهو معلق بأشرطة، لا صدر له، لكن سرفان الكبار مرصع باللؤلؤ أمام، ولهن برنيطة عريضة من فوق مدورة، ومن أسفل أقل عرضاً، كذلك مرصعة باللؤلؤ يلبس ذلك في التكاليف الكبيرة، مثل الأفراح القيصرية، والولائم الامبراطورية، وأما نساء العوام فمختلفات الملابس بعضهن بالسرفان، وبعضهن بالفسطان، وبعضهن يلبس فوق الفسطان مثل الصديري، وبعضهن يتعصبن بالمناديل، وهذا باق حتى عند نساء التجار إلى الآن، لكن الأكثر يقلدن الأعيان، وقد رأيت مرة في دير اسموليني بنات الأعيان لابسات السرفان والبرنيطة الروسية، وكان ذلك أسبوع الميلاد.

وفي هذه الجمعة على العادة القديمة تجتمع العذارى، ويأخذن طبقاً ويضعن فيه ماء، ثم يغنين ثم يعطين الخواتم للحاضرين يزعمن أن ذلك يدل على البخت، وتارة يبذرن الشعير أمام البنات، ويضعن فيه خاتماً، ثم يرسلن ديكاً يلقط الحب، فإن نبش الديك وأخرج الخاتم، فمن كان أمامها فإنها تتزوج في ذلك العام، إلى غير ذلك من الأوهام القديمة، وفي هذه الجمعة يمسخون أنفسهم ويغيرون زيهم، فبعضهم يلبس وجه شخص قبيح الصورة، وبعضهم صورة حمار أو عفريت إلى غير ذلك، ثم يدورون الحارات، ومن حيث أن لبس الفقير مخالف للباسهم بعضهم يظنني أحد الروس الممسوخين، لأن هذه الجمعة يغيرون الملابس أيضاً،

ويفعلون ذلك في الرقص أيضاً، ويسمونه المسخرات كما يأتي ، وأما الذقون فالأعيان وغالب التجار يحلقونها، والقسس والعوام وبعض التجار بلحاهم وكثيراً من لحاهم، وأما الشوارب فتحلق غالباً إلا النظام وأرباب السيوف، ١٥٩/ وكذلك العارضان وما تحت الذقن يجوز فيها الإبقاء، والعادة الآن بين الفرنساوية إبقاء الذقون، والتجار لا يخضعون، وكذلك التاتار، فكانهم بلغوا أمنية الشيخ أبي بكر الشيرازي حيث قال يتبرم بشبابه وكان خنق التسعين، ولم تبيض له شعرة:

إلامَ وفيمَ يظلمني شبابي	ويلبس لمتي حلل الغراب
وآمل شعرة بيضاء تبدو	بدوّ البدر من خلل السحاب
وأدعى الشيخ ممتلئاً شباباً	كذا طمعاً يُعلل بالسراب
فيا شوقي هناك إلى مشيبي	ويا خجلي هنالك واكتثابي
ألا يا خاضب الشيب المعنى	أعني في الشباب على الخضاب

فكافور المشيب أجلّ عندي	وفي فوديّ من مسك الشباب
وأين من الصباح ظلام ليل	وأين من الرباب دجى ضباب
ألا من يشتري منّا شباباً	بشيب واسوداداً بأشهبان

ويميل له قول أبي الطيب المصعبي في ذم الشباب:

لم أقل للشباب في كنف الله	وفي ستره غداة استقلاً
زائر لم يزل مقيماً إلى أن	سوّد الصحف بالذنوب وولّى

أين هذا من قول الآخر:

أليس عجيباً بأنّ الفتى	يصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باكٍ له موجد	وأخر مغد معد إليه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب	فليس يعزّيه خلق عليه

وأما الفرس فيخضبون ميلاً لقول الخشنامي :

أقول لمن يعد الشيب نوراً ويزعم أنه يكسو وقارا
أحب من الوقار إليّ شعر يحاكي لونه سبجاً وقارا

وبعضده قول الآخر: ١٦٠ /

لو أن لحية من يشيب صحيفة لمعاده ما اختارها بيضاء

ولأبي الفرج ابن أبي سعد بن خلف، وهو كما قال صاحب الخريدة من أحسن
ما يروى في معناه :

وأنكرَ جاراتي خضاب ذوائي وهن به زُيّنَ بيض الأنامل
فواعجباً منهن أنكرن باطلاً عليّ ولم يخلبن إلا بياطل

وأما شعر الرأس فالرجال يقصرون، وفي تعهداتها لا يقصرون إذا هم مكشوفو
الرؤوس في المجالس، وأما النساء فيرسلن من شعورهن المقاصيص، ويجمعن
غرائر الشعر بمشط في وسط الرأس، ويتعهدن ذلك حتى العجائز:

وقد شمطت ذوائبها وليست على أمرٍ سوى قتل العقاص

ولا يرسل الشعور على الظهر إلا الفلاحات، وتارة يضعن بعض شيء
للتحسين كشریط أو دبابيس كبار مذهبة أو نحو ذلك، والمتزوجات يضعن على
الرؤوس طاقية رفيعة بغاية الإتقان، وللنساء شمسيات قصيرة في غاية البداعة من
الربيع والصيف يقيهن حر الشمس، وأما الرجال فلا يتخذون إلا الكبيرة للمطر، ومما
قلت في بعض العذارى:

ولم أنسَ لَمّا أن تبسّم ثغرها ومنّت بتوديع بغير سلام
شقيقة بدر إن يك البدر غيرها وحلوة ثغر رق فيه نظامي

وقد رفعت بالشمس فاتخذت لها حجاباً وما تنفك دون ملام
طويلة شعر قصرته بمشطها فها هو إكليل الجمال وسامي
فؤادي كخديها وحمير شفاهها ألسنت ترى أن الجميع دوامي
موردة الخدين في زمن الشتاء فكيف بيوم في الهجيرة حامي

وفي المدينة مخازن لتهيئة هذه اللوازم، ففيها من الأقمشة النفيسة كل ما يحتاج إليه، وخياطون للتفصيل، وشرح هذا الباب غني عن ١٦١/ التفصيل حتى يوجد كثير من المزيّنين لإصلاح الشعور وقصها وتقصيرها وتزيينها على حسب الذوق، وإذا لم يكن للشخص شعر ولا أسنان، وضع له شعر وأسنان عيرة بغاية الإحكام حتى لا يكاد يتميز من الطبيعي، والله من قال:

قالت أراك خضبت الشعر قلت لها خضبته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقته ثم قالت إنّ ذا عجب تكاثر الغش حتى صار في الشعر

الفصل الثالث في دين الروس

قد سبق أنهم كانوا عبدة أوّثان حتى تنصروا في زمن فلاديمير على طريق الروم، لكن المطران ليس الرئيس المتوحد، كما كان البابا في روما، بل الرئيس الديني القيصر كالسلطان بين المسلمين، وتحت ثلاثة مطارنة وعدة أساقفة ومشورة الرهبان، وطريقة الروم التي تدين بها الروس تخالف طريقة اللاتينيين بفرق ضعيف، فرق الفئتين المتحدتي الدين، وذلك أن الروم يعتقدون كاللاتينيين سواء أسرار التجسيد، وتخليص عيسى العالم من الخطايا في اليوم الآخر، والثواب والعقاب بعد الحياة على الخطيئة الأصلية، وعلى العفو اللازم، والمعروف إنّما الفرق بينهما في العقيدة من جهة التثليث، فاللاتينيون يقولون: إنّ روح القدس ينبعث من أب وابن، والروم يقولون إنه من أب بواسطة ابن، ولأجل الفرق بينهم

وبين القاثوليكية اليونانيين يصلبون ضامين الثلاثة الأصابع الأصلية، يعني ما عدا الخنصر والبنصر من اليد اليمنى جاذبيها من الصدر إلى الكتف اليمنى، ومنه إلى الكتف الشمال. والتكريز عند الروس بلسان الصقلب، كما أن الوعظ عند الإسلاميين بلسان العرب، وهو مصحوب بموكب وزينة عظيمة وشموع موقودة، والأواني في الغالب ثمينة مذهبة ومرصعة بالجواهر والصور والتماثيل من اللوازم عند الروس في الكنائس، وفي البيوت بحيث إن الكنائس مملوءة بها، وتارة يوجد حتى في الأسواق وفي كل بيت في أوضة مخصوصة صورة العذراء والمسيح مطلية بالذهب أو الفضة أو مرصعة بالجواهر على حسب الغنى والفقر، وتارة صور أخرى والداخل يتوجه إلى الركن الذي فيه الصورة، ويسلم عليها أولاً. بخفض الرأس والتصليب مراراً، ثم على أهل البيت وكذلك عند الخروج للوداع، وكذلك عند المرور على الكنيسة أو الصور التي في الأسواق لكن هذا بين العامة والتجار، وأما الأعيان والأكابر فلا يفعلون، ولذلك المعري نظر حيث قال:

ما الناس إلا اثنان إما جاهل متدين أو عالم لا دين له

وعند الصور قنديل دائماً مولع أو شمعة موقدة ليلاً ونهاراً إلا الفقراء، فليلة الأحد والأعياد، وأيامها وكنائسهم موضوعة، بحيث يكون القسيس في المحراب متوجهاً للشرق، والنواقيس في العادة في برج عالٍ كالمنارة، أو في محل منفصل عن الكنيسة.

وفي وقت التكريز كل الناس تقف والرجال تقلع البرانيط، وكثيراً ما يصلبون، بل ويقفون ساجدين على الأرض، ويكثر الرواح إلى الكنائس في الأحد والأعياد، ويوم اسم الشخص أو ولادته، وفي أيام الصيام خصوصاً الكبير الذي قبل الفصح، وفيه يستغفرون من الذنوب بأن يقر المذنب بذنبه للقسيس فيأمره بالسجود في بيته بقدر الذنب صغراً وكبراً، ثم يسقيه خمرأ أحمر كأنه دم المسيح، وخبزاً، وفي ١٦٣ / أيام الصوم الكبير والجمعة الأولى والسابعة يمتنعون حتى من السمك والبيض والسمن، بل الزيت الحار ونحوه، وبعضهم لا يلتزم لكن أكثر العامة

والفلاحين يراعونه فلا يأكلون لحماً البتة ، وما أطف قول ابن حجاج :

جفاني اللحم وهو شقيق روحي فمن يعدى على ذاك الشقيق
كأن اللحم في صوم النصارى توهمني بزعم الجاثليق

الفصل الرابع

في الزواج

اعلم أن الروس من زمان بطرس الكبير إلى الآن كسائر الأوروبيين لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه (فحينئذ) يسهل على من يريد التزوج اختيار من شاء، وتارة بواسطة الخاطبة خصوصاً عند العوام، ومن حيث إنه لا طلاق لا يقنع الإنسان بمجرد النظر بل لا بد من معرفة الطبع فيصطحبان بغاية الأدب وينظران بعضاً في المجالس، وهذا يختلف باختلاف الناس، فمنهم من يقنع بأن المرأة تحبه بزمان قصير، ومنهم من لا يقنع، وعلى كل حال، فإذا حصلت المحبة من الطرفين التي يسمونها العشق، أو كان هناك غرض آخر سألها التزوج بها، فإذا قبلت سأل بعد ذلك أهلها ثم يشترطون الشرط في البيت (وحينئذ) يصنع لها خاتم ذهب، ولنفسه كذلك، وتسمى حينئذ خطيبة، ومن ذلك الوقت يجيء كل يوم عندها ويروح حيث تروح، ثم يعين وقت للعرس وحينئذ يذهبون للكنيسة فيسألها القسيس أولاً هل رضيت بهذا؟ فتقول: نعم، وفي هذا الوقت يتوجان، وإن لم يكن أب ولا أم اختير أب وأم يسميان أبوي الزواج، ويحضران في الكنيسة مع العروسين، وكذلك يختار شاب يسمى مهياص الفرح، ١٦٤/ وهو الذي يمسك تاج العروسة على رأسها في وقت غناء القسيس، ويبدل الخاتمين ثلاث مرات بأن يضع خاتمها في أصبعه وخاتمها في أصبعها ثم يدور بهم في الكنيسة مراراً، بعد فراغ الغناء يهثون العروسين ثم يرجعون البيت ويشربون خمر الشامباني مع الحلوة، وربما رقصوا والنساء المعزومات للعرس يحضرن في غاية التبرج،

وكذلك العروسة وفستانها مخيطة فيه أزهار صناعية، وعند بعض الناس تتفاءل البنات غير المتزوجات بأخذ شيء من هذا الزهر لنفاق بختهن، وبين حاضرات الفرح ربما تميز بعض الحسان، وجذبت نحوها الأنظار حتى يظن من لم يعرف الحال أنها العروسة.

وكم في العرس أبهى من عروسٍ ولكن للعروس الدهرُ ساعد

والروح والرجوع في عربات الملك أو الكراء.

في اليوم الثاني يذهب العروسان - ويسميان بالروسي «الشابين» ولو كانا كبيرين - إلى المعارف والأحباب لزيارتهم وشكرهم، وربما دعوهم إلى ليلة مخصصة للرقص عندهم، والغالب أن الزوجة أصغر بنحو عشر أو خمس عشرة سنة، وتارة تكون الزوجة أكبر، وتارة أصغر جداً.

وإذا كان أحد الزوجين غير روسي ضوعف العقد، فيحضر القسيس غير الروسي، ويثبت العقد بعد القسيس الروسي، وهكذا مع غير الروسي، حيث اختلفت المذاهب، وقد حضرت مرة زواج نيمساوي قاثوليقي مع نيمساوية لوتيريانية، فعقد العقد أولاً في الكنيسة القاثوليكية قسيس قاثوليقي، ثم بعد الرجوع في البيت قسيس لوتيرياني، ولا يجوز لأحد من مدة الحياة الزواج أكثر من ثلاث مرات، فبالعبارة مسكينة، نعم يجوز الزواج برابع إن كان يهودياً تنصر.

وفي مدة الصيام لا يجوز الزواج.

وأما المهر فتعطيه الزوجة وكثير من الأزواج صاروا أغنياء بسبب ١٦٥/زوجاتهم فالحسن ليس جالباً للعشق أقوى من المال، فalcباح الغنيات يعشقن ويتزوجن مثل الحسان الفقيرات:

كتنفس الحسناء في المرأة إذ برعت محاسنها بغير زواج

فإن اجتمع الحسن والمال قوي الجاذب غير أنه خطر، والله در إمامنا الشافعي،
حيث قال «ما سلمت ذات جمال قط؛ فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وإذا تزوجت المرأة سميت باسم عائلة الزوج لا باسم عائلتها، ومن له بنات
يظهرون في المجالس ويعمل لأجلهن ليالي رقص، عسى أن يعشقن ويتزوجن
وربما نشأ من هذه الوساطة غرور كثير، تارة يظهر أحدهما العشق بلا حقيقة ثم
يترك، وكم من خادع وخادعة وداهية وباقعة، وتارة يكون الرجل كثير الملاطفة،
فيظن أنه عاشق وأنه يريد الزواج، ثم يتبين الحال بعد وقوع المرأة من العشق في
أحوال، وكل هذا لغير المزوج، إذ المتزوج معلوم حاله، فملاطفته للنساء من باب
الأدب العقيم، وتارة يكون له غرض وخيم، وأمّا المتزوجة فيلاطفها الرجال أدباً،
وربما جذبت عقولهم فيعشقونها، وربما عشقتهم خصوصاً إذا رغبت عن الزوج،
وكم من نساء متزوجات لفظاً مطلقات معنىً يعشن مفترقات عن الأزواج مع
العشاق، وكذلك الأزواج، وكثير من يفعل ذلك سرّاً، وربما تبعت الزوجة العشيق
إلى بلاده، وتركت الزوج مُنشدة بلسان الحال:

قاطعته وخلعت من يده يدي وتلوت لي وله بأن تنفّرنا

وأما المعيشة بلا زواج فكثيرة، وربما حصل بعدها الزواج، وعند النيمساوية
يسهل الفراق، فلا يندر وجود امرأة تفرق من زوجها ثم تتزوج آخر، وأمّا زواج التاتار
القاطنين في روسيا، فكما المسلمين، إلّا أنهم يدعون الحاضرين للوليمة،
ويعقدون العقد قبل الطعام، فيقرأ المُلّا خطبة النكاح، ١٦٦/ ثم يعقد العقد مع
وكيل الزوجة الثابت وكالته بشاهدين والزوج، ويعين المهر الذي يعطيه الزوج، ثم
بعد ذلك يأكلون الأكل. ويرسل من طرف العروسة بعض الهدايا لبعض الحاضرين
الذين يرسلون لها النقطة في مقابلة ذلك، ونذر الطلاق بينهم، وإن كان جائزاً،
اللهم إلّا لسبب يقتضيه.

الفصل الخامس

في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن

إذا ولد لشخص مولود أحضر القسيس وأعطى للمولود اسماً، كما يريد أهله وأخذ المولود وبارك عليه، وبعد ذلك بمدة يعمد في البيت أو الكنيسة ثم يحضر طشت فيه ماء فيقدسه، ثم يضع المولود في الماء، ويأخذه منه الشبينة (يعني أم التعميد) وتلفه في قميص جديد وطاقية، وتعطي للقسيس منديلاً يمسح به يده، ويأخذه ويحضر أيضاً أبو التعميد، وهي تعطي الأجرة للقسيس، ويشترى للمولود صليباً يلبسه، وكل الناس في أعناقهم الصلبان إلى ذلك الوقت، خصوصاً النساء، لكن الكبار لا يظهرونه، ثم بعد ذلك تدور الشبينة بالمولود ثلاث مرات وفي يدها شمعة، وكذلك أبو التعميد، ويغني أثناء ذلك القسيس ويدهنه بالزيت المقدس، ثم يحيون الليلة بالرقص والشراب ويحدث بين أبي التعميد وأمه لُحمة كلحمة النسب بحيث يمتنع الزوج، وكذلك بينها وبين الأب والأم والغليونة، ولهذا تدعو معمديها بأبويها، ويسمون المولود بأسماء القديسين مثل بطرس ومريم، ويعمل لهذا الاسم يوماً يحيا كل عام، وهو اسم مولد ذلك القديس مثلاً، يوم مولد مار نقوله سادس كانون الأول، فإذا سمي المولود نقوله على اسمه كان عيد اسمه كذلك، ويوم الولادة يشهر أيضاً كل سنة ويجيء الأحاب والمعارف والأقارب للتهنئة. ١٦٧/ وربما عملوا ليلة ورقصوا، أو وليمة وشربوا الخمر على صحة صاحب العيد، وهذا يختلف باختلاف الناس. وإذا مات إنسان أتى القسيس وقرأ عليه، ويأتي أيضاً قبل خروج الروح ليلقنه، ثم يغسل ويكفن، وكفنه ثياب الحياة بعينها، فيلبسونه مثل ما هو حي حتى الجزمة، ويوضع ووجهه مكشوف في تابوت خشب، ويوقدون حوله ثلاث شمعات اسكندراني، وعنده في طول هذه المدة قسيس يقرأ عليه، وكل يوم يجيء القسيس الكبير ويصلي عليه، ولا يدفن قبل ثلاثة أيام

لاحتمال الحياة، ففي اليوم الثالث أو الرابع المعتمد للدفن تُهيأ الكنيسة وتُغطى دككها التي تجلس الناس عليها بالجوخ الأسود، وكذلك تُهيأ عربة معدة لذلك بالجوخ الأسود والخيول التي تجرها تغطي بالجوخ الأسود، ويصحبون جنازتهم بالنار، فيمسك القسيس شعلة من نار، ويختلف ذلك باختلاف الموتى، فالكبراء يزداد لهم، وتُغطى العربة بقبة جميلة، ثم يحمل التابوت من البيت إلى الكنيسة مصحوباً بالمشيعين، وتارة يحمل التابوت يوم الموت، ويوضع في كهف الكنيسة إلى يوم الدفن، وتطبع أوراق الدعوة في أوراق مجدول طرفها بالأسود، فيحضر الناس ويغني القسيس والشموع موقودة، ثم بعد فراغ الغناء يحمل الرجال التابوت من الكنيسة إلى العربة المنتظرة لحمله على الباب، ويضعونه فيها، وبعض المشيعين يمشي قليلاً، ثم يركب عربته وبعضهم يركب وبعضهم يمشي إلى الجبانة، وهناك يدفن، فيأتي قسيس ويرش عليه عند إلقائه بتابوته التراب، ويرش عليه الحاضرون ثم يخلونه، والعادة أن تعمل وليمة عند القبر للمشيعين فيأكلون ويشربون الخمر على روحه، ويطبخون الأرز بالزبيب، وكل مَنْ مرّت عليه الجنازة يقلع البرنيطة، وكذلك المشيعون تارة، وربما وضعوا في الطريق إلى الكنيسة شيئاً أخضر من فروع الشجر ومقبرتهم مشتملة على قبور محكمة البناء ١٦٨/ بالأحجار، وفي الغالب أنها طويلة كالعمد، وبعضها مدور، وبعضها مستطيل، وبعضها مسنم، وبعضها مربع، وفوقها الصليب بخلاف القرى، ولا يظهر من قبورها إلا الصليب فوقها، ويعمل للميت أثر وهو حجر من الرخام يكتب عليه اسمه وتاريخ ولادته وموته، وربما يتألقون في ذلك ويكتبون إشعاراً، وللتأرقاة مخصصة منعزلة عن مقابر الروس، وإذا مات أحد لبس أقاربه عليه الحداد مدة معلومة عندهم، فالنساء يلبسن الفستانات السود والبرانيط السود، ثم الخمار الأسود بحاشية بيضاء، وأمّا الرجال فمن حيث إن لبسهم أسود يلفون على البرانيط حريراً أسود، وفي مدة الحداد لا يرقصون إلا أنهم يحضرون مجالس الرقص والتياتر، وتارة تلبس بعض النساء في مدة الحداد ثياب الزينة إذا ذهبن إلى أعياد بعض

الأقارب ثم يقلعن ذلك وبالجملّة فالتكلفت في هذه البلاد كثيرة، والرسوم غزيرة ، ولكل شيء قانون عنده يقفون وله يقفون .

الفصل السادس

في أعياد الروس

أولها: عيد أول السنة، يتدّى أول كانون الثاني، فيه يذهبون لزيارة الرؤساء والكبراء والمعارف، ويكتب الشخص اسمه إذا ذهب إلى رؤسائه، ولم يرهم ويعطي ورقة الزيارة المطبوعة باسمه لغيرهم، وكانت الروس في الزمن القديم تعد تاريخها من خلق الدنيا، والسنة الجديدة من أول آذار في وقت الاعتدال إلى الربيعي مثل الفرس المبتدئين سنتهم من النوروز، واستمر ذلك إلى القرن الخامس عشر في إمارة وسيلي دميتريفيج أمير دونسكوي، فقواه المطران كيريان على تغيير أول السنة اتباعاً للأورام، ١٦٩ / ومن ذلك الوقت ابتدأت السنة الجديدة عند الروس يوم مار سيمون مقضي الصيف الذي يشهر أول ستمبر في الخريف، لكن لم يزالوا على عدد القرون من أول خلق الدنيا، فكان أسلافهم في ذلك اليوم في كل سنة يشهرون فراغ الصيف ودخول أول السنة الجديدة، ويتدّى التعبد من طلوع الشمس في موسقو بعد صلاة الصبح في كنيسة التصليب الكبيرة، فيخرج المطران إلى الميدان مصحوباً بالقسس والصور والصلبان، وحينئذ تضرب جميع النواقيس، ويتم رسم الماء المقدس والصلاة، ويقول: بارك اللهم في العام الجديد بإفاضة الإحسان والصلح، ويصلي القيصر وسكان موسقو بالخشوع ويسجدون عند غنائه «خلص اللهم عبادك وبارك في خليقتك»، ويرش المطران القيصر والناس بالماء المقدس، ويهنيء القيصر رعيته الأمناء بقدوم السنة الجديدة، ويسمع بغاية البشاشة تهنئة رعيته المتمنين له بقلب واحد، الصحة ونعمة الله، ثم تقام الصلاة والناس يتماشون في داخل الكنيسة، وبعد الصلاة كلهم

يسرعون إلى أقاربهم الكبار ويهنتون بعضهم بعضاً بمقدم السنة الجديدة والسعادة القشبية، وبعد الغداء يذهبون إلى البيوت، ويتمنى بعضهم لبعض بالأمنيات الكبيرة أن يعيش إلى أمثال هذه السنة الجديدة على عادات الآباء والأجداد الموصى بها، وعلى هذا استمر الأمر إلى سنة ١٧٠٠م نحو ثلاثة قرون، فظهر في روسيا قيصر عجيب بطرس الأول الذي عند اطلاعه على أوروبا واستحسانه معيشتها الجديدة بالراحة وتمدنها الساحر للنفس والعقل غير المعلوم للروس بعد عزم على تمدين رعيته وإزاحة كل ما يبعدهم عن الأوروبيين بالكلية، أو تخفيفه، وما يميزهم عنهم في الأفكار والتثبت بالأوهام ١٧٠ / القديمة الموجبة لاحتقار التمدن الأوروبي وكرهته، وقطع هذه العلائق أبطل كثيراً من العوائد التي من جملتها حساب السنين الذي غيره بطرس، وصدر عنه أمر ١٩ كانون الأول ١٦٩٩م، أن من هذا الوقت يكون رأس السنة من كانون الثاني سنة ١٧٠٠م في الأوامر والفرمانات، وكل الأمور والمعاملات موافقة لنصارى أوروبا، وأن يكون من الميلاد، ولا من خلق العالم، وأشهر ذلك في الكنيسة وبإطلاق المدافع كثيراً، والرقص والشنك ليلاً، وعلى حساب من خلق العالم تكون هذه السنة ١٨٥٠م من الميلاد و٧٣٥٨ على قولهم، وبقي أيضاً اختلاف بين الروس والأوروبيين ١٣ يوماً تأخروا بها عن غيرهم، ويمكن أن يوافقهم في ذلك إذا صدر أمر القيصر.

الثاني: عيد الرفاع، وفيه ينصبون في الميدان الذي أمام قصر الشتاء أنواع الملاهي والمراجيح وبينون بيوتاً يلعب فيها الملاعب، وفي بعضها يرون الحيوانات والوحوش المجلوبة كالسبع والنمر والذئب، وفي بعضها يجرون على الخيل إلى غير ذلك، وبينون هناك محلاً عالياً كالجبل لإزلاق العوام، وفي هذا العيد قبل صومهم الكبير بأسبوع لا يأكلون فيه اللحم، بل أنواع الفطير والسماك، ويأكل الناس عند بعضهم رقاقاً يسمونه «بلني» طول هذا الأسبوع، وفيه يلعب التياتر في الظهر والليل كل يوم مرتين توديعاً، حيث إنه ليس في الصوم تياتر إلا للأطفال.

الثالث: عيد الفصح، وهو فسح الصيام، ويحيون ليلته ولا ينامون فيها بل ينتظرون نصف الليل، ويذهبون للكنيسة نصف الليل للصلاة، وهذه الصلاة طويلة نحو ساعتين، وكم فيها من زحام رجال ونساء، وتكثر اللصوص في هذه ونحوها فيسرقون ما وجدوا من ساعات أو نقد ثم بعد فراغ الصلاة يأكلون ويأخذون فطراً معهم إلى الكنيسة يبارك عليه ١٧١ / القسيس ثم يأكلونه بلبن منعقد.

وفي هذا اليوم تكثر الزيارات للتعديد كما في أول السنة، فهما اليومان اللذان يلزم أن أهل الخدم تذهب فيها إلى رؤسائهم والأحاب إلى أحبابهم والمعارف إلى معارفهم، وهما العيدان العموميان، ويكثر في الفصح إهداء البيض المنقوش ونحوه، وهذه الأشياء تباع في السوق الكبير في الجمعة السادسة جمعة الشعانين، فيفرشون بهذه الأشياء ونحوها كالأزهار المصنوعة واللعب والصور للأطفال وصور وحيل وعربات وطيور وعصافير وبعض البيض منقوش مكتوب عليه عقيدتهم «عيسى نشر» وفي هذا العيد يبتاوسون ثلاث مرات:

يقول الأول: قام المسيح.

ويقول الثاني: حقاً وصحيح، لأنهم يزعمون أنه قتل في السبت، ونشر في الأحد ولذلك يسمون الأحد «النشر»، (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم... الخ)، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه. وعادة التقبيل باقية إلى الآن حتى أن القيصر يُعبد بالتقبيل، إلا أن الرجال لا تقبل النساء إلا المعارف القريبة والقسيس والعوام ونحوهم، وفي طول هذا الأسبوع تكون بيوت اللعب والمراجيح كما في عيد الرفاع، إلا أنه لا إزلاق بسبب عدم الثلج في ذلك الوقت غالباً.

الرابع: الميلاد، وهو قبل أول سنتهم بأسبوع، وهذا عيد كبير عندهم إلا أنه لا يتزاور إلا المعارف والأقارب، فليس كأول السنة والفصح، وفي ليلته يعملون شجرة صغيرة، وهي غصن شجرة يعملون لها قاعدة ثم يعلقون فيها من الحلوات والفواكه والشموع لأجل الأطفال. وهذه العادة سرت للروس من النيمسا، وبقيت

أعياد أخرى بعضها تبطل المدارس والمحاكم ، ولندكر أيام الأعياد التي فيها ذلك
التعطيل على الترتيب :

- ١ - أول كانون الثاني : أول السنة . ١٧٢ /
- ٢ - سادسه : عيد الغطاس .
- ٣ - ثاني شباط : عيد دخول سيدنا عيسى إلى الهيكل وتطهير العذراء .
- ٤ - الجمعة والسبت : من عيد الرفاع .
- ٥ - الخامس والعشرون من آذار: عيد بشاره مارت مريم بحمل عيسى عليه السلام .
- ٦ - من الأربعاء إلى آخر الجمعة الأخيرة من الصيام الكبير .
- ٧ - أسبوع الفصح .
- ٨ - الحادي والعشرون من نيسان : عيد القيصره الحالية اسكندره فيدروفا .
- ٩ - تاسع أيار: يوم نقوله ، صاحب الخوارق .
- ١٠ - عيد الصعود .
- ١١ - عيد روح القدس يومان : الأحد والاثنين ، وفي الاثنين تفسح كبير في جنينه الصيف ، يسمى عندهم إظهار العرائس تتبرج فيه العذارى ويخرجن مع الأقارب عسى أن يخطبن ، وهذه عادة قديمه بقيت منها آثار عند بعض التجار والعوام .
- ١٢ - الخامس والعشرون من حزيران : عيد ولادة القيصر الحالي نقوله الأول .
- ١٣ - التاسع والعشرون : عيد الحواريين بطرس وبولص .
- ١٤ - أول تموز: ولادة القيصر .
- ١٥ - سادس آب : عيد التجلي .
- ١٦ - الخامس عشر: وفاة مارت مريم .
- ١٧ - الثاني والعشرون : تتويج القيصر والقيصره .
- ١٨ - الثلاثون : يوم اسم ولي العهد اسكندر .

- ١٩ - ثامن أيلول: ولادة العذراء.
- ٢٠ - الرابع عشر: عيد الصليب.
- ٢١ - السادس عشر: يوم الحوارى المعمد يوحنا. ١٧٣/
- ٢٢ - أول تشرين الأول: ستر العذراء وشفاعتها.
- ٢٣ - الثاني والعشرون: يوم صورة العذراء القرائية، صاحبة الخوارق.
- ٢٤ - العشرون من تشرين الثاني: جلوس القيصر على التخت وتحسب من التاسع عشر.
- ٢٥ - الحادي والعشرون إظهار العذراء في المعبد.
- ٢٦ - سادس كانون الأول: يوم اسم القيصر ومار نقوله.
- ٢٧ - الثالث والعشرون: يتبدىء التعطيل في المدارس إلى آخر الشهر.
- ٢٨ - الرابع والعشرون إلى السابع والعشرون: عيد الميلاد وزيادة على هذه الأيام للمدارس أيضاً، تعطيل في وقت الصيف، فبعضها يمكث شهراً ونصف، وبعضها ثلاثة أشهر.

الفصل السابع

في الخط العمومي

- ١ - التياتر: ابتدأ في بتر بورغ بهمة شاه زادة نتاليا أخت بطرس الكبير، وبنى أول تياتر من الخشب، وكان اللاعبون عشرة والموسيقيون ستة عشر كلهم من الروس، وأول دور لعب في ذلك التياتر: تراجيديا، يعني: رثاء.
- وكان التياتر إذ ذاك على الخزنة، والناس يتفرجون مجاناً، ولما ماتت نتاليا، بطل التياتر إلى تملك القيصرة حنا، ثم دعيت اللاعبون الإيطاليون ثم الفرنسيون، وبتقدم الأدب الروسي ظهر التياتر الروسي، فصنف أولاً سوماروكوف تراجيديا روسية على كيفية التياتر الفرنسي ووسحر أقرانه، والقيصرة إليزابيت

اعتنت جداً أيام التياتر، وقلما تغيب عن الحضور إذا لعب.

وفي سنة ١٧٥٥م لعبت أول أوبرا روسية «مراريا» الذي صنف لها الموسيقى أنعم عليه بكرك ومائة^(١) نصف امبريال، وفي أول مملكة كترين الثانية، أخذت التياتر قوة جديدة، فأنعمت حيث جلوسها على التخت ١٧٤/ بتكثير الجماكي (الرواتب)، وتحسين الملابس، وأرسل ديميريفسكي إلى البلاد الغربية ليتقوى في صناعة الغناء، ثم أرسل إلى باريز ليدعو بعض اللاعبين الفرنساوية، وبنيت مدرسة لتعلم التياتر، وبنى تياتر كبير من الحجر سنة ١٧٨٤م، وكل الناس تقدر أن تروح بثمان مقدر، وزاد ذوق الناس للتياتر ولا غرو، فالناس على دين ملوكهم.

كاترين كانت ماهرة جداً في هذا الفن كغيره، حتى إنها صنفت أدواراً استخرجتها من التاريخ الروسي والحكايات الروسية، وبلغ عدد اللاعبين في آخر مملكتها إلى ٢١، واللاعبات إلى ٢٢، ومع أن التياتر الفرنساوي ابتداءً في زمان اليزابيت، لكن كاترين ما وفرت شيئاً لتحسينه ورفع درجته، وزيادة على التياتر الميري كانت تياترات للكبراء، منها تياتر الأمير يوسوبوفا، كل جمعة مرتان من خمسة لاعبين وخمس لاعبات، وهو أوبرا إيطاليانية، والمال من الكبراء محبي التياتر، ثم رتبت جمعية النيمساوية تياترين نيمساويين.

وفي سنة ١٧٦٥م، رتب التياتر الإنكليزي وبقي سبع سنين ثم انقطع وما تجدد إلى الآن، وفي أيام القيصر اسكندر الأول زاد حسن التياتر، وكثرت جمعية اللاعبين واللاعبات.

وفي سنة ١٨١٧م خلص اللاعبين من القردة، وفي زمن القيصر الحالي نقوله الأول بلغ التياتر الدرجة العليا، إذ بُني في زمنه بالحجر التياتر الاسكندري للألعاب

(١) مائة وأربعين.

(٢) الجماكي : جمع جامكية، وهي مكافأة مالية.

الروسية، والتياتر الحجري في جزيرة الحجر، وتياتر ميخائيل للألعاب الفرنسية والنيمساوية، والتياتر يلعب طول السنة، ويبتدىء في المساء، وكذلك الرقص والنوبات إلا أنه تارة تعمل نوبات في النهار، وذلك لأن الناس مشغولون طول النهار، فينبغي لهم التسلية في الليل، لأن السامة فيه أقوى، والله درُّ أبي هلال العسكري، حيث قال: ١٧٥/

فاجعل الجِدَّ بالنهار شعاراً وألهُ بالليل ما بدا لك واطرب
كم تسربلت من رداء ظلامٍ ضحكك اللهو منه إذ هو قَطْبُ
ورأيت الهموم بالليل أدهى وكذاك السرور بالليل أعذب

إلا في أيام الصوم الكبير، وصوم وفاة مريم، وبعض أيام آخر، لكن في الجمعة الثانية من الصيام الكبير، يعمل اللاعبون نوبات، ويظهرون مع ذلك صوراً حقيقية، فيحصل بذلك للناس السرور والتسلي.

٢ - النوبة: ما كان ميل الروس إلى صناعة الموسيقى وذوقهم مثلما كان في النيمسا وغيرها من أوروبا، لكن بعد ذلك انبثت الشهوة، وزاد الشوق في القلب الروسي إلى هذا التمتع الروحاني، وفي وقت كاترين الثانية ابتدأت في بتر بورغ جمعيات الموسيقى، وأحدثت في سنة ١٧٧٢م أولها من ٣٠٠ عضو، وكل أسبوع تعمل ليلتين، وتأتي الناس فيها بكثرة للسمع، لكن هذه الجمعة ما طالت مدتها، ثم أحدثت أخرى تعمل كل سبت نوبة، وكل أسبوع رقصاً أو مسخرات، وأعضاؤها ٥٠٠ كل يدفع ١٥ ربلاً، والتخت يجلس عليه خمسون من أعظم الموسيقيين، وأول المغنين والمغنيات. وكل مشاهير هذه الصنعة في ذلك الزمان يجيئون في بتر بورغ ويعملون النوبات، ويأخذون عليها مبالغ جسيمة من ١٠٠ - ٢٠٠، ثم بلغت هذه الجمعية حدها، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فبيعت الآلات والأثاث في محضر عظيم من الناس، ثم أحدثت أخرى، وبموت أعضائها ماتت، ثم في سنة ١٨٠٢م ابتدأت جمعية فيل ارمونيا يعني «محب الموسيقى» بقصد إعانة فقراء

الموسيقيين، ودامت إلى هذه الأيام، وقبل نيف وعشرين سنة كان رأس مالها ٦٠٠٠٠ روبل، يعطى منها راتب لاثنين وعشرين من أرامل الموسيقيين كل سنة ١٧٦ / (٣٠٠ للواحدة)، ومن ذلك الزمان زادت مرميتها، واتسعت نعمتها، ومع أنها لا تعمل النوبات العمومية إلا نادراً مرتين في السنة، وقبل نحو ستة عشر سنة أحدثت جمعيات أخرى للموسيقى. وفي كل سنة خصوصاً في أيام الصيام تعطى نوبات كبيرة مشتملة على الغناء على القانون أو اللعب بالكمنجة أو بالنادي خصوصاً للمشاهير. مثل روبيتي، فإن نوبته ساوت ٤٠,٠٠٠ ربل مع أنه ما غنى إلا أربعين دقيقة، وتارة تعمل نوبات باسم السقط أو المرضي، فيؤخذ المبلغ ويدفع لهم، وتارة تعمل نوبات مخصصة في البيوت لأجل المعارف، فحينئذ يسمعون مجاناً، ومن حيث أن تربية النساء مستوجبة لتعليم الموسيقى والغناء، فلا يندر سماعهن في بيوتهن، وقد اتفق أني سمعت فتاة سوداء العيون والشعور تلعب على القانون فأطربني ضربها فقلت:

مصرية بعيونها وشعورها فبها ترى مصرا بذّيّك الحمى
لله در بنانها قد أحكم ال قانون حتى كاد أن يتكلما

وبالجملة، فقد يعجبنا تارة لعبهم وغناؤهم إذا كان حسناً كغناء روبيتي، وبعض الإيطاليين المشهورين بحسن الضرب والغناء، وتارة يعجب الضرب دون الغناء كما قال الشاعر:

غناءً تستحق عليه ضرباً وضرباً تستحق به غناها

وتارة لا هذا ولا هذا، كقول أبي الفتح الحلبي، وهو أملح ما قيل في هجاء عواد:

ومُغْنٌ عن غيره غير مُغْنٍ جاء في لحنه القبيح بلحنٍ
كاد في كفه القضيبي من الغيظ ينادي يا أثقل الناس دعني

وقد كتب إلى الخواجة فريسئل، قنصل جدة حالاً ما نصه :

«ومن خصوص الموسيقى، لا بد من واحد جنّي أو مَلَك من الملائكة يقضي ما بينكم ١٧٧/ وبيننا، لأننا لا نتلذذ بأغانيكم ولا تتلذذون بألحاننا، وأمّا من جهة الشعر والأدب فجميعنا على ذوق واحد، إن شاء الله إلّا القليل، وإذا أقمتكم بأرضنا مدة كم سنة كان في الاتفاق بينكم وبيننا من غير استثناء قدرة الله آمين».

٣ - الرقص: ليس إلّا حركة خالية من الفحش بالكلية، فهو في الحقيقة لعب لتسلي الحاضرين، فلذا يعتبره أهالي بتر بورغ من أعظم المسليات بعد التياتر والنوبة، ويبتدىء من الخريف إلى الصوم الكبير، ويكون في العصر عند القيصر وعند الوزراء والأمراء وأرباب المراتب من ذوي السيف والقلم والأغنياء وشهبندرات التجار وغيرهم، كل على حسب حاله، وتارة يكون عمومياً كما في مجلس الأعيان ونحوه.

وأول ابتداء الرقص في روسيا كان في زمان بطرس الكبير، وفيه حصل للروس اكتساب قوانين الأوروبا والملاطفة وحسن الخطاب الناشئ ذلك عن اجتماع النساء والرجال، فيتكلف الرجل في مخاطبة النساء ما لا يتكلفه في خطاب الرجال، حتى صار التكلف كلفاً، ولو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلّا قصر النظر عليهن وعدم التعلق بالغلمان لكفى، كيف وفيه فوائد أخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قلت:

ولو أنّ النساء تبدو بمصر	ما سمعنا تغزلاً في غلام
كل هيفاء كالغزال بوجه	ساطع نوره بغير لثام
قلبت برقعاً بعقرب صدغ	أفمن لدغة الخدود دوامي
ولكل امرئ جليس أنيس	فاتّقوا الله يا أولي الأحلام
أيّ عُذر في عشق رب عذار	في هوى الغانيات أيّ ملام

وفي زمن كاترين الثانية كانت جمعية الرقص لازمة لحظ الكبار، وغيتهم زادت على الحد، والتزين والتفاخر والإسراف في الأعياد ١٧٨ / حتى عند التجار الروس بلغ أقصى درجة، فتارة تغطي السفّر لآلاف من الناس وينفقون مبالغ جسيمة ٥٠,٠٠٠ ربل أو أكثر، وبقي من هذا آثار إلى الآن، لكن الأكثر البساطة وعدم التكلف في لبس الستات على الذوق الأوروبي وإكرام الأضياف وأدب الأولاد، ولا يلزم الضيف أو زائر الجمعية أن يرقص أو يلعب الورق، بل على كيفه، فيجوز له أن يجلس ويلاحظ من يلعب أو يرقص، إلا أنه قد يستثقل من يترك اللعب أو الرقص بلا سبب في البيوت لا في الجمعيات لأنه لا تكلف فيها، قال بعضهم: لو حسب عدد الآتين في جمعيات الرقص، وفي الليالي المعمولة، وطرح منه عدد من يلعب الورق أو يتفرج كان الراقص واحد من مائة وستين.

ثم أنواع الرقص كثيرة، المشهور منها ثلاثة:

الأول: الفلس، وهو مفتاح الأنواع، ففي السهرات والأعياد أول ما يبدأون به، وكيفيته أن يأخذ رجل امرأة فيضع يده اليمنى على خصرها واليسرى في يدها اليسرى، وهي تضع يدها اليمنى على كتفه، ثم يلفان بحسب القانون الذي يضرب عليه القانون أو غيره من الآلات الموسيقية، ويتولد من هذا النوع نوع يسمى البولكة «البسيطة»، والبولكة بالارتعاش بإمالة الرأس وإرعاش الجسد بغاية الصناعة، وهو بالعداري أليق خصوصاً بالهيف لا بالسمان.

الثاني: القادريل الفرنسي، وهو التابع للأول، ففي العادة يرقصونه بعد الفلس، وهو أن يجتمع الراقصون، كل رجل مع امرأة وفي مقابلتها كذلك زوجان أو أكثر في طول المقعد، وكذلك في العرض، وهو مركب في ست صور في جميعها يتبدى الراقصون الذي في الطول. ١٧٩ / فإذا فرغوا في أول صورة بدا الذي في العرض، وهكذا الأولى، يمر كل زوج من الراقصين إلى مقابله، ثم يرجع إلى موضعه بحيث أن يتزحزح كل من الراقص والراقصة ثم يتقدمان ويد كل واحد

في يد الآخر اليمنى في اليسرى وعكسه، ثم يلفان في محلهما دوره، ثم تذهب الراقصة فتأخذ بيد الراقصة المقابلة وتلف معها لفة، ثم يأخذ الراقص راقصة غيره ويلفها في موضعه، ثم تجيء راقصة فيمسكها بيده، ويذهب إلى الموضع المقابل ثم يرجعان إلى محلهما.

الثانية: أن تذهب امرأة نحو الطرف المقابل إلى نصف المقعد، ثم تقهقر قليلاً، ثم كذلك إلى حيث المقابلون لها، ثم تكرر راجعة، فقبل وصولها يمشي من ترقص معه أمامها قليلاً لملاقاتها، ثم تضع يديه في يديها على ما قدمنا، ويلفان لفة، ويفعل مثلها رجل من الطرف الآخر يقابلها، وعند رجوعه تقابله راقصته، فتمشي له قليلاً ثم تضع يديها في يديه، ويلفان لفة، ثم تذهب المرأة الأخرى، ويقابلها الرجل الآخر، فيتم أن كل رجل وامرأة رقص أمام مقابله.

الثالثة: أن تذهب امرأة إلى المقابل ثم تكرر راجعة إلى نصف المقعد، وتأخذ بيدها اليمنى راقصها وبيدها اليسرى الرجل الآخر الذي يفعل مثلها، ويكرر راجعاً ويأخذ بيده راقصته، ثم يمشي الزوجان قليلاً، ثم يفترق كل زوج قليلاً، ثم يفترق كل زوج فترقص المرأة أمام الرجل المقابل بأن يتقدم ثم تتأخر وهو كذلك ثلاث مرات، ثم تأخذ يد راقصها وتذهب إلى المقابل، والرجل الذي أمامها يأخذ راقصته ويذهب إلى المقابل، ثم يرجع كل إلى موضعه ثم يعاد ذلك، فيبتدىء الرجل والمرأة الأخرى على نحو ما تقدم.

الرابعة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته ويرقص معها إلى المقابل ويقف قليلاً، فترجع الراقصة المقابلة معها وهو يمر بينهما ثم يتقدم لراقصته ويلفان وكذلك الآخرين ثم يأخذ الرجل الثاني ١٨٠/ بيد راقصته ويفعل كالأول.

الخامسة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته ويذهب بها إلى الطرف المقابل فيأخذها الآخر على شماله وراقصته على يمينه، ويرقص معها بأن يتقدم ثم يتأخر ثلاث مرات، ثم يأتي الرجل الآخر فيأخذ راقصته فيرقص معها أمام ووراء، ثم

يرجعان، ثم يفعل الرجل الآخر كالأول.

السادسة: كالأولى، إلا أنه تارة قبل ذلك يمشي كل زوج، ويد كل راقص في يد راقصته، وتارة عين الرجل على خصر المرأة ويسراها على كتفه إلى نصف المقعد، ثم يكرر راجعاً.

الثالث: المازورق، وهو أن يجتمع أزواج كثيرة، ويجلس كل راقص مع راقصته كالحلقة، ثم يتدّى رجل مع امرأة، فيرقص معها بطول المقعد، ثم يكر معها راجعاً، ثم يلفان واضعاً يده على خاصرتها، ثم الثاني والثالث، وهكذا إلى الآخر، لكن يحدثون بعد كل مرة شيئاً بأن تجلس امرأة في الوسط، ويأتي رجل تعينه يسمى «كاتم السر» فيقف عندها، ثم يأتي راقصها برجل وامرأة، فإن كان ذلك الرجل هو الذي تريد قامت ورقصت معه، ورقص رجلها مع المرأة المجلوبة، وإن كان غير الذي تريد، ويعلم ذلك بإشارة كاتب السر أن لا رقص ذلك الرجل مع المرأة المجلوبة، وأن رجلها برجل وامرأة، وهكذا حتى يأتي الرجل الذي تريد أو بأن ترمي امرأة منديلها إلى الهواء فمن خطفه رقص معها، إلى غير ذلك، وليس في كل هذا ما يخل بالأدب، ولا يشتم رائحة الفجور، وإنما هي عوائد وأخلاق لإراحة النفوس من الإرهاق، ولا يصدق ذلك إلا من رأى وإن صدّ غيره ونأى:

وإذا لم ترَ الهلالَ فسلمْ لأناسٍ رأوه بالأبصار

الرابع: المسخرات، جمع مسخرة، وأخذ الجمع من لسان العربي، ١٨١/ وسمي به في لسان الروس هذا النوع من الرقص، لكنه أبدلت الخاء بالكاف واخترعه كرانتييس في سنة ١٥٤٠م لأجل إظهار حركة الشجعان، وأول من قاده في روسيا بطرس الكبير، يعني بهذه الكيفية، وإلا فالمسخرات في الميلاد موجودة في روسيا من قبل، ويكون رقص المسخرات في قصر الشتاء ومجمع الأعيان، وفي التياتر الكبيرة خصوصاً في عيد الرفاع، ولبس المسخرات مفتخر، ويلبسون

المسك يعني جلدًا مصورًا، ووجهًا قبيحًا أو شيئًا من حرير يغطي الوجه، ومن أراد الرقص رقص، وَمَنْ لَا تَفْسَحْ، ويتوصل بهذه الطريقة إلى الكلام مع النساء، ولأنهن غير معلومات فيقول الرجل: أنا أعرفك وينزل عليها، وكذلك النساء، وربما كان وسيلة للتعرف بالكبار، وتارة يكون هناك من النساء قليلات الاحتشام، ولما رأيت ذلك أول مرة تذكرت مصر، فإن النساء مغطات الوجوه إلا أن كثيرًا بلا مسك، والقيصر يحضر المسخرات ويمشي مع امرأة لابسة مسكًا، وكذلك العائلة الملكية، ويزيدون تارة في المسخرات القمار وهو تحف ظريفة، وطُرف لطيفة، يبيعونها على البخت لمصلحة الفقراء، فيكتبون أوراقًا صغيرة وينمرونها وبيعون كل ورقة بربل فضة مثلاً، فمن غلب أخذ وَمَنْ لَا فلا، وتارة يفعل هذا استقلالاً.

الخامس: لعب الورق: جرت العادة عند الروس لأجل تقضية الزمان، أنهم إذا جاؤوا عند المعارف يلعبون الورق لأجل تقضية الزمان، فيجلس اللاعبون ثلاثة أو أربعة على سفرة ويعينون أولاً قدر الدراهم لكل ضربة كبيك فضة، أو عشرة أو أكثر، بحسب مقام اللاعبين، ثم إذا فرغ اللعب أعطى المغلوبون للغالبين، ويوضع من تلك ١٨٢ / الدراهم ثمن الورق الذي يصنع في فبريقا لفائدة بيت اللقطاء، ثم إذا طلبوا اللعب ثانياً أو طلب غيرهم أحضر الخادم ورقاً آخر جديداً، ودائماً يحضر زوجاً، لأنه إذا فرغ دوراً أخذوا الورق الذي لا يلعب به، وفرقه بينهم اثنين اثنين، وفي ذلك الوقت يخلط الورق الذي لا يلعب به كي لا يضيع الوقت في غير اللعب، وهذا قمار محض، إلا أنه في هذه البلاد سار بين العباد فقل مَنْ لا يلعب حتى من النساء والبنات، ويعدون ذلك من أحسن المسليات، فإن الضيوف إذا اشتغلت مع بعض في الورق كفت أصحاب البيت مؤنة الملاطفة خصوصاً إذا كثرت الضيوف، وفي بعض البيوت ينضم إلى لعب الورق غيره من المسليات مثل الرقص، وتارة لا، فيقضون الليل في هذا النقار والقمار، وَمَنْ فرغ كيسه ربما لعب بالشكك (الدين)، وربما ضيَّع في اللعب ضياعه، وجلب الطمع له ضياعه، واللعب المشهور الآن يسمى بريفرانس، وهناك لعب آخر يسمى

«الفيسٲ» أقل شهرة. وأنواع لعب الورق لا تحصى، منها نوع يسمى «ميلنيك» يعني الطاحونة لا يدور طويلاً، ومنها نوع يسمى «دورسكي»، فمن غلب يسمى «دورك» يعني مغفل، وهذان في الغالب بين الصغار والعوام، وهناك لعب للنساء يسمى «بسيانس» يعني «الصبر»، وهو نوع من الحزر، فيكهن بالورق الآخر، وقد اتفق أن حزرت لي بنت بالورق، فقالت: يصلك مكتوب عن قريب، وبالاتفاق وصلني المكتوب وأنا في بيتها، أتاني به بعض الضيوف، فأريته إياها، ففرحت، وةالت للناس: انظروا: صدق كهانتي، ولذا قلت ١٨٣/ من قصيدة في جواب ذلك الكتاب لمن أرسله لي مورياً:

وقد وردت لي من لديك صحيفة وقد سبقت لي من فتاة بها البشرى
ومن عجب جاءت إلي بيتها فحققت إثبات الكرامة للعدري

وقد كتبوا كثيراً في أصل لعب الورق، لكن ما كشف أحد الحقيقة في اسم المخترع، والناس المنسوب إليهم اختراعه، قال ريل الخوري: يعرف لعب الورق في إسبانيا في نحو ثلث القرن الرابع عشر من الميلا؁، وأيد رأيه بمنع الفونس، ملك كستيل لعب الورق بالفلوس سنة ١٣٣٢م، وآخر ينسب ذلك إلى النيمسا، وكان جبلينا أتى بالورق من قدماء المصريين، ومع ذلك ادعى عدة من العلماء ببعض أدلة أن فرانساً كانت مهد الورق، وبعض المؤرخين أوصل ذلك أصل هذا اللعب إلى مملكة شارل السادس، وأن اختراعه كان في زمانه لأجل تسليته في وقت راحته وفراغه، وعلى قول هؤلاء المؤرخين، فاللعب المسمى «بيكر» اخترع زمن شارل السابع وداود ملك بيك في كلامهم كناية عن شارل السابع، وما شارل ملك كورفشارل ماني، وأما سيزار ملك كروواسكندر ملك تريفل فما حققوا فيها شيئاً، ويظهر أنهم أرادوا بها ملكين من ملوك فرانساً، لأن شعر العيرة الطويل والنعال المصوريين بهما لا يشبهان بالكلية شجعان روما ولا مقدونيا اللذين لهما اسمهم، ويؤيد ما ذكرنا أنه يوجد في الورق القديم المحفوظ زهر الزنبق في عباءة الملكين، وهذا علامة الفرنساوية، وقد قلت:

هيفاء افرنجية قد رَنت تخطر في الحلي والاستبرق
فالأس والنسرين في شعرها والورد والزنبق في القرطف
١٨٤/ سألتها نسبة آبائها قالت ألم تنظر إلى الزنبق

وأرجين ملكة تريفل كناية عن زوجة شارل السابع ماريه دونجو Maria Dunjia ،
وأما راسد ملكة كرو فهي اكنيس سورل ، وأما بالاس ملكة بيك فهي جان دارك ،
وأما جوديت ملكة كور فهي القيصرة بهذا الاسم زوجة لويز لبثون يعني الطبيب ، وأما
لاهير خادم كور فهو كناية عن قبطان كبير في وقت شارل السابع ، وأما هيكتور خادم
كرو فهو هوكتور غالودان شجاع في ذلك الوقت ، وأما أوجير خادم بيك فكناية عن
شجاع في أيام شارل ماني ، وأما لانسلو خادم تريفل ففارس في ذلك الوقت ،
والخدام الأربعة المسماة في لعب الاسبانيول بالفرسان ، كناية عن الأعيان
والسبعات والثمانيات والتسعات والعشرات كناية عن العسكر ، والأس كناية عن
المال والصيد ، مأخوذة من الكلمة اللاطينية «آس» يعني «معاملة رومية» ، والاثنان
والثلاثة والأربعة والخمسة والستة كناية عن العامة ، ولذلك تسمى الورق «الأدنى» .
وما كانت في عهد شارل السابع بل أحدث بعده ، وهذا اللعب كناية عن معركة
تتقابل فيها العسكر لحفظ الأعيان والملوك ، لكن حربهم وإن أجدى لا يُرقّيهـم إلى
رتبة الملوك ، كما هو عادة مخترع هذا اللعب ، بخلاف الشطرنج ، فإن معركة ربما
ترقى فيها البيدق إلى مرتبة الفرزان ، ومجالسة الملوك كما هو عادة مخترعيه ، ولله
القائل : ابن قلاقس الفاضل :

فرزن البيدق التنقل حتى م انحط عنه في قيمة الدست فيل

وأبو الفضل التميمي : ١٨٥/

دعني أسِر في البلاد ملتمساً فضلة مال إن لم يفر زانا
فبيدق الرّخ وهو أصغر ما في الدست إن صار فر زانا

السادس : جري الخيل : هذا من مقتضيات الزمان اللذيذة ، ومن نحو سنتين ،

بني لذلك تياتر فيجرون على الخيل ، ثم ينطون من فوقها على حبل ثم يرجعون ، وتارة يرقصون عليها أنواع الرقص وبالجملّة ، فقد أدخلوا ذلك في التياتر ، وصاروا يلعبون في كل أسبوع مراراً ، والناس يذهبون بكثرة لرؤية ذلك ، وفي الصيف سباق الخيل في تسارسكيا سلولمن سبق الرهان ، وكذلك في الشتاء على النيفا ، وربما تسابقوا في الزوارق صيفاً وخصوصاً الإنكليزيون .

الفصل الثامن

في تقدمهم في العلوم والفنون

لم تزل الروس يوماً فيوماً تنافس غيرها من الأوروبيين في العلوم والصنائع ، حتى تقدمت في ذلك ، ولهم كما قدمنا أكاديميات للعلوم والتصوير والطب وغير ذلك ، ولهم المدارس العظيمة ، مثل المدرسة القيصرية الكبرى المسماة «الأونيفر ستيت» ، وفيها تتعلم التلامذة الذين فرغوا من التعليم اللازم في المدارس الأخرى ، فيمتحنون للدخول في المدرسة الكبرى ، فإن أجابوا دخلوا ، وهناك يبقون أربع سنين ، يتعلمون الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن والطبيعة والجغرافيا والتواريخ والألسن ، حتّى الألسن الشرقية : العربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرمني والكرجي ، وفي كل سنة يعمل لهم بحث ، فإن أجابوا نقلوا إلى ما يلي ، وإلا بقوا ، فحينئذ بها تحسب السنة لهم . ١٨٦ / وعدة المدارس الكبرى في روسيا ستة ، واحدة في بتر بورغ ، والثانية في موسقو ، والثالثة في خاركوف ، والرابعة في قزان ، والخامسة في كييف ، والسادسة في دربات ، وهناك مدارس أخرى تسمى «انيسيتون» و «ليسي» و «غيمنازيا» ، ومكاتب للأطفال ما يبلغ ٢٣٠ . وفي كل سنة يزداد ذلك ، وفي المكاتب والمدارس الصغرى يعلمون البنات أيضاً كالصبيان ، فيتعلمون النحو والمنطق والرياضيات والأدبيات والجغرافيا والتاريخ والألسن والرقص والتصوير والموسيقى ، وتزاد البنات : الخياطة وشغل

الطارة والإبرة والمنسج ، وتزاد الصبيان : لسان اللاتيني والرومي القديم ، وقد حضرت غير مرة بحث الصبيان والبنات ، وعجبت من حُسن إجاباتهم عن سؤال الباحثين ، فالبنات عالِمات حقيقة ، ويعلمهن يعشن خصوصاً إذا كانت الأقارب فقراء ، فتعلم البنت التي فرغت التعليم أولاد الكبار بماهية سنوية تليق بحالها ، وربما أعانت أقاربها ، وبعض هذه المدارس ميرية ، وللصم والبكم ، الذين يعقلون مدرسة فيها يتعلمون العلوم والتصوير والرقص والألسن ، لكن لا يتكلمون إلا بالإشارة ، ولكنهم يكتبون كغيرهم ويرقصون كغيرهم ، ومن عجيب ما رأيت أني حضرت ليلة رقص عند رجل من الصم البكم ، فكان كثير من الراقصين والراقصات منهم ، وكان اللاعب على القانون أعمى ، فصاروا يتعجبون من كيف يعرف اللعب ولا ينظر ، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على الموسيقى وهم لا يسمعونها :

ولم يرَ عيبه أحدٌ ولكن يرى في الناس كلهم العيوب

وكذلك للقطاء بيت فيه يربون ، لكن لا كترية الأكابر ، بل كترية العامة ، فالذكراَن يكونون عسكرياً ، وأما الإناث يخدمون بنات الأكابر ١٨٧ / المتعلّمات في المدارس الميرية ، وهذا من الخيرات والمصالح ، إذا اللقيط منبوذ لا كافل له فمن لم يكفله بيت المال فمن كافله؟ وهب أنه ابن حرام ، فماذا ذنبه؟ والعجب أنه إلى الآن لم يعمل بيت للقطاء في ديار الإسلام مع تقدم التمدن واقتضاء الشريعة ، وهذا مثل المارستانات والقشَل والواستباليات التي هي كثيرة في هذه الديار ، وكذلك في ديار الإسلام الآن بمعونة الدولة العلية .

خرجنا من ذكر العلوم والفنون إلى بيوت اللقطاء وذوي الأمراض والجنون :

ولربما ذكّر المحدثُ بعض ما ليس النديمُ إليه بالمحتاج

وثمرات العلوم الكسب بها والفخر والرتب ، فمن تعلم خدَم بعد فراغ التعليم ، وربما كتب شيئاً وبثه في الجرنالات أو طبعه مستقبلاً ، فيحصل له مدخول من

ذلك، ولا تستنكف الناس حتى الأغنياء من ذلك، كما كان في قديم الزمان، ومدخول الأدباء كثير في روسيا، وفي فرنسا أكثر مثلاً، فمن كتب عندهم غناء وقيل في التياتر، يعين للناظم في كل مرة يغني شعره جزء من محصول ذلك الدور، وأحد هؤلاء الكتاب مسيو سكريب، كتب في حياته بإعانة المشتغلين معه ٣٥٠ دوراً، وفي سنة ١٨٣٢م قبل منها مدخولاً إلى مبلغ ٤٨,٠٠٠ فرانك، ومن ذلك الجرائد وعددها الآن جاز الحد، ففي بتربورغ بعضها يومي مثل «نخل الشمال» و«السقط» و«أخبار بتربورغ»، وكلها روسية، ويكتب فيها زيادة على الأخبار بعض أدبيات. وبعضها شهري مثل «ابن الوطن» و«الكتابة الوطنية» و«المعاصر» و«كازيطة الأدب» و«خزانة الكتب للقراءة»، فكل شهر يظهر منها كتاب، وفي السنة ست مجلدات، وهذه كتب أدبية جديدة يكتبها أدباء ١٨٨ / العصر، ويظهرونها في قالب الجرائد للتنشيط، وهناك جرائد شهرية للأطفال يكتبون فيها نبذاً من العلوم والحكم والحكايات المسلية اللائقة بهم، وهناك جرائد فرنساوي ونيمساوي، هذا مع قبول الجرائد الغربية من فرنسا والنيمسا وغيرها، ومن ذلك تعلمهم الألسن، فالروسي زيادة على معرفة لسانه يتعلم فرنساوي والنيمساوي وتارة الإنكليزي والاطلياني، وأما اللاطيني والرومي فيتعلمون، ولكن قل من يتكلم بها، فيندر أن ترى رجلاً أو امرأة في مجلس لا يتكلم بالفرنساوي أو النيمساوي، حتى أن كبار الروس لهم زهادة في لسانهم، فتراهم يتكلمون بالفرنساوي، وبعضهم يتكلم بالروسي، لكن يحليه دائماً بالجميل فرنساوية في الأثناء، ومنهم من يتكلم الألسنة الشرقية، وكثير من الروس من مهر في هذه الألسن، وبرع فيها، فكم ترى في بتربورغ وفي آسيا والأفريقيا من يحسن ذلك منهم، وقد أغنوا دولتهم عن اتخاذ الغرباء ترجمانات كما كان في السابق.

الفصل التاسع

في سكنى الروس ومعيشتهم ومركوبهم

اعلم أن بيوت الروس مبنية غالباً بالحجر، وتارة بالخشب، لكن مع الإحكام بحيث تقي من البرد، وهو أدوار ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وفي كل الأدوار حتى في الأول الشبابيك والبيوت التي في الحارات المعتبرة في دورها الأسفل الدكاكين والثاني مسكون بالناس، وكل مسكن مستقل وحده. مثلاً قد يسكن في البيت الواحد عدة عائلات مختلفات كل في مسكنه، وفي مدخل الباب أوضة صغيرة، فيها يقلع الداخلون فراويهم وعباءاتهم، ثم يدخل إلى أوضة كبيرة فيها القانون، ثم منها إلى أخرى تسمى مقعد الضيوف، ١٨٩/ وأخرى للطعام، فلا يأكلون حيث يجلسون غالباً، وأوضة للاشتغال، وأخرى للنوم، وللكبراء أكثر، وللفقراء أقل، وأثاثهم الكراسي من الخشب الأحمر أو خشب الجوز، وربما بطنوها بالجوخ ونحوه، وتارة يعملونها من الحرير ويحشونها بشعر الخيل، ثم السفر وبعضها مستطيل مثل سفرة الكتابة والسفر الموضوعة أمام المرأة وبعضها مستدير مثل سفرة الطعام، ثم المرأة، وفي كل أوضة اثنان أو أكثر بحسب اتساع المحل وضيقه، وهي طويلة، وفي كل أوضة مدخنة محكمة تدفئ كل يوم في أيام الشتاء، وبسبب ذلك الروس متعودون على الدفء في البيوت، ففي الأوضة نحو أربع عشرة درجة حرارة، فلا عجب إذا شكوا في مصر واسلامبول البرد لعدم حرارة الأوض عندنا إلى هذا العدد في الشتاء، وعدم المداخن إلا المنقل الذي لا يدفئ التدفئة الكافية كما أنه لا عجب إذا شكوت من الحر في بتربورغ لأن حرّها وإن قل مضعف جداً بسبب خلوه من الريح والنسيم الرطب، وبهذا السبب بعينه لا يمكن السكنى في بتربورغ في الصيف، فترى الناس يفرون منها إلى الريف والضواحي والبلاد

الغريبة، وبيوت ضواحي بتربورغ محكمة إلا أنها ليست كإحكام البيوت التي في المدينة مثلاً، وفي المدينة تضاعف الشبابيك من الخريف إلى الربيع، ثم ترفع الشبابيك الزائدة، والمداخن مبنية بقطع البلاط المدهونة بالأبيض بحيث لا تشوه الأوض، ومن تحسين البيوت أنهم لا يلصقون على الجدران أوراقاً طويلة عريضة منقشة، كل على حسب ذوقه، وبعضهم يكتفي بالتبييض بأي لون يعجبه، ويعملون للشبابيك زيادة على الستارات البيض ستائر طوال من الحرير أو الجوخ أو الشيت يمسكونها بأيديهم من التنباك ونحوه، وربما علقوا ١٩٠ / على الجدران صوراً جميلة، وعلى سفرهم أشياء لطيفة مثل الشمعدانات والقناديل الفضية، أو التنباك والدمى الظرفية، والتحف النفيسة، واللعب البديعة، وربما زينوا الشبابيك بالأزهار، وربما فعلوا نحو عشرين عريشاً من الأزهار في وسط الأوضة ويبسطون السجاجيد أمام السفر والدواوين النقال والبيوت مبلطة بالخشب، ويغسلونها كل سبت، وتارة يصقلونها بالشمع الاسكندراني، فتكون براقاً لماعة، وهذه البيوت بعضها بالكراء وبعضها بالملك، فمن ليس له بيت أكرى، والكراء غال في هذه البلاد خصوصاً في المضاييف المعدة للمسافرين، ثم الغالب أن يأكل الشخص في بيته بأن يهيئ له الطباخ أو الطباخة الغداء، وأكلهم الشوربة، ويحب الروس شوربة الكرنب، وقبل الشوربة يشربون العرق قليلاً، وربما أكلوا فسيخاً أو جنباً لجلب الاشتها، ثم بعد الشوربة الخضار ونحوه، ثم الكباب ثم الحلو الفطير ونحوه، وفي مدة الطعام يشربون الراح كالماء القراح، وأكلهم بالسكاكين والشوك والمعاليق، وكل يأكل في صحنه، ويأكل بسكينه وشوكته ويشرب من كبايته وقدحه، فإذا فرغوا من أكل كل شيء غيرت الصحون وهكذا إلى آخر الطعام، وفي الأعياد يشربون خمر الشامباني على صحة صاحب العيد في أقداح طوال، ثم بعد الغداء يشربون القهوة في أقداح كبار لا في فناجين كفناجيننا بالسكر والحليب، وفي الصباح منهم من يفطر عليها، ومنهم من يفطر على الشاي أو الشكولات، وفي المساء يشربون الحليب أو الليمون أو هكذا، والشاي لازم جداً في هذه البلاد

خصوصاً في السفر، فهو يقوي البدن وينعش الجسم، وفي أول شربة يمنع النوم لكن بعد التعود ١٩١/ عليه لا يضر، ويشربون الدخان في السيقان، ويشربون السيجار وتارة الدخان في الورق الملفوف، وندر شرب الشيثة إلا عند الفرس، فهم المتوحدون في هذه الديار بتعاطيها، والعاملون بما قيل فيها:

هات اسقني التباك من نرجيلة نغماتها تغني عن القانون
تغني المزاج عن العلاج وربما يغني بها الآسي عن القانون
«القانون الأول: آلة الموسيقى».

«والثاني: كتاب ابن سينا في الطب، وقد اتفق لي جناس في القانون تاماً ومركباً»، فقلت موالياً:

موال نعماني

في وصف حاجب على الألاحظ ألقى نون
سطرت نوبة على السنطير والقانون
يا اللي رضابك شفا يروي عن القانون
ارحم متيم غدا جسمه يشابه عود
وزاد غرامه ولا حدش لسقمه يعود
ما به صدود عن حبيب وخلف وعود
ما به عدول في غرام زاد على القانون

قد استطردت في هذا الباب لأنه باب كيف مع أني ما خرجت عن القانون
ولاكرام الضيوف في المساء بالشاي والدخان وأنواع الفواكه، وفي الحلوى وفي
الصبح تارة بالقهوة والدخان، وإذا جاء الضيف فلم يجد صاحب البيت ربما قبلته
امراته وجلست معه حتى يجيء زوجها، وإن كان معرفة لها ولا نكير في ذلك
فللنساء المحل الأول، وهن المدبرات لأمر البيت، الملمات لشعث الزوج:

إذا لم يكن في منزل المرء حُرَّةٌ تدبره ضاعت مصالح حاله

ولهن على السفرة المجلس الأول، وأول ما يعطى الأكل لهن، وكذلك في الكنيسة، وفي مجالس الرقص، ويستلطف أن يأخذ الرجل بيد امرأة لإعانتها على المشي أو إصعاد السلالم، وربما قبلت أيديهن، وتارة يكون ذلك في القصر، فتأتي الضباط والكبار، ويقبلون يد الأميرة، والعادة طبيعة ثانية ولعنات القلوب ثانية، ١٩٢ / ثم مراكبهم العربات الثمينة بمحليين أو أربعة مقفولة، وتارة مكشوفة، وهي الكاروصات المستعملة في الربيع والصيف غالباً، والدروشكي بمحل واحد واللينكه بمحليين، وكل ذلك يوجد للكراء، إلا أن الكبراء والأغنياء يقتنون ذلك ويتأنقون فيه، ويجر العربا فرسان أو أربعة، وأما الدروشكي فواحد، وهناك عربات كبيرة للسفر، وعربات لنقل الأمتعة في غاية الحقارة، وهناك عربات طريق الحديد يجرها البخار، وذلك إلى تسارسكيا سلو، وربما ركبوا الخيل خصوصاً أرباب السيف، وتارة تتركب النساء الخيل، لكن حينئذ يلبسن برانيط الرجال ويسمين «أفرون»، وبنات القيصر مشهورات بذلك، وكذلك بنات الكبار، وفي أيام الشتاء يركبن الجرار، وهو عربة بلا عجل، لكن يزلقها الثلج فتمشي بالعجل وهو أسهل المركوبات، وفي أول هجوم الثلج يتسارع الناس إلى ذلك زرافات ووحدانا، ويسدون عن نفوسهم بذلك أحزاناً، وقلت:

في الثلج أغدو للصفاء في عربات الزحلقة
فبتر بورغ كلها حصيرة مزحلقة

الفصل العاشر

في لسان الروس

أصله الصقلب، ولسان الروس غني جداً كالألسنة القديمة، وفيه الإعراب كما في لسان العربي، فالمبتدأ والخبر لا تغيير فيها، بل على أصل الكلمة، وكذلك الفاعل والمضاف إليه مفتوح تارة، المجرور مخفوض، والمفعول تارة منصوب وتارة

كالمبتدأ، والمُعطى له مضموم . . إلى غير ذلك مما فُصِّلَ في نحوهم، وفعل الكون لا يستعمل في الحال بل يحذف كما في العربي، فنقول: نا راض، يعني: أنا راضي، ١٩٣/ وعندهم علامة المؤنث في الاسم والوصف تارة كالعربي، مثلاً: الكساندره، يعني: اسكندر ه راضه يعني: راضية، وتسهل الترجمة من ألسنتنا الشرقية إليه، وبالعكس للموافقة في كثير من المعاني والتصورات، وأمثلتهم موافقة لأمثلتنا كثيراً، وفي حروفهم الخاء، وعندهم أصوات الحروف الغليظة كالصاد والطاء، فلهذا يسهل عليهم التلفظ بالعربي أحسن من غيرهم من الأوروبيين، ومما يوافق فيه العربي قولهم للشخص في الإخبار عن موت بعض الأشخاص «امر لك بالمعيشة زماناً طويلاً»، وهذا بالكلية، مثل قولنا في هذا المعنى: «تعيش»، وفيه كلمات كثيرة أخذت من لسان التاتار والنيمساوي والفرنساوي، وتركيبه سهل، فيجوز تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفعل والفاعل إلى غير ذلك، ولا يستعملون للدلالة على الآلة والواسطة ولا للدلالة على مَنْ له الشيء المسمى عندهم داتلني يعني المعطى له حرفاً، بل يدل عليه بتغيير الكلمة بنوع مخصوص، وأشعار الروس بديعة للغاية وبعضها كأشعارنا، وقلت مترجماً شعراً روسياً في مدح شجاع:

إذا ركب اللجّات جاشت مياهها وإن مرّ في طود تفقع جلده
وإن طاف ما بين البلاد تدهدت وترمي وراء السحب أبراجها يده

وقلت مترجماً في الغزل:

الزهر إن جدّ لا ينمو بغير هوا والقلب إن شبّ لا يحيى بغير هوى

وقلت كذلك:

لأجلها وحدها الآفاق نيرة والبلبل الليل قد غنى على الزهر
كالند عرفاً ومثل البان قامتها لطيفة مثل ورد زين بالخفر

سما الجنوب التي تزهو كواكبها تلوح من عينها الزرقاء للنظر

١٩٤/ ومما ينبغي أن يُتنبه له أن المترجم من لسان لا بد أن يلاحظ ما يكون مقبولا في اللسان الآخر، وإلا غير كما فعلت في هذا الشعر الأخير، فإن الشاعر شبه في الأصل القامة بالنخلة الهندية، وهذا بديع في اللسان الروسي، مُستهجن في العربي، فلذا غيرته إلى البان، والمؤدّي واحد، وهنا حبست عنان القلم، وله قلت:

يراعي كُفّ الخوض فالبحر زاخر ولا تتجارى قد جرى منك ما كفى

والله أسأل، وبنبيه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولا عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحدوا عن سبيل الاعتساف، فما قصدي إلا التبصير، وما مرامي إلا التذكير، وإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

قد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول ١٢٦٦ من الهجرة النبوية على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني في سنة ١٨٥٠ من الميلاد، والله ولي السداد على يد مصنفه الفقير:

محمد عياد الطنطاوي المصري بئر بورغ

الفهارس

١ - الأعلام

اسكندرة فيدوفنا، ١٨١	ابراكسين، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٤، ١٤٠
اكنيس سورل، ٢١٥	١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧
الكسي ميخايلوفيج، ١٦٠، ١٦٩	١٦٢، ١٧٤
اليزابيت، ١٧٥، ١٧٦، ٢٠٥، ٢٠٦	إبرنسشليد، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٨
امرؤ القيس، ٧٣، ٩١	أوبرارانسكي، ١٤٣
انيشيكوف، ١٨٤	ابرورنهر، ١٢٥
أواروف (قيصر)، ١٠١	ابريفانسكي، ١٧٧
اوبريسكوف، ١٦٥، ١٦٦	أحمد (السلطان)، ٧١
أورخوف، ١٢٣	أحمد بن عبد العزيز المقدسي، ٥٠
أوجير، ٢١٥	الأخطل، ٧٠
إيفان الثالث، ١٢٢، ١٢٣	أرسطوطاليس، ١٨٩
إيفان الرابع، ١٢٤	أريك الكبير، ١٢٣
إيفان غورد، ١٢٤	أزبك، ١٥١
ابن بابك، ٩٥	اسكنديار، ١٢٣
بالاس، ٢١٥	اسكندر، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٨، ١٧٧
برانت، ١٦٩	١٨٢، ٢١٤
بروس، ١٤٥، ١٥٧، ١٨٠	اسكندر الأول، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ٢٠٦
برياوبرارنسكي، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨	اسكندر ذو القرنين، ٩٥
بطرس، ١٠٥، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠	اسكندر النيفسكي، ١٧٣
١٣١، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٧	اسكندرة، ١٤٩

ابن حجاج، ١٩٥	١٥٦، ١٥٣، ١٥٢، ١٤٩، ١٤٨
الحريري، ٥٠، ٧٠، ٩٣، ٩٧	١٧٤، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٤
حنه، ١٨٧، ٢٠٥	١٩٩
جان دارك، ٢١٥	بطرس الأول، ١٠٩، ١١٠، ١٢٢، ١٢٦
جبلينا، ٢١٤	١٤٤، ١٨٠، ٢٠٢
جوديت، ٢١٥	بطرس الثاني، ١٥٨، ١٧٤
جورج (مار)، ١٠٨	بطرس الكبير، ٨٥، ١٠٩، ١٢٢، ١٣١
خسرو مرزا، ١٧٩	١٣٢، ١٣٥، ١٤٥، ١٤٦
الخشنامي، ١٩٣	١٥١، ١٦٦، ١٦٧، ١٧١
داود، ٢١٤	١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٣
دويدروف، ١٦٣	١٨٤، ١٨٩، ١٩٦، ٢٠٥
دكروا، ١٤٦	٢٠٩
ديمزون، ٥٧	بطرس (مار)، ١٠٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤
ديميريفسكي، ٢٠٦	بوتزي، ١٤٣
	بوسادينك، ١٢٣
ذوتوف، ١٣٣	أبو بكر الشيرازي، ١٩٢
رازين له، ١٦٩	بونيريس، ١٤٠
ربنين، ١٣٢	بولص (مار)، ١٠٩، ١٣٤، ١٨٠
رستريلي، ١٧٥	بنياكوفسكي، ١٨٠
ابن رشيق، ٥٩	ترلينسكي، ١٠٦
روبيتي، ٢٠٨	تروبتسكي، ١٣٣
روريق، ١٠٢، ١٠٣	ترويسكي، ١٧٩، ١٨١
روش، ١٥٧	تريزيني، ١٣١
رومانتسوف، ١٨١	توزوف، ١٥٦
ابن الرومي، ٥١	أبوتام، ١٦٥
رون بيك، ١٣١	تيتوف، ٧١
ريل الخوري، ٢١٤	الحاجري، ٩٠

الشهاب الخفاجي ، ٦٢	زادونايسكي ، ١٧٧
الشاه زادة ، ١٨٨	زليخا ، ٥٧
شاه زادة حنا ، ١٤٦ ، ١٥٥	زيمنيكسكي ، ١٧٧
شاه زادة قسطنطين ، ١٤٥	زوتوف ، ١٤٩
شاه زادة الكسي ، ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٥٧	سافراتسيا ، ١٧٧
شاه زادة مارية ، ١٨٤	ستانيسلان ، ١٨٧
شاه زادة نتاليا ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ٢٠٥	سعد التفتازاني ، ٥٠
شيريميتوف ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٦ ، ١٢٨	أبو سعيد الأبي ، ١١٣
١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٦	سكولد ، ١٠٣ ، ١٠٤
صولتيكوف ، ١٥٦	سلافيج ، ١٢٣
أبو الطيب المصعبي ، ١٩٢	سليك بن السليكة ، ٨٩
عبد المجيد (السلطان) ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٦٨	سليمان بن عبدالله ، ٥١
العدراء ، ١٠٤ ، ١٦٥	سوماروكوف ، ٢٠٥
عزيز مصر (الباشا) ، ٥٨	سوفاروف ، ١٨١
ابن عطاء الله ، ٨٢	سيزار ، ٢١٤
أبو العلاء المعري ، ٥١ ، ١٨٦ ، ١٩٥	سينبوك ، ١٣٠
عنيزة ، ٧٣	سينياوين (سر) ، ٧١ ، ١٧٠
عيسى (النبي) ، ١٩٤ ، ٢٠٣	سيمون (مار) ، ٢٠١
غاغارين ، ١٤٩ ، ١٥٦	سمونوفسكي ، ١٢٧
غاليتسن ، ١٦٤ ، ١٦٥	ابن سهل ، ٥١
غردبا ، ١٢٤	شارل السادس ، ٢١٤
غلييوفسكي ، ١٢٦	شارل السابع ، ٢١٤ ، ٢١٥
أبو الغنائم الرملي ، ١١١	شارل الثاني عشر ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،
غوستاف أدولفه ، ١٢٤	١٤٠ ، ١٤٦
غوستو ميصل ، ١٠٢	شارل ماني ، ٢١٤ ، ٢١٥
غولوقين ، ١٣٠	الشافعي ، ١٩٨
غولوفكين ، ١٣٣	شانيروف ، ١٤٩

أبو الفتح الحلبي، ٢٠٨	كرانتيس، ٢١٢
فرانسوف، ٧٨، ٨٤	كروينورت، ١٣٤، ١٣٧
أبو الفرج بن أبي سعد بن خلف، ١٩٣	كريب، ٢١٨
فردريك الأول، ٦٤٦	كريستينا، ١٢٤
فريزيوس، ١٢٤	كرويس، ١٤٣
فرين، ١٨٠	كونتشي، ١٢٥
فرينل (مسيو)، ٥٧، ٧٨، ٢٠٩	كوفر، ١٨٠
أبو الفضل التميمي، ٢١٥	لابيرت، ١٢٧
فلاديمير، ١٠٤، ١٧٣، ١٨٥، ١٩٤	لانسلو، ٢١٥
فؤاد أفندي، ٩٧	لاهير، ٢١٥
فوطي، ١٠٤	لندري، ١٣٠
فون هوفت، ١٥٦	لوبيكر، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢
الفونس، ٢١٤	لويزلبثون، ٢١٥
فيدروف، ٨٤	مار أندريا، ١٤٢، ١٤٣، ١٦٦
قسيم بن ابراهيم، أبو منصور، ١٠٨	مارية، ٢١٥
كالوفكين، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠	مارية دونجو، ٢١٥
ابن أبي كامل، ٥١	ماغنوس، ١٢٣
كبيريان (المطران)، ٢٠١	المتنبي، ١٨٠، ١٩٠
كترين، ١٥٤، ١٦٤، ١٧٤، ١٧٩	محمد بهادر، ١٥١
١٨٠	محمد خليل صاحب زادة، ٩٧
كترين الثانية، ٧٥، ١٤٤، ١٤٥، ١٧٦	محمد الفاتح (السلطان)، ٦٧، ٨٢
١٧٧، ١٧٩، ٢٨٠، ٢٠٦	محمود (السلطان)، ٧٠، ٧١، ٩٧، ١٦٥
٢٠٧، ٢١٠	مريم، ١٩٩
كترين الكبيرة، ٧٥، ٨٦	أبو المعمر يعمر، ١١٤
كترينغوف، ١٢٩	موخين (مسيو)، ٧١
كرافت، ١١٧	موديل الكيماوي، ١٠٦

نوميرسي، ١٢٩، ١٣٧	ميتيشيكوف، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩
نيدهارت، ١٢٦	١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣
نيفسكي سيمون، ١٢٣	١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨
أبو هلال العسكري، ٢٠٦	١٤٠، ١٤١، ١٤٦، ١٤٧
أبو الهول، ١٧٩	١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٧٤
هيكتر غالودان، ٢١٥	ميدن، ٨٧، ٥٨
وادم، ١٠٣	مرزا جعفر، ٥٧، ١٨٢
وأرجين، ٢١٤	نابليون، ٦٠
وسيلي دميتريفيج، ٢٠١	ناريشكين، ١٣٣
يوتومكين، ١٧٩	نستور، ١٢٢
يوحنا الكبيرة، ٩١	نسل روض، ٥٧
يوسوبوفا، ٢٠٦	أبو نصر الأصفهاني، ١١٢
يوستنيان، ٦٧	نقولة، ٦٤٣، ١٤٤، ١٤٦
يوسف الصيداوي، ٥٦	نقولة (مار)، ١٠٨، ١٩٩
يوسف (النبي)، ٥٦	نقولة الأول، ١٧٦، ١٨١، ٢٠٦
	نومير، ١٣٦

٢ - الأمكنة الجغرافية

آسيا، ٦٣، ١٠٠، ١٠١، ١٦٣	افريقيا، ١٧٥، ٢١٨
٢١٨، ١٧٥	الأفلاق، ٧٥
أبو، ١٤٨، ١٥٢	امريكا، ٥٧، ١٦٣
أرخانكيل، ١٣٦، ١٤٩	امستردام، ١٥٧
أردبيل، ١٥٠	أناضول، ٦٢
أرول، ١٦٩	الأندلس، ٦٢
أزمايلوف، ١٦٩، ١٧٥	أوبسال، ١١٤
إزمير، ٦٢	أوجاكوف، ١٧٩
أزوف، ١٣٣	أوخته، ١٢٤، ١٢٦، ١٧٥
اسبانيا، ٢١٤	أودسا، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٦
استراباد، ١٦٣، ١٧١	٨٦
استراخان، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٩	أوروبا، ٥٧، ٦٣، ١٢١، ١٢٢
أستونيا، ١٢٥، ١٣٨، ١٤٥، ١٤٦	١٥٤، ١٩١، ٢٠٢، ٢٠٧
١٦٥	٢٠٩، ٢١٠
اسلامبول (الأستانة)، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٤	أولونيتز، ١٣٢، ١٧٢، ١٧٣
٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩	أومة، ١٨
٧٠، ٧١، ٧٣، ٧٤	أيا صوفيا، ٦٧، ٨٨
٨٠، ٩٤، ٩٥، ١٤٨	أيتاندار، ١٣٦
١٥٥، ٢١٩	إيطاليا، ١٤٢، ١٥٤
أسكدار، ٦٣، ٦٤	إينساري، ١٢٠
اسكندرية، ٥٦، ٩٥، ١٨١	اينسبورغ، ١٤٥

بحر البلطيق، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١٢٣
 ١٢٥، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦
 ١٣٨، ١٥٤
 بحر الروم، ٦١، ٦٦
 بحر كيلا، ١٣٥، ١٦٣، ١٦٩
 بحر مرمرة، ٦٣
 براسكوفيا فيدروفا، ١٧٢
 بر العرب، ٨٧
 بر الفرنج، ٨٧
 بركة الشيخ قمر، ٧٠
 بركة لادوغة، ١١١، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦
 ١٣٢
 بروسيا، ١٤٦
 بسكوفسك، ١٠٢
 بغداد، ٧٥
 البندقية، ١١٤، ١٢٨
 البنيك، ١٤٥
 بوتورلين، ١٧٢
 بودن، ٩٣
 بورغو، ١٤٠، ١٤٣
 بوسيلسكي اوستروف، ١٢٩
 بولتافا، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩
 بيت كيكين، ١٥٧
 بيت المقدس، ٨٨
 بيرنو، ١٤٥
 بيرسوفيا، ١٤٠
 بيك، ٢١٤، ٢١٥

اينفري، ١٠٥، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤
 ١٢٥، ١٣٠، ١٣٢، ١٤٠
 ١٤١، ١٤٢، ١٦٥
 باريز، ١٧٧، ١٩١، ٢٠٦
 بافلوفسكي، ٩٧، ١٧٦
 بالقلي، ٧٠
 باور، ١٤٥
 بتربورغ، ٥٥، ٦٦، ٧٦، ٧٧، ٧٨
 ٧٩، ٨٦، ٨٨، ٩٤، ٩٦
 ٩٧، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
 ١١١، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ١٢١
 ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢
 ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦
 ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١
 ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨
 ١٤٩، ١٥١، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٢
 ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١
 ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥
 ١٧٦، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣
 ١٩٠، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٦، ٢١٨
 ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٤
 بتربورغسكي ستارنا، ١٣٠، ١٣١، ١٧٥
 بترغوف، ١٤٤، ١٥٦، ١٧٢، ١٧٦
 البحر الأبيض المتوسط، ٦٣، ١٣٥
 البحر الأسود، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٢
 ٧٤، ٧٧، ١٠٣، ١٣٥
 ١٧٩

جزيرة القان، ١٣١	بيلي أوزر، ١٠٢
جزيرة كامشاتا، ١٦٣	تبديافلوسكي، ١٧٢
جزيرة كوتلين، ١٣٤	تريفل، ٢١٤، ٢١٥
جزيرة كريت، ٥٩	تسارسكياسلو، ٩٦، ٩٧، ١٤٤، ١٤٩
جزيرة كوتويوف، ١٢٨	١٦٤، ١٧٦، ٢١٥، ٢٢١
جزيرة كوفي، ١٣٥	تشاركايسكي، ١٤٧
جزيرة لوسينوي، ١٣١	تشورن ريتسكة، ١٧٣
جزيرة وسيلي، ١٢٩	تفليس، ٧٩، ١٨٠
جنيئة شبرا، ٥٥	توفليس هولم، ١٣١
جنيئة الشتاء، ١٧٩	الجامع الأزهر، ٦٨
جنيئة الصيدلانية، ١٠٧	جامع الخليج، ٦٧
جنيئة الصيف، ١٥١، ١٦٣، ١٧١، ١٧٦	جبل الجيوشي، ٦٥
١٨٠، ١٨١، ٢٠٤	جبل دودبروف، ١٠٦
جيتومير، ٨٦	جبل طارق، ١٤٨
حديقة كترين، ١٤٥	جدة، ٢٠٩
حصن أرخوفه، ١٢٣	الجزائر الخالدات، ١٠٥
حصن أرشوك، ١٢٣	جزيرة الأند، ١٥٢، ١٥٧
خاركوف، ٢١٦	جزيرة اينيساري، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥
الخليج القسطنطيني، ٦٣، ٦٥، ٧٠، ٧٢	جزيرة الهين، ٦٠
خليج كاربوف، ١٧٥	جزيرة بتربورغ، ١٢٠، ١٣٥، ١٥٠
دائرة جُلجل، ٧٣	جزيرة أبوتيكير، ١٠٧
دانترغ، ١١٤	جزيرة الحجر، ٢٠٧
دانيمارق، ٦٦	جزيرة الحظ، ١٣٠
دربات، ٢١٦	جزيرة خبرفيسري، ١٢٩
دورباط، ١٢٥	جزيرة سيرة، ٦٢
دونسكوي، ٢٠١	جزيرة العفريت، ١٣١
ديراسكندر ينفسكي، ١٤٧، ١٤٩، ١٧٠	جزيرة فيتساري، ١٢٩

ستريلنا، ١٧٦	ديراسموليني، ١٠٧، ١٧٠، ١٧٥، ١٨٥
سكاندينا، ١٠٢	١٩١
سنيات، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠	دينير (نهر)، ٨٨، ٩١، ١٠٣
السويد، ١٠٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥	رشيلي، ٧٧
١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩	روسيا، ٥٠، ٥٥، ٥٧، ٦٧
١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣	٧١، ٧٥، ٧٦، ٨٤
١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨	٨٥، ٨٦، ٨٨، ١٠١
١٤٠، ١٤١، ١٤٦، ١٥١	١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٢٢
١٥٢، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣	١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١
١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨	١٤٢، ١٤٣، ١٣٢، ١٤٦
١٧٣	١٥٤، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٦
سيستورسك، ١٣٧	١٦٧، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢
سيستريك، ١٣٧	١٧٣، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٢
سيبيريا، ٩٩، ١٤٩، ١٥٦، ١٨٠	١٩١، ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٢
سينوى بورغ، ١٤٨، ١٧٥	٢١٨
شبرا، ٩٦	روسيا البيضاء، ٨٤
شلتوبورغ، ١٢٨، ١٣٠	روسيا الجديدة، ٨٤
شليسبل بورغ، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨	روسيا الصغيرة، ٨٤
١٤٠، ١٤٦، ١٥٣، ١٧٠	روسيا القديمة، ٨٤
شليسبل هولستين، ١٥٧	روسيا الكبيرة، ٨٤
شيروان، ١٧١	روما، ٧٨، ١٩٤، ٢١٤
الصين، ١٥٦	ريتساري، ١٣٦
ضاغستان، ٧٩، ١٧١	ريغال، ١٤٥، ١٧٦
غدير أيلمن، ١٠٢	ريفال، ١٤٥، ١٥١
غربول، ٩١	زاوية رزين، ٥٦
غَلْظَة، ٦٥، ٧٠، ٧١	سانكت بتربورغ، ١٣١
غوستولى دفور، ١٥٠	سترلك، ١٣١

القسطنطينية، ٥٥، ٦٣، ٦٧، ٦٨	غريفين بوج، ٧٩
١٠٣، ١٠٤	فرانسا، ٥٥، ١٤١، ١٥٣، ١٥٧
قشلة، ١٨٠، ١٨١، ٢١٧	٢١٨، ٢١٤
قصر انيتشكي، ١٧٧	فرانكفورت، ١١٤
قصر انيشكوف، ١٧٦	فوتسكياياتينا، ١٢٢، ١٢٣
قصر الشتاء، ١٧٤، ١٧٧، ١٨١، ١٨٢	فورثيج، ١٣٨
٢٠٢، ٢١٢	فوزينسيكي، ١٧٥
قصر الكرنتينة، ٦٣، ٦٤، ٦٥	فوسكر بسنيكي (شارع)، ١٨١
قصر المرمز، ١١٧، ١٧٩	فولكوف، ١٦٣
القصر الملكي، ٨٠	فونتانكة، ١٠٧، ١٧٥، ١٨٣
قصر المهندسين، ١٨١	فيبورغ، ١٢٠، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٦
قلعة أورشك، ١٢٥	١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤
قلعة دوناموند، ١٤٥	١٤٥، ١٥٠
قواجه بيك، ٨٤	فيبورغسكي سترنا، ١٧٥
كاريليا، ١٠٥، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٠	فيكتور (ميدان)، ١٤٧
١٣٢، ١٤٥	فيمار، ٢١٤
كارفاني، ١٨١	فيل أرمونيا، ٢٠٧
كانتري، ١٢٤	الفيولاند، ٨٤، ١٠٥، ١٢٣، ١٢٤
كترنيغوف، ١٤٧، ١٥٣	١٢٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨
كراسي سلو، ١٥٦	١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥
كروريا، ١٢٤، ١٣٢	١٥٣، ١٦٥، ١٦٦
كرو، ٢١٤، ٢١٥	فينيسيا، ١١٤
كرونسلوت، ١٤٠، ١٥٦	فينسيك، ٩٥
كرونشتاد، ١٥١، ١٥٢، ١٧٣	القاهرة، ٩٥، ٩٦
كريملان، ١٠٦	قرا ميدان، ٩٢
كستتنبول، ٦٨	القرم، ٧٨، ١٧٩
كني، ٦٠، ٦٢	قزان، ١٥٣، ٢١٦

كنيسة اسحاق، ٩٧، ١٥٧، ١٧٩، ١٨٤	كييف، ٨٨، ٨٩، ٩١، ١٠٣
كنيسة أندريا، ٨٨	١٠٤، ١٣٣، ٢١٦
كنيسة التثليث، ١٣٤٩، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦	لأختا، ١٧٣
١٧٠، ١٧١، ١٧٥، ٢٠١	لأدوغة، ١٢٩، ١٧٣
كنيسة الخلاص، ١٦٦	لادينوي بوله، ١٣٥
كنيسة الروم، ٧٠	لانديسكرون، ١٢٤
كنيسة سامسون، ١٧٥	لوبك، ١١٧
كنيسة الصعود، ١٧٥	لوست هولم، ١٣٠
كنيسة قسطنطين، ٦٧	لاوزا (نهر)، ١٦٩
كنيسة القلعة، ١٧٢ ٧١٦٤	لوندرة، ١١٤
كنيسة كران، ١٨١	ليتوانيا، ١٢٥، ١٣٨
كنيسة اللوتيريانيون، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٥	ليفونيا، ١٤٥، ١٤٦، ١٦٥
١٧٤	اللين، ٧٥، ٨٤، ١٤٦، ١٥٤
كنيسة المصابين، ١٨١	١٧٤
كنيسة النجارين، ١٦٨	مازندران، ١٧١
كنيسة نقولة، ١٧٥	المسجد الأقصى، ٦٧
كنيسة يوحنا الكبير، ٩٠	مصر، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٠
كوتلين، ١٣٦	٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦
كورلاند، ١٤٦، ١٥٧	٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٨
كور، ٢١٤	٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤
كوريا، ١٣٧	٨٧، ٩١، ٩٣، ٩٤
كونست كامير، ١٥٧، ١٧٢، ١٧٣	٩٥، ٢١٣، ٢١٩
كيريك، ١٠٤	معبد بانوس، ١٦٧
كوفيساري، ١٣١	مقدونيا، ٢١٤
كيكهولم، ١٢٤، ١٤٥، ١٤٧	مليون، ١٧٥
كيل، ١٥٧	موت ريوس، ١٤٣
كيلان، ١٧١	مورافيا، ١٠٤، ١٨١

۱۴۳ ، ۱۳۹ ، ۱۳۸ ، ۱۳۷	مورسکوي، ۱۸۱
۱۷۰ ، ۱۶۸ ، ۱۶۳ ، ۱۴۵	موسقو، ۷۵ ، ۸۶ ، ۹۰ ، ۱۰۶
۱۷۶ ، ۱۷۵ ، ۱۷۴ ، ۱۷۱	۱۲۸ ، ۱۲۶ ، ۱۲۵ ، ۱۰۷
۲۱۵ ، ۱۸۳ ، ۱۸۱ ، ۱۷۹	۱۴۰ ، ۱۳۹ ، ۱۳۸ ، ۱۳۶
نهر النيل، ۵۵ ، ۵۶ ، ۶۴ ، ۷۱	۱۶۸ ، ۱۶۴ ، ۱۵۷ ، ۱۵۲
نيسابور، ۱۱۲	۱۸۳ ، ۱۷۲ ، ۱۷۰ ، ۱۶۹
النيفانج، ۱۰۶	۱۸۳ ، ۱۷۲ ، ۱۷۰ ، ۱۶۹
نيفسکی بروسىکت، ۱۴۷ ، ۱۴۹ ، ۱۵۰	۲۱۶ ، ۲۰۱
النيمسا، ۵۵ ، ۷۹ ، ۱۲۶ ، ۱۷۵	موهلوف، ۸۸ ، ۹۱ ، ۹۳ ، ۹۴ ، ۹۵
۱۷۴	۹۶
نين، ۱۲۴ ، ۱۲۶	مويکه، ۱۷۵ ، ۱۸۰ ، ۱۸۳
۲۱۴ ، ۲۰۷ ، ۲۰۳	مينوديا، ۱۰۴
نیشانتز، ۱۲۴ ، ۱۲۵ ، ۱۲۶ ، ۱۲۷	نارفا، ۱۲۴ ، ۱۲۵ ، ۱۴۶
هامبورغ، ۱۱۴	نوتبورغ، ۱۲۵ ، ۱۲۶
۱۳۱ ، ۱۲۸	نوفغورد، ۹۰ ، ۱۰۱ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳
هامبورغ، ۱۱۴	۱۳۸ ، ۱۳۶ ، ۱۳۲
هانکوت، ۱۵۲	نهر ايزور، ۱۲۳
هلز ن فورس، ۱۴۳ ، ۱۴۸ ، ۱۴۹	نهر بوخ، ۸۷
هولاند، ۱۳۶ ، ۱۳۷ ، ۱۵۰ ، ۱۵۷	نهر دفيناء، ۸۶
هولستين، ۱۶۲	نهر دوناء، ۱۰۱ ، ۱۳۸
۱۶۹ ، ۱۶۳	نهر سيسترا، ۱۳۴ ، ۱۳۷
هيس هومبورغ، ۱۶۹	نهر کياس، ۱۳۶
واريف، ۱۰۲	نهر النيفاء، ۱۰۵ ، ۱۰۶ ، ۱۰۷ ، ۱۰۸
وسيلي استروف، ۱۲۰ ، ۱۳۱ ، ۱۵۳ ، ۱۵۷	۱۱۴ ، ۱۱۱ ، ۱۱۰ ، ۱۰۹
۱۸۰ ، ۱۷۵ ، ۱۷۴ ، ۱۷۱	۱۲۲ ، ۱۱۹ ، ۱۱۸ ، ۱۱۷
ويج، ۱۶۲	۱۲۶ ، ۱۲۵ ، ۱۲۴ ، ۱۲۳
ويس کريفيج، ۱۰۲	۱۳۰ ، ۱۲۹ ، ۱۲۸ ، ۱۲۷
يام، ۱۲۴ ، ۱۳۷	۱۳۶ ، ۱۳۵ ، ۱۳۳ ، ۱۳۱

٣ - الأمم والشعوب والأقوام والطوائف

١٥٤ ، ١٥٢ ، ١٤٨ ، ١٤٦	أرمن ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٠
١٦٢ ، ١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٥٥	اسبانيول ، ٢١٥
١٨٩ ، ١٨٥ ، ١٨٠ ، ١٦٧	إنجليز ، ١٥٦ ، ٢١٦
١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩١	أوروبيون ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٠
٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٠	١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢١٦
٢١٨ ، ٢١٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٦	إيطاليان ، ٧٦ ، ١٣١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
٢٢٣ ، ٢٢٢	٢٠٨
الروم ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٩١	بنو عثمان ، ٥٩
١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠١ ، ١٠٠	التاتار ، ٧٣ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٣٢
١٩٤ ، ١٥٤ ، ١٥٠	١٣٩ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٩٢
سكيفي ، ١٠٠ ، ١٠١	١٩٨ ، ٢٢٣
سيناف ، ١٠٢ ، ١٠٣	الترك ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٥
شامي ، ٦٦	٨٣ ، ٨٨ ، ١٥٠ ، ١٦٥
شراكسة ، ١٧٨	الجرمان ، ١٥٤
صرماطي ، ٩٩ ، ١٠٠	الخزر ، ١٠٣
الصقلب ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢	زوريك ، ١٠٢
٢٢٢ ، ١٣٦ ، ١٠٤	الروس ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ٩٩
الصقلب البلطقيون ، ١٠١	١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٢ ، ١٢٤
صقلب دونا ، ١٠١	١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠
الفجر ، ٧٣	١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨
	١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥

الفرس، ٥٧، ٨٣، ١٠٣، ١٤٩
١٥٠، ١٥٦، ١٦٥، ١٧١
١٧٩، ١٩٣، ٢٠١، ٢٢١
الفرنج، ٧٤، ٧٥، ٨٠
الفرنساوية، ٦٣، ٧٦، ٨٣، ١٤٤
١٩٠، ١٩٢، ٢٠٥، ٢٠٦
٢١٤
الفيونانيين، ١٣٤
القائولية، ١٩٥، ١٩٧
القلموق، ٩٩، ١٣٢، ١٣٩
القزاق، ١٣٢، ١٤١
الكرج، ١٧٨
اللاطين، ١٩٤، ٢١٥
توتريانية، ١٩٧
المصريون، ٦٨، ٦٩، ١٤٤
مغربي، ٦٤، ٦٦
المنغول، ١٣٦
الموسقوب، ٧٥، ٧٦
النصارى، ٥٥، ٦٧، ٦٩، ١٠٤
النوفغورديون، ١٣٢، ١٢٣، ١٢٥
النيمساوية، ٧٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٦
٢٠٧
ويس وتروفور، ١٠٢، ١٠٣
الهولنديون، ١٣٥، ١٦٣
يهود، ٦٠، ٦٣، ٦٧، ٨٦
٩٥، ٩٦، ١٩٧
اليونان، ١٠٠

٤ - قوافي أشعار الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي

٦١	صالح	٥٩	بتنائي
٨٣	الملاح	٥٩	سماء
٥٢	عيد	٦٣	هواء
٦٥	أوحد	٧٢	بيضاء
٧١	وزادي	٨٩	الهوى
٨٧	الرقاد	٢٢٣	هوى
٩٥	تهدا	٢٢٤	كفى
١٠٩	مزبد	٧٦	محجب
١١٤	الجليد	٨١	الطرب
٢٢٣	جلده	٩٢	وصبا
٦٠	نار	٩٦	سحاب
٦٢	الإبحار	١٠٧	وعذبه
٦٢	نار	١١١	غرائب
٦٥	قرار	١١٧	الإهاب
٧٢	نور	١٥٢	خصيبا
٨٤	بشر	٨٢	سنة
٩٢	السفر	٨٠	أمنية
٩٤	النضرة	٨٨	غابات
١١٨	قدر	٧٣	ولادتي
١٨٤	منظر	٨٩	شفتيها
٢٢٣	الزهر	٦٩	عُنة

١١٢	هلال	٨٠	الروسية
١١٢	ليلا	٨٣	نفسا
١٩٠	آمال	٩٦	عبوس
٤٩	أمه	٨٦	مغبوطة
٥٨	حميم	٨٩	قنوع
٦٩	الحُصرم	٨١	شافية
٨٧	سلامي	٩٥	موهلوف
١٩٣	سلام	٦١	الأزرق
٢٠٨	يتكلما	٦١	أرتقي
٢٠٩	غلام	٦١	مقلق
٥٩	نصران	١١٢	الليق
٦٤	مسكينه	٢٢٢	الزحلقة
٧٤	السفن	٥٧	هيت لك
٧٦	الأقربينا	٧٨	جاهل
٧٨	أمانها	٧٨	يفعل
٩٢	وولدان	٨١	الجمال
٩٤	القانون	٨٨	الكفل
١٨٨	ولنه	٨٩	وقلا
		٩٤	والدل

مواويل الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي

٧٢	تفتيت
٥٦	شمس
٥٦	منارس
٦٩	المكحول
٢٢١	نون

يوسف الصيداي

٥ - قوافي الشعر والشعراء

أحمد بن عبد العزيز المقدسي ، أبو الطيب	٥٠	ماء
	٥٠	الخليصاء
	٦٦	شفاء
الأخطل	٧٠	وظباء
أبو سعيد الأبي	١١٣	النداء
	١٩٣	بيضاء
	٨٧	الثرا
	٢١٤	البشرى
	٧٧	ما بي
ابن بابك	٩٥	الطربا
أبو معمر يعمر	١١٤	الشآبيب
	١١٨	عجبية
	١٣٨	غائبا
أبو تمام	١٦٥	واللعب
أبو بكر الشيرازي	١٩٢	الغراب
	١٩٧	زواج
	٢١٧	بالمحتاج
	٧٧	الميعادا
	٩٧	بعيدها
	٩٧	بالجلد
	٩٧	وتسعد

	يديه	١٩٢
المتنبي	البرد	١٩١
	ساعد	١٩٧
	وسوارها	٥٥
	اعتبار	٨٢
سليك بن السليكة	النوارا	٨٩
	شهره	٩٢
	الصور	٩٢
	دارا	١٣٩
	نفور	١٨٨
	قصره	١٧٨
الخشنامي	وقارا	١٩٣
	بصري	١٩٤
	بالإبصار	٢١٢
	تموز	١١٤
	النفس	٨٢
الحاجري	بالنواقيس	٩٠
قسيم بن إبراهيم، أبو منصور، بزرجمهر	مناحس	١٠٨
	وتعيش	٥٧
	قرصها	١٥٩
	العقاص	١٩٣
	بعض	١١٩
	ترجي	٦٤
ابن حجاج	الشقيق	١٩٦
	الملك	١٦٥
	أجلك	١٧٤
	تترك	١٨٩
ابن الرومي	مالكا	٥١

الحريري	٥٠	قبله
أبو العلاء المعري	٥١	الأوائل
امرؤ القيس	٩١	عقنقل
	١٤٠	تقابله
	١٤١	نبال
	١٤٧	هلال
	١٥٣	فاضل
	١٧٤	كوامل
المتنبي	١٨٠	الرجال
أبو الطيب المصعبي	١٩٢	استقلا
أبو الفرج بن أبي سعد بن خلف	١٩٣	الأنامل
ابن قلاقس	٢١٥	فيل
	٢٢١	حاله
	٥٦	السما
	٦٨	بالكرم
	١٣٩	الكليم
	١٨٦	الدرهم
	٦٤	البيان
	٧٩	سنة
	٨١	مهين
الحريري	٩٣	عينين
	٢٠٨	غناها
أبو الفضل التميمي	٢١٥	زانا
	٢٢١	القانون
	٧٨	به
ابن رشيق	٥٩	إليه
	١٧١	تيها
أبو العلاء المعري	١٩٥	له

٦ - المصطلحات الحضارية

بيت مبلط بالخشب، ٦٦	الأجر، ١٣٥
البيدروجين، ٨٤، ٨٥	اصطبل، ١٦٨
البندق، ٢١٥	أوبرا، ٢٠٦
التحفجية، ١٠٥	أوضة، ٥٩، ٦٤، ٧٣، ٧٩
تذكرة مرور، ١٦٠	١١٦، ١٣٥، ١٥٧، ١٦١
الترسانة، ١٠٩، ١١٠، ١٤٢، ١٤٩	١٦٢، ١٦٨، ١٧٧، ١٩٥
١٥٣، ١٦٧، ١٧٤، ١٧٥	أوضة حجر، ٩٥
الترسخانة، ١٣٤، ١٥١	أوضة خشب، ٩٤
تقليب الأرجل، ٧٠	أورطة، ١٣٤، ١٣٦، ١٤١
التكريز، ١٩٥	بالوعة، ١٥٠، ١٥٩، ١٧٦
التياتر، ٨٢، ١٦٢، ١٥٧، ١٦٧	بوغاز، ١٤٨، ١٥١
١٨٠، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٥	البولوار، ٧٨، ٨٠، ١١٩، ١٨٠، ١٨١
٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٥	البومب، ١٤٣
٢١٨	بيت الأسلحة، ٩٧
تياتر اسكندرية، ١٨١	بيوت إيواء الفقراء، ١٨٠
التياتر الاسكندري، ١٥٠	بيت البوصطة، ١٤٧
التياتر الإيطالياني، ٨٢	بيت جليد، ١١٥
تياتر مصر، ٨٢	بيت حجر، ١٧١
تياتر ميخائيل، ١٨١	بيت خشب، ١٤٧
جارية، ٦٤	بيت اللقطاء، ٢١٧
جامع مقبب، ٦٧	بيت اليتامى، ٨٢

- جامكية، ١٦٩، ٢٠٦
الجرنالات، ٧٦
جري الخيل، ٢١٥
جسد متحجر، ١٤٦
الجص، ١٣٨
الجمرك، ١٥٥
جمعية الرقص، ٢١٠
حجر من جليد، ١٠٥
حشي بالصناعة، ١٤٩
حصن، ١٤٩
الحلوجية، ١٥٠
حمام، ٩٤، ٩٥، ١٠٠، ١١٥
خان لوندرة، ٨٨
خان الخليلي، ٦٦
خراج مصر، ٦٧
خُص، ٩٩، ١٣٥
الخيطة، ٧٩، ١٥٠، ١٩٤، ٢١٦
درايزين، ٦٧، ١١٥، ١٤٤، ١٧٦
١٨٣
دكان، ٨٠، ٢١٨
دكة صوف، ٦٧
دماء الملوك، ٦٦
الدينما، ١٠٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥
١٣٣، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٥
١٤٠، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥
١٥٤، ١٥٣، ١٥١، ١٤٩، ١٤٣
١٧٩، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٥
- دويرة، ١٠٠، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٥
دويرة المنتجين، ٩٩
دويرة جليد، ١١٧
دهليز، ١٤٦
دير، ١٠٣، ١٠٤
ديوان الجمرك، ٧٦، ٨٤
ديوان المكس، ٨٤
الرقص، ١٠٠
الرقص الانجليزي، ١٦٢
رقص الفلس، ٢١٠
رقص القادريل، ٢١٠
الرقص الليهي، ١٦٢
رقص المازورق، ٢١٢
رقص المسخرات، ٢١٢
سامر رقص، ٧٠
سراية السلطان، ٦٤
سرداب، ١٤٦
سُفرة الغندرة، ١١٦
سقف مسنم، ٦٦
سوق، ١٤٣، ١٥٠، ١٥٨، ١٨٠
١٩٥، ٢٠٣
سيجار، ١٦٠
شراع، ٥٦
الشطرنج، ١٦٢، ٢١٥
شمع اسكندراني، ٢٢٠
شيش، ١٧٧
الصوم الكبير، ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٩

عيد ولادة نقولة الأول، ٢٠٤	صوم وفاة مريم، ٢٠٧
عيد ولي العهد اسكندر، ٢٠٤	ضيعة، ١٤١
عيد المعمد يوحنا، ٢٠٥	الضامة، ١٦٢
عيد الميلاد، ٥٥، ٢٠٣	عقاب النفي، ١٥٥
غوستين دفور، ١٧٦	عيد اسم القيصر ومار نقولة، ٢٠٥
الفرزان، ٢١٥	عيد إظهار العذراء، ٢٠٥
فسقية، ١٤٤، ١٥١	عيد أول السنة، ٥٥، ٢٠١
فرش بناموسية، ١١٦	عيد بشارة مريم، ٢٠٤
فرمان، ١٥٥، ١٦١، ١٧٤، ٢٠٢	عيد بطرس وبولص، ٢٠٤
قبة، ٦٧	عيد بطرس وبولص، ٢٠٤
قبور رخام، ٦٤، ٧٠	عيد تتويج القيصر والقيصرة، ٢٠٤
قراقة، ٦٤، ٦٦	عيد التجلي، ٢٠٤
قصارى، ١١٥	عيد جلوس القيصر، ٢٠٥
قلعة، ٨٨	عيد دخول عيسى إلى الهيكل، ٢٠٤
قنطرة، ١٠٨، ١٠٩، ١١٩، ١٢١، ١٣٥	عيد الدنما، ١٧١
١٥٨، ١٧٣، ١٨١، ١٨٤	عيد الرفاع، ٢٠٢، ٢١٢
قنطرة اسلامبول، ٧٠	عيد روح القديس، ٢٠٤
القهوجية، ١٥٠	عيد ستر العذراء وشفاعتها، ٢٠٥
قيسارية التجار، ١٧٦	عيد الصليب، ٢٠٥
الكرانتينة، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٧٣	عيد صورة العذراء، ٢٠٥
٧٤، ٧٥، ٧٦، ١٤٦	عيد الغطاس، ٢٠٤
كُشك، ١٤٤، ١٥١	عيد الفصح، ٥٥، ٢٠٣
كنيسة مذهب، ٨٨	عيد القيصرة، ١٥٤
كونسلارية، ١٣٤، ١٥٥، ١٥٨	عيد القيصرة اسكندرية، ٢٠٤
الكهانة، ١٦٤	عيد وفاة مريم، ٢٠٤
لحاف، ١١٦	عيد ولادة العذراء، ٢٠٥
لعب بريفرانس، ٢١٣	عيد ولادة القيصر، ٢٠٤

لعب بسيانس، ٢١٤	مقعد الرقص، ١٧٦
لعب بيكر، ٢١٤	مقعد المرمر، ١٧٧، ١٧٨
لعب دورسكي، ٢١٤	منارة، ٦٠، ٦٢
لعب الفيست، ٢١٤	المنبر، ٦٧
لعب الورق، ١٦٢، ٢١٣	منتزه، ٧٧
لعب ورق ميلنيك، ٢١٤	نشان، ١٣٠، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٥
لعب يدس، ١٦٣	١٨٧، ١٨٨
لومان، ١٦٧	نشان التخليص، ١٥٥
مارستان، ٨٢، ٢١٧	النظام، ٨٨، ٩٣، ١٣٣، ١٥١
ماهول، ١٥٠	١٨٥، ١٨٩، ١٩٠
مخدرات، ١١٦	النظارات المكبرة، ٩٧
مخازن، ٨٠، ١٤٣، ١٥٠، ١٩٤	النقطة، ٨٢، ١٩٨
مدخنة، ١٦٠	نواتي، ١١٠، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧
مرسوم، ٥٨	١٣٩، ١٥٤
مستودع المال، ١٨٠	النوبة، ٢٠٦، ٢٠٧
مسخرة، ١١٠، ١١٦، ١٥٦، ١٧١	نوبة عمومية، ٢٠٨، ٢٠٩
١٧٨، ١٩٢، ٢١٣	نوبة موسيقى، ١٦٢
مضيقة، ١٤٣، ١٤٤، ٢٢٠	النوروز، ٢٠١
مطبخ، ٥٩	نهر متجلد، ٢٠٥
مقبرة المسلمين، ٦٤	هرم، ١١٦
المقعد الأبيض، ١٧٧، ١٧٨	هز الأرداف، ٧٠
مقعد التخت، ١٧٧	هلال كبير مذهب، ١٧٤
مقعد جرجيس، ١٧٧، ١٧٨	ورق منقوش، ٧٣
المقعد الحربي، ١٧٧	يورطة، ٩٩

٧ - الوظائف والمناصب

شهندرات، ٢٠٩،	أسطى، ١٣٨٧١٣٢، ١٥٤
صاري، ١٥١	الأشنج، ١٠٢
صاري العسكر، ١٠٢، ١٢٥، ١٢٦، ١٥٥	أون باشوان، ١٥٩
الصدر الأعظم، ١٥٥	البابا، ١٩٤
ضابط سياسي، ١٥٨	بواب، ١٦٠
الطبجي، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣١	البيار، ١٥٢
القبطان، ٧٣، ١٥٢، ١٥٣	الجي، ١٤٩، ١٥٢
٢١٥٧١٦٨	حكيم، ٧٣، ٧٦
قُس، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦	حمامي، ٩٤
١٩٧، ١٩٩، ٢٠٣	الخان الشمالي، ١٠١
القنصل الجنرال، ٥٧	الخطيب، ٦٧
المطران، ١٩٤، ٢٠١	راهب، ١٩٤
ناظر، ١٣١	سفير، ١٤٦، ١٥٦، ١٦٦، ١٧١
ناظر الكرنتينة، ٦٤	١٧٩، ١٧٦
نقيب الأشراف، ٩٧	سفير بخارى، ١٤٨
نواتي، ١٥٦	سفير جوقند، ٩٧
هَبَّاب، ١٦٠	سفير الخان، ١٥١
وزير الحرب، ١١٠	سفير الدولة الروسية، ٥٧
وزير الغرباء، ٥٧	سفير الدولة العلية، ٩٧
	سقاء، ٦٤، ٦٧

٨ - المَطْعُومُ والمشروب والمَشْمُوم

الحنطة، ٦٠	أرز، ١٤٩، ٢٠٠
الحور، ١٠٦	اسفندان، ١٠٦
خبز نظيف، ٧٤	البان، ٢٢٤
خشب، ١٠٠	الباميا، ٩٣
الخمر، ٦٠، ١٢١، ١٣٧، ١٣٩	البتاتس، ٩٣
١٤٩، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٣	برتقال، ٩٣، ٩٣، ٩٤
١٦٦، ١٦٧، ١٧٢، ١٩٥	برقوق، ٩٣
١٩٩	البسلة، ٩٣
خمر الشامباني، ١٩٦، ٢٢٠	بطيخ، ٩٣
الخوخ، ٩٣	بلح أحمر، ٩٣
دخان، ٢٢١	بلح أخضر، ٩٣
دقيق، ١٢١، ١٤٦	بلح أصفر، ٩٣
رقاق بلني، ٢٠٢	بوزة، ١٦٤
ريحان، ٩٣، ٩٧	البيض، ١٩٥، ٢٠٣
زبيب، ١٤٩، ٢٠٠	تفاح، ٩٣
زهر الزنبق، ٢١٤	التنباك، ٢٢٠
زيت، ٦٠، ١٩٩	تين برشوفي، ٩٣
الزيت الحار، ١٩٥	الجوز، ٢١٩
السرو، ٦٤	الحلاوة، ٨٠، ٩٧، ١١٦، ١١٦
السمن، ١٩٥	١٩٦، ٢٠٣، ٢٢٠، ٢٢١
شاي، ٩٢، ١٦٢، ١٧٨، ٢٢٠	الحليب، ٢٢٠

قصب السكر، ٩٣	شجر البندق، ٩٣
القلقاس، ٩٣	شراب العسل، ١٦٢، ١٧٨
القمح الأسود، ٩٣	شراب الليمون، ١٦٢، ٢٢٠
قهوة، ٦٥، ٧٠، ٧١، ١٦٢	شرب الشيشة، ٢٢٠
٢٢٠	شعير، ٩٣، ١٩١
كباب، ٢٢٠	شورية، ٢٢٠
لحم ١٩٦٧، ٢٠٢	شورية كرنب، ٢٢٠
اللان، ٩٩	الشوكولات، ١٦٢، ٢٢٠
الليف، ٩٤	شون الغلال، ١٤٠
مبردات، ٨٠	الصفصاف، ١٠٦
مشمش، ٩٣	الصنوبر، ١٠٦
ملح، ١٣٧	العسل، ٦٠
موز، ٩٣	العنب، ٩٣، ٩٤
مولوخيا، ٩٣	فطر بلبن منعقد، ٢٠٣
نخلة هندية، ٢٢٤	فطير، ٢٠٢
نُقل، ١١٦	القان، ١٠٦، ١٣٤
ورد، ٩٣	قاون، ٩٣
ياسمين، ٩٣	قبق، ١٣٥
	قثاء، ٩٣

٩ - الأزياء والملابس والقماش

إزار، ١٩٠	الصوف، ١٦٣
بابوج، ١١٦	طاقية، ٧٣، ١٩٣، ٢١٩
بابوج اصطنبولي، ٦٩	طربوش طويل، ٧٣
بدلة الولبة، ١٩٠	الطرف السيلانة الكشميري، ٦٦
البردة، ٦٨	طرف مطرزة، ٦٦
برنس عربي، ٨١	عباءة، ٢١٤
برنيطة، ٨٧، ١٠٠، ١٩٠، ١٩١	الفراء، ١٣٢، ١٤٦، ١٩٠
١٩٥، ٢٠٠، ٢٢١	فرجية، ١٨٩
البسط، ٦٧	فستان، ٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٧
البفت، ١٨٩	فوطه، ٩٥
جبة طويلة، ١٨٩	قاوون، ٦٩، ٧٠
جزمة، ١٩٩	القبة، ١٩٠
الجوخ، ١٨٩، ٢١٩، ٢٢٠	قصب أبيض، ١٨٩
الجوخ الأسود، ٢١٩	القطن، ٦٠
الحرير، ٦٠، ١٦٣، ٢١٩، ٢٢٠	قفطان تتري، ٧٣
خفة عاج، ١٧٢	قميص افرنجي، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٩
سرفان، ١٩١	كتان، ٦٠
السفط، ١٨٩	كرسيت، ١٩٠
سروال، ١٨٩	محرمه، ١٩٠
شملة بيضاء، ١٩٦	مسك، ٢١٣
الشيت، ١٨٩	مقصب، ١٦٣
صدرية، ١٨٩	منديل، ٧٣، ١٩٠، ١٩١، ١٩٩، ٢١٢
صديري، ٧٣، ١٩١	منديل اصطنبولي، ٦٩

١٠ - الأدوات والآلات

الدقة، ٥٩	ابريق، ١٧
ديدبان، ١١٧، ١٦٠	ابرة، ٢١٧، ١٩١
ربابة، ١٠١	أبخرة، ١١٦
راية، ١٧٧	بارجة، ١٢٩، ١٤٢، ١٤٨، ١٥١
زمارة قريبة، ١٠١	البُوش، ٦٩
زئبق ميزان الهواء، ١١٠	بوق، ١١٦، ١٦٢
زورق، ٥٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٩	بندقية، ١٤٨، ١٥٦
١٥١، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣	بنديرة، ١٠٩، ١١٠، ١٣٥، ١٤٠
٢١٥	١٤٣، ١٧٠
زورق القسي، ٦٣	بيرق، ١٤٥، ١٥١، ١٦٦، ١٧٧
ساعة، ١٤٧، ٢٠٣	تابوت خشب، ١٩٩
ساعة دقاقة، ٦٥، ١١٦، ١٥٧	ترس، ١٦٨
سفينة بخار، ٦٠، ١٤٥، ١٥٣	الجرار، ٢٢٠
سفينة بخار نيمساوية، ٥٩	جرس، ٨٩
سفن اوروبا البخارية، ٦٣	جُلة حديد، ١١٥
سفن أوروبا القلعية، ٦٣	خبل، ١١٠
سفينة حربية، ١٦٤	حربة، ٩٩
سُكّان، ٥٩	حنفية، ٦٤، ٦٧، ١٤٣
سكة الحديد البخارية، ٦٠، ٩٦	خابية، ٦٨
سكين، ٧٦، ٢٢٠	خُرج، ١٣٢
سلم، ١٤٤، ١٧٨	خيمة، ١٣٥، ١٤٦

العربة الامبراطورية، ١٦٨	سهم، ٩٩
عربة بخار، ٩٧	سيف، ٩٩، ١٠١، ١٤٩، ١٨٩
عربة زحلقة، ١١١، ١٦٨	١٩٠، ٢٠٩، ٢٢١
عصا مرصعة بالجواهر، ١٦٤	شُفر، ٦٧، ٢١٩
غاشية، ٩٧، ١٧٦	شفرة نيمساوية، ٦٧
غراب، ١٣٦،	شمسية، ١٩٠
غليون، ١٣٨، ١٤٨، ١٥٣	شمع، ١١٦، ١٩٥، ١١٩، ٢٠٣
فاس، ١٣٢، ١٣٣	شمع اسكندراني، ١١٦
فانوس، ١١٢، ١١٦، ١٦٠	شمعدان، ١١٦، ٢٢٠
فرقيطة، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٣، ١٦٤	شوكة، ٢٢٠
١٦٩	صفارة، ١٠١
فلوكة، ١٢٨، ١٢٩	صندل، ٥٥
فنار، ١١٩، ١٢١، ١٨٢	صنم، ٩٩، ١٠٠، ١٠٤، ١٧٩
فنجان، ٢٢٠	صواني الشاي، ١١٦
فؤارة اميترا، ١٤٤	صهريج، ١٤٨
فؤارة سمسون، ١٤٤	طارة، ١٩١، ٢١٧
قادوم، ١١٠، ١٥٣	طاولة، ١٣٤٨
قارب، ١٦٩، ١٨٣	طبل، ١٦٧
قانون، ٧٠، ٨٣، ٩٤، ٢٠٨	طرنبة، ١٦٠
٢٢٠، ٢١٧، ٢٢٠	طرنبيطة، ١٣٥، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧
قربة، ٦٧	١٦٨، ١٧٠
قفه، ١٣٢	طشت، ١٩٩
قنديل، ١٤٥، ١٩٥، ٢٢٠	العَجَل، ٩١، ١١٥
قوس، ١١٠	عربة، ٦٩، ٧٤، ٧٥، ٨٠
قوصرة، ١١٥	٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨
قيثارة، ١٠١	٩٦، ٩٧، ١٠٩، ١٣٢
كاروصة، ١٨٤، ٢٢١	١٥٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٧
كُباية، ٧٩، ١١٦، ٢٢٠	١٩٩، ٢٠٣، ٢٢١

مشط، ١٩٣	كرة سماوية، ١٥٧
مطوى، ٦٧	كمنجة، ٧٠، ٢٠٨
مطوى انجليزي، ٦٧	كيس، ٩٤، ٩٥
معدية أبيار، ٨٧، ٩١	مجرفة، ١٣٢
معزقة، ١٣٢	مجنة، ٩٩
مغنطيس، ٩٢	مدفع، ٧٦، ١٠٩، ١١٥، ١١٧
ملعقة، ١١٦، ٢٢٠	١٢١، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٥
ميزان الهواء، ١١٣	١٤٠، ١٤٣، ١٤٨، ١٥١
ناقوس، ٩٠، ١٣٤، ١٤٩، ١٥٧	١٦٦، ١٦٧، ١٦٧، ١٧٠
١٦٧، ١٧٣، ١٧٥، ١٩٥	١٧١، ١٧٣، ٢٠٢
٢٠١	مرآة، ١١٦، ٢١٩
الوابور، ٦٠، ٦٣، ٧٣	مرجوحة، ٧٠، ٢٠٢، ٢٠٣
وابور روسي، ٧٢	مركب بخاري، ١٣٧
هاون، ١١٥، ١٣٥، ١٤٢	مشاعل، ٧٦

١١ - التربية والتعليم والثقافة

- | | |
|------------------------------|-------------------------------------|
| علم المعادن، ١٨٠ | أرباب القلم، ١٨٩، ٢٢٤ |
| العلوم الشرقية، ١٨٠ | أكاديمية التصوير، ١٧٩، ١٨١ |
| فرخ من الورق، ٨٥ | أكاديمية الجراحة والطب، ١٧٥، ١٨١ |
| قاعة التاريخ الطبيعي، ١٥٦ | أكاديمية العلوم، ١١٧، ١٤٩، ١٧٢، ١٨٠ |
| كازيطية الأدب، ٢١٨ | أكاديمية الملاحة، ١٥٦، ١٧٥ |
| كاغد منشن، ٨٥، ١٨٨ | الاونيفرستيت، ١٤٨، ٢١٦ |
| الكتابة الوطنية (جرنال)، ٢١٨ | جرنال ابن الوطن، ٢١٨ |
| كرخانه الورق، ١٦٣ | جرنال أخبار بتربورغ، ٢١٨ |
| كوميديا عجيبة، ١٦٣ | جرنال فرنساوي، ٢١٨ |
| الألسن الشرقية، ٥٧ | جرنال الكسم، ١٩١ |
| الألسن الغربية، ٥٨، ٧٦ | جرنال المعاصر، ٢١٨ |
| اللسان الأرمني، ٢١٦ | جرنال نخل الشمال، ٢١٨ |
| اللسان الإسبانيولي، ١٥٥ | جرنال نيمساوي، ٢١٨ |
| اللسان الانجليزي، ١٥٥، ٢١٨ | الحساب الجديد، ٥٥ |
| اللسان الطلياني، ١٥٥، ٢١٨ | الحساب القديم، ٥٥ |
| اللسان التاتاري، ١٥٥، ٢١٦ | خزانة كتب، ١٤٩، ٢١٨ |
| اللسان التركي، ٥٧، ٨٤، ١٥٥، | خزانة الكتب القيصريّة، ١٥٠ |
| ٢١٦ | ريشة، ١٧٤ |
| اللسان الدانيمارقي، ١٥٥ | السقط (جرنال)، ٢١٨ |
| لسان روسيا، ٥٨، ٦٢، ٧٦، ٧٩ | علماء الجغرافيا، ٨٤ |
| ١٥٥، ١٩٧، ٢١٢، ٢٢٤ | علم التصوير، ٧٧، ٧٨ |

مدرسة الألسن الغربية، ٥٧	لسان الروم، ٦٩، ١٥٥، ٢١٧، ٢١٨
مدرسة الألسن الفرنسية للبنات، ٧٩	لسان العرب، ٨٠، ١٩٥، ٢١٢، ٢١٦
مدرسة البحارة، ١٨٠	٢٢٢
مدرسة البنات، ٩١، ٩٣	لسان الصقلب، ١٩٥
مدرسة تعليم التياتر، ٢٠٦	اللسان الصيني، ١٥٥
مدرسة الحرب، ١٦٣	اللسان الفارسي، ٥٧، ١٨٢، ٢١٦
المدرسة العمومية، ١٤٨ ٧٥٧	اللسان الفرنسية، ١٥٥، ٢١٨، ٢٢٣
مدرسة القُسس، ١٦٨	اللسان القلموقي، ١٥٥
المدرسة القيصرية الكبرى، ١٨١، ١٨٧	اللسان الكرجي، ٢١٦
٢١٦	اللسان اللاتيني، ١٥٥، ٢١٧، ٢١٨
مدرسة كترين للبنات، ١٨١	اللسان الهولاندي، ١٥٥
مدرسة المهندسين، ١٨٠	اللسان الليهي، ١٥٥
مسك الدفاتر، ١٦٩	اللسان المنغولي، ١٥٥
مكتب، ١٨٨	اللسان النيمساوي، ٧٩، ١٥٥، ٢١٨
مكتب كديت، ١٨١	٢٢٢
مكتبة العمومية، ١٨٠	مترجم، ٥٧، ٦٢، ١٥٥، ١٧٢، ٢١٨
مكتوب، ٥٦، ٧٨، ١٤٦، ٢١٤	محك البحث، ٧٦
ورد، ٦٥	مدرسة الأشغال، ١٦٣
ورق، ١٦١	مدرسة الألسن الشرقية، ٥٠

١٢ - كتب وعقود صلح

كتاب إغارة عسكر الروس على السويد، ١٤٩

كتاب الخريدة، ١٩٣

كتاب القانون لابن سينا، ٢٢١

عقد تياوزين، ١٢٤

عقد سطرلبون، ١٢٤

١٣ - الأمثال والأقوال

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| العلم رأس مال الأكياس، والجهل | إذا جاء الأجل بطلت الحيل، ١٧٣ |
| لكل ضرر أساس، ٤٩ | إن السفينة لا تجري على اليبس، ١٧٠ |
| الغُصين هذا، فأين الظل والثمر، ٩١ | بعد اللثيا والتي، ٥٦ |
| كل الصيد في جوف الفرا، ١٤٤ | تأبى الطباع على الناقل، ١٣٧ |
| لقد حَكَّيت ولكن فاتك الشنب، ١٤٤ | جاء من اصطنبول في علة، ٦٩ |
| ليلة نابغية، ٩٣ | الحدث الأصغر يندرج في الحدث |
| معظم النار من مستصغر الشرر، ١٦٩ | الأكبر، ١٦٨ |
| مصائب قوم عند قوم فوائد، ١٤١ | حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء، ٦٢ |
| هربت من الحريقة وقعت في المطر، ٨٢ | خطأ الطبيب إصابة الأقدار، ١٤٠ |
| | العجلة من الشيطان، ٨٨ |

١٤ - الأوزان والمكاييل والمقاييس والنقود

امبريال، ٢٠٦
إصبع، ٩٠، ١١٨
بود، ٩١، ١٢١، ١٧٣
ذراع، ٨٥، ١٧٧
رُبل، ٨٥، ٩٠، ١٢٠، ١٤٩
١٥٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١
١٧٢، ١٧٧، ٢٠٧، ٢٠٨
٢١٠، ٢١٣
سجين، ٨٥، ١١٤ ٧١٠٧
١٢٧، ١٥٧، ١٣٥
١٨٠، ١٨١
رطل، ٩١، ١١٥، ١٥٥
فرانك، ٢١٨
فرست، ٧٤، ٨٥، ٨٦
١٠٦، ١٣٦، ١٤٠
قدم، ٩٠، ١١٨
١٧٣
قرش رومي، ١٧٧
كبيك، ٨٥، ٩١، ١٣٢، ١٥٥
١٧٧، ١٨٣، ٢١٣
ليفريستيرلانسكر، ٩١
مجر، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٧

١٥ - المعامل والمصانع والمناجر:

- فبريقة البسط، ١٦٣
- فبريقة الشمع، ١٥٠
- كاغدخانة، ٧١
- معمل الأجر، ٩١، ٩٣، ١٤٧
- معمل البوزة، ١٧٥
- معمل تكرير السكر، ١٦٨
- معمل الحديد، ١١٩، ١٧٣
- معمل القطران، ٩٣
- معمل الصابون، ٩٤، ٩٥
- معمل الماء المعدني، ٧٩
- معمل غزل النسيج، ٧٩، ١٦٣، ٢١٧
- منجرة، ١٣٩، ١٤٩
- منجرة اولونيتز، ١٣٥
- منجرة بتر بورغ، ١٤٨

١٦ - المعادن والأحجار

الألماس، ٩٧، ١٦٨، ١٧٧
بارود، ١٧١
بنية مدفع، ١٣٥
خاتم، ١٧٧، ١٩١
خاتم ذهب، ١٩٦
خاتم مرصع بالألماس، ١٨٨
دبوس مذهب، ١٩٣
ذهب، ١٦٨
رخام، ٩٥، ١٣٤، ١٤٧
الرصاص، ١٢٩
الشَّنك، ١٢٨، ١٧٠، ٢٠٢
العسجد، ١٧٧
فحم الحجر، ٦٢
فضة، ١٦٨، ١٧٧، ٢١٣
قنجة حديد، ١٣٢، ١٧١
كبريت، ١٦٢
كُحل، ١٤٤
لؤلؤ، ١٩١
النفط، ١١٦
الياقوت، ١٧٧
الياقوت الأزرق، ١١٦

١٧ - الحيوانات والحشرات

إبل، ٨٦	سمك، ٦٠، ٦٣، ٩٣، ٩٩
أتان، ٨٠	١٥٧، ١٩٥، ٢٠٢
أرنب، ٨٦	سمك نيسان، ١٦٣
البق، ٩٣	ضب، ١٠٠
البقر، ٦٧، ١٤٩	طير، ٦٠، ٩٧، ١٥٧، ١٦٧
ثعبان، ١٨٢	عجل، ٨٦
ثور، ٨٠، ١٦٧	عصفور، ١٥٧، ٢٠٣
جمل، ٦٧	العنقاء، ١٤٢
جاموس، ٦٧، ٨٠، ٨٦	غزال، ١٥٠
حصان، ٧١، ١٤٦، ١٧٧	غنم، ٨٦، ٩٧
حمار، ٦٧، ٨٠، ١٩١	فيل، ٩٧، ١١٥، ١١٦، ١٤٩
خيل، ٨٠، ٨٤، ٨٥، ٨٦	قرد، ٢٠٦
٩١، ٩٧، ١٠٠، ١٤١	كلب، ٦٦
١٨١، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٩	كلب بيتي، ٦٦
٢٠٢، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١	كلب تركي، ٦٦
دجاجة، ٨٩	كلب دانيمارقي، ٦٦
الدرافيل، ١١٦	النسر، ١٦٢
ديك، ١٩١	نمر، ١٤٩، ٢٠٢
ذئب، ٨٦، ١٠٠، ٢٠٢	هولندية، ١٤٩
سبع، ١٤٩، ٢٠٢	

١٨ - الظواهر الطبيعية والأمراض

- البحران، ٦٥
- الجُدري، ٦٤
- الحمى الصفراوية، ١٢٠
- داء الكلب، ٦٦
- الرياح الشرقي، ١٥٢
- الرياح الشمالي الغربي، ١٠٧
- الرياح الغربي، ١٠٧، ١١٣، ١٢١
- الرياح الغليني، ١٠٧
- الرياح القبلي الشرقي، ١١٨
- الرياح القبلي الغربي، ١٠٧
- داء السُّعر، ٦٦
- الطاعون، ٦٤، ٧٤، ٧٥
- طاعون سنة ١٢٥٢ هـ، ٦٥
- الطاعون المصري، ٦٠

الفهرس العام

٥	تنويه وإهداء
١٦ - ٧	تقديم (سيرة حياة المؤلف)
٢١ - ١٦	مؤلفاته
٣٠ - ٢١	المخطوط
٣٢ - ٣٠	عوائد الروس
٣٣ - ٣٢	الملابس
٣٥ - ٣٣	عادات الزواج
٣٦ - ٣٥	تقدم العلوم
٣٩ - ٣٧	أهمية الرحلة
٤٤ - ٤١	مصادر ومراجع المقدمة
٤٦	المخطوط
٥٥	المقدمة
٩٩	الباب الأول
١٠٥	الباب الثاني
١٨٥	الباب الثالث
٢٢٥	الأعلام
٢٣٠	الأمكنة
٢٣٧	الأمم والشعوب والأقوام والطوائف
٢٣٩	قوافي أشعار الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي
٢٤٠	المواويل

٢٤١	قوافي الشعر والشعراء
٢٤٤	المصطلحات الحضارية
٢٤٨	الوظائف والمناصب
٢٤٩	المطعم والمشروب والمشموم
٢٥١	الأزياء والملابس والقماش
٢٥٢	الأدوات والآلات
٢٥٥	التربية والتعليم والثقافة
٢٥٧	كتب وعقود صلح
٢٥٧	الأمثال والأقوال
٢٥٨	الأوزان والمكاييل والمقاييس والنقود
٢٥٩	المعامل والمصانع والمناجر
٢٦٠	المعادن والأحجار
٢٦١	الحيوانات والحشرات
٢٦٢	الظواهر الطبيعية والأمراض
٢٦٣	الفهرس العام



مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع شوريا - بناية صمدي وصالحه
هاتف ٣٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برفيقا: بيوشران